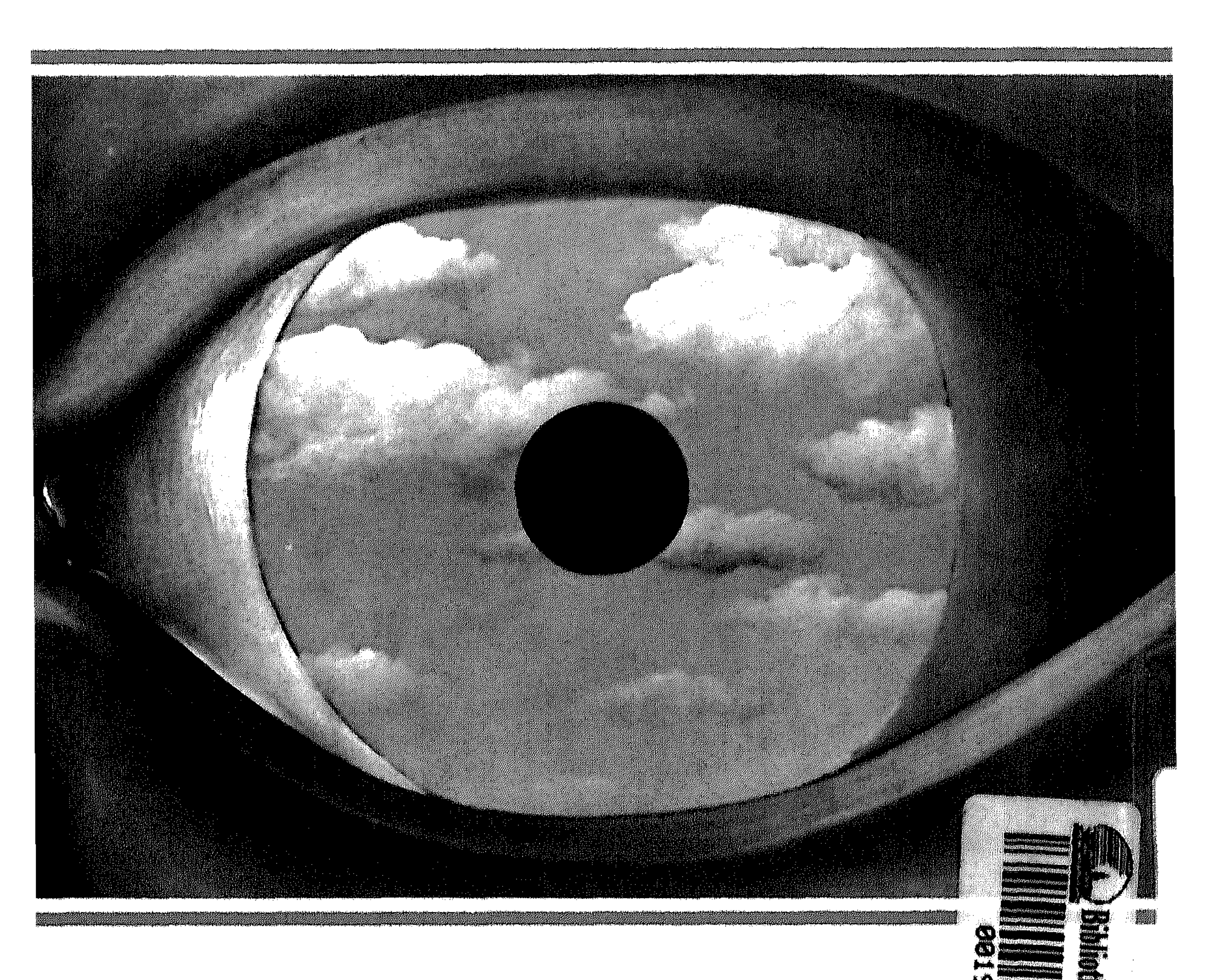
غادة السمّان

السّباحة في بحيرة الشيطان



ير الكاملة ٣

منشورات غادة السمان

ـ لوحة الغــلاف الاول للفنــان رينيه ماجــريت ،رسمهــا عام ١٩٢٨ واسمهــا «المرآة»

ـ صورة الغلاف الاخير للفنان المصور حسن حوماني .

ـ الخط وتنفيذ الغلاف للفنان حسين ماجد .

غـادة السّمّان

الأعمال غير الكاملة

٣

السباحة في بحيرة الشيطان

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت — ص . ب ١١ ١٨١٣
تلفون : ٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى

ايار (مايو) ١٩٧٩

الطبعة الثانية

تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٨٠

الطبعة الثالثة

اذار (مارس) ١٩٨٣

الطبعة الرابعة

ايلول (سبتمبر) ١٩٨٥

الطبعة الخامسة

تموز (يوليو) ١٩٩١

مصارحة *

١ ـ هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .
كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .
ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .
واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى . . . ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها ـ وهي قد تكون أو لا تكون كذلك ـ ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! . . فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنيّه كلية . . وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة . . وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ ـ ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة ـ إلا فيما ندر ـ ولست من هذه الندرة .
أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ ـ اعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر في القصص التي سبق نشرها . فالقصة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين والى الأبد . هذا بالإضافة الى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا

---

* هذه المصارحة سبق نشرها في الجزء الأول من « الأعمال غير الكاملة » وكان اسمه « زمن الحب الآخر ـ قصص ومسرحية » . وأعيد في هذا الجزء الثالث نشر بعض مقاطعها ، بسبب منع كتاب « زمن الحب الآخر » في بعض الأقطار ، وذلك لتتاح للقارىء الذي لم يطلع عليها ، فرصة قراءة هذا الايضاح حول ماهية سلسلة « الأعمال غير الكاملة » .

معناه ـ لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه ـ أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ ـ « الأعمال غير الكاملة » هو الأسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري ـ مهما كان مبدعاً ـ هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص ـ أي مختارات من أعمالي ـ (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة وكانت بعنوان « زمن الحب الآخر » ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن ـ كما أتصور ـ في كتابة القصة) .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً الى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! . . .

غادة السمان
الساعة ٣٧, ٥ فجر ٧ ـ ٩ ـ ٧٨

إهداء

أهدي هذا الكتاب ،
الى ذلـك الحب المفترس ،
الحب الأكثر ضراوة في عمري . . .
وللعاشق الذي لم أفلح أبداً في التخلص منه ، أو ترويضه
ـ ربما لأنني لم أرغب أبداً في ذلك حقاً ـ . . .
الى حبيبي الشاعر الجميل ، الطفولي الرؤيا ،
النقي الوجدان ، الشيطاني التسلط . . .
الذي يدس بوجهه في منعطفات القلب البشري ،
وزوايا قلعة الدماغ المغلقة ،
والساحات السرية للروح ، المشرعة للرياح الغامضة . . .
محاولاً أن يرى ، دونما أفكار مسبقة ،
وأن يفهم ، دونم تحامل سلفي أو قبول سلفي ،
وأن ينصت الى إيقاع الحقيقة وكهاربها أينما وجدت ،
بتواضع كوني حنون ، وطموح إنساني شرس . . .
الى حبيبي المفترس
ـ الذي يسبح أحياناً في بحيرة الشيطان ـ
واسمه : الفضول
أهدي هذه السطور . .
فلولاه لما كانت ،
ولولاه لظللنا جميعاً كائنات داجنة
في اسطبل الآراء المتوارثة السائدة
والمفهوم المحنط لمهمة (العقل) ! . . .

غادة

السباحـــة في بحـــيرة الشيطان

سأمضي الى القـاع هنـاك ، حيث موت الصور وحياتها . . لكي أعرف !

ـ جورج شحادة

يتـألف دمـاغ الانســان وجســده من الفسيفساء الكونية نفسهـا ، التـي تتـركب منهـا غيوم كواكب السحـب الـكونية ، السابحة في اللانهاية .

ـ لينكولن بارنت ـ

حينما يصـير الانسـان قادراً على تبـديل « درجة الوعي » لديه بالعالـم الخارجـي ، يصـير قادراً على التقــاط محطـات كونية جديدة ، تماماً كما يحدث حين تبدل إبرة المذياع أو موجته . يقدر الانسان على ذلك بواسطة التأمل « اليوغي » ، والتنويم المغناطيسي ، والمخدرات ، والصلاة العميقة .

ـ مارلين فرجسون ـ

« علينــا أن نأكل ثانية من (شجــرة المعرفة) ، وذلك كي نسقط من الخطيئة الى البراءة . . . »

ـ نورمان بروان ـ

السبت ٧/ ١٢/ ١٩٧٤

السباحة في بحيرة الشيطان

في السادسة فجزاً بدأت (رحلتي) . . بالضبط في السادسة وعشر دقائق . ابتلعت ربع قرص من المخدر الشهير«L. S. D» ـ ال . اس . دي . انه ليس قرصاً تماماً . بقعة حجمها يعادل حجم قرص أسبرو ، بل أصغر قليلا . . بالمقص قصصنا القرص الى أربعة أرباع . . تناول كل منا ربعاً . لدينا حوالي (١٢ قرصاً) مدروزة على شريط من الورق وتشبه كثيراً بكرة مسدسات الاطفال الورقية ، التي عليها بقع صغيرة من البارود .

سألت : هل يكفي ما لدينا من ال . اس . دي . لتخديرنا جيدا ؟ قال جريجوري الخبير وكاهن رحلتنا الى أرض الجنون : لدينا ما يكفي لسكان العمارة بأكملها . . . **(وكانت العمارة شاهقة شاهقة ، ونحن في الدور الاخير ـ ربما كان الثالث عشر ـ قررت : يجب أن أحاذر الطيران من الشرفة أو النوافذ ، فقد قرأت الكثير عن الذين طاروا منها بعد تناولهم لهذا المخدر ، وخذلتهم أجنحتهم)** . . .

حين وضعت الورقة المغموسة بالعقار على لساني شعرت بلذعة خفيفة جداً . . . سألتهم وقد امتصصت الورقة : هل أبصقها ؟ قالوا : ابتلعيها . كانت أكبر قليلاً من رأس القلم الذي أخط به هذه السطور . . .

***

افكر بصديقتي عايدة بحنان . كم تقلق لأجلي . إنها لا تعرف أين أنا . قلت لها انني مسافرة ولم أكن أكذب . (**مسافرة على طريقتي**) . اجراس خافتة في رأسي . قلبي يضرب أكثر من المعتاد والساعة ٦,٢٥ .

***

ابتلعت الربع الآخر من المخدر . الساعة السادسة والنصف ، ورأسي ثقيل ثقيل .

***

الفجر بدأ يطلع . . نصف السماء الى يساري تسلل اليه ضوء خفيف ، والنصف الآخر ما زال غارقاً في الظلام . . . الضياء ينتشر باستمرار مفترساً النصف المظلم ببطء

وبإمعان أكيد . . .

رمادية هي السماء الآن ، ذلك الرمادي خـفي التوهـج بضياء سري ، ولـولا بوق سيارة لقلت انه أول فجر في التاريخ . الانتعاش الفاحش في جسدي يؤكد لي ذلك . أم تراه المخدر ؟ . .

كل هذا الفراغ الشاسع يحدق بي من النافذة المفتوحة . أخرج الى الشرفة . . . الخيط الفاصل بين البحر والافق ما زال باهتـا . (سيكون يومـاً ماطـراً . ليتـه يكون يومـاً عاصفاً) . . .

أعود الى الغرفة ، وأترك الفراغ الشاسع يتابع تحديقه بي من النافذة .

أشعر بهدوء وسلام منتعش . لا ألم على الاطلاق . يضايقني فقط صوت (حنفية) ما مفتوحة ، تنقط ، تنقط . نزيف شريان ؟ . . بحثت في كل مكان . الحمام . المطبخ . لم أجد الحنفية وما زلت أسمع صوت القطرات . أم تراه نبضي ؟ ضربات قلبي ؟ نزفي ؟

البحر ساحر . الموج الأبيض عبثاً يتسلق شاطىء الأمان ، والموجة التي تـنجح في تسلق الشاطىء تجف وتموت . كي تعيش الأمـواج يجـب أن تظـل في حالـة اضطـراب وخفقان . ونحن كالامواج ، الاستقرار في الأمان يقتل شيئاً في داخلنا . . .

اسحب (فيش) الهاتف وأقطع الاتصال بالعالم الخارجي . يؤ يـدني انتوني . نار بدأت تشتعل في معدتي لكنها خافتة . رأسي يزداد ثقلاً .

للمرة الاولى ألحظ أن في الغرفة باباً صغيراً ، لم ألق اليه بالاً من قبل ، وربما تخيلته بابا لخزانة ما . ماذا خلف الباب ؟ استطيع ان أتخيل كوكباً آخر ، أو على الاقل مدينـة أخرى ، أم مجرد جثة محنطة ؟ . . جثتي أنا ؟ لن أدهش إذا وجدتها في الداخل ! . .

البحر أمامي . . . أتذكر شاطىء (الطابيات) في اللاذقية ، ذلك الشاطىء المرمي بعيداً عن البيوت . . . كان يعيش بالقرب منه أحد أقربائي ، وكنت ، ربما كنت أحبه ، لكنه لم يلحظ ذلك فقد كنت في العاشرة من عمري !

يغيظني في هذا الدفتر الـ (بلوك نوت) أن كل صفحة أقلبها تسقط من تلقاء نفسها . كأنها تموت حين أُتم كتابتها وتستنفد . فتح الباب . النسيم البارد يدخل . لا أشعر حالياً بأي شيء غير عادي ، الساعة السابعة وسأنهض (لأضع) موسيقى .

***

لا ادري لماذا تلح علي كلمات « شكسبير » عن الحياة :

« الحياة حلم عابر »

حكاية يرويها أحمق
مليئة بالضجيج والغضب ،
وبلا معنى ! . . »

ما زلت في حالة هدوء تامة . بل عذبة ومسحورة . والسابعة والربع .

عطرت نفسي . كثيراً من العطر . سر به جريجوري . وانتعشت . أحس بنشاط جسدي مفاجىء . بالرغبة في الحركة والغناء والانتشار . . .

الموسيقى عذبة وأنا اطفأت سيجارتي وسعلت . انني في الحقيقة لا أحب التدخين ولا أدري لماذا أدخن !

***

أحس بقشعريرة تجتاح جسدي . لعل المخدر بدأ يجد طريقه الى أعصابي ليشلّ عملها اليومي الرتيب ، ويرشدها إلى وسيلة أخرى للعمل ، والى دروب منسية أو معطلة . . . ربما كان المجتمع هو الذي عطلها بحجة حماية (الجماعة) ، والناس في فجر التاريخ ربما كانوا يحسون في مواجهة العالم ـ وبشكل عفوي ـ ما نحسه الآن عبر المخدر . . . ربما كان كل فجر بالنسبة إليهم هو أول فجر في التاريخ . . .

ربما كانت الحيوانات ترى العالم باستمرار كما نراه حين نتناول نحن المخدرات . من يستطيع مثلا أن يعرف كيف يرى النسر الأرض وكيف ترى الحلزونة الكون ؟

***

أشعر بحس غامض بعدم الأمان . أغلقت باب الغرفة وأقفلته بالمفتاح ، وأحكمت إغلاق باب الشرفة . المغني يصرخ « اوه . . اوه » بصوت مذبوح ، والصدى في داخلي يتواتر ويستمر وتتراكم طبقاته بعضها فوق بعض ، وتتوالد دوائرها . . .

أشعر بالدوار ولن أستسلم . أشعر بالبرد الشديد وقد التصقت (بالشوفاج) . ما عدا ذلك كل شيء (عادي) حتى الآن والساعة ٧,٣٠ .

***

موجة حر . يعاودني الانتعاش النفسي البرعمي . جسدي أخلعه وأخلفه ورائي مكوماً على الأريكة ، وأنا واقفة خارجه اتأمل تفاصيله . لا يبدو لي كما أراه عادة في المرآة . يبدو جديدا بطريقة ما كأني أراه للمرة الاولى . يثير اهتمامي قليلا ثم يضجرني . أتركه ، وبخطوة واحدة فقط لم أخطها بعد ، أجد نفسي على الشاطىء ، (أركض أركض عارية وحرة وأصهل وأسلم نفسي للريح ورذاذ الماء وكل ما هو مجنون وحر وطليق في الطبيعة

مثلي . . . برق ، أتسلقه كغصن شجرة)

وجه جريجوري قريب من وجهي . أرى مساماته كما لو من خلف مكبر . يبدو حزيناً وهلعاً . له وجه إنسان يسقط في بئر عميقة بلا صراخ . . . أما أنا فبعيدة ، ما زلت أركض هناك وحيدة ، ألحظ أني وحيدة ، ذلك لا يرعبني ـ فقط يحزنني ـ لا يرعبني ان أكون وحيدة ـ بلى ، احيانا ـ لكنني غالباً استطيع السيطرة على ذلك .

***

خفيفة أطير وأرقص في الفضاء . وأقفز على سطوح الابنية المجاورة وأكسر أنتينات التلفزيونات وأقطع حبال الغسيل ، وأرى جسدي ما زال مكوماً على الاريكة في غاية الرزانة .

يعاودني البرد .

المطرب يغني « نحن في طريقنا الى القمر »

« نحن في طريقنا الى القمر

تعال معي ،

طر معي

انتش معي حتى النهاية

وانس مشاغلك

وطر معي ، أعلى ، أعلى ، أعلى . . . »

اغمضت عيني أنصت الى اللحن الفضائي ، وكففت عن الكتابة لأستمتع . لم أستمتع . لاحظت أن الأغنية معدة خصيصا لتناول الأسيد (ال . اس . دي .) وواضح ان الذي كتبها كان صاحياً وواعياً للمتطلبات التجارية لعشاق هذا المخدر . كرهت الاسطوانة . تمنيت لو كنت استمع الى بيتهوفن لأطير معه ، أو حتى إلى كارل أورف لاتسلل الى كهوفه .

تبدلت الأسطوانة . ربما لو كففت عن الكتابة لاستمتعت أكثر ولرحلت أبعد . إن مراقبة الحياة تفسد الاستمتاع الكلي بها لأنها تنقص من كثافة انغمارك بها . أتمنى أن أسلم نفسي كلية للتجربة ، ولكن ذلك الجنون في داخلي الذي اسمه الكتابة يلح عليّ باستمرار كي أسجل . . أسجل . . . (أسمع صوتي وأنا أضحك بصوت عال لأنني تذكرت تلك الحادثة : كنت مع صديقي وفجأة نسيته وأهملته وانحنيت على أوراقي لاسجل فكرة أعجبتني . غضب وقال لي ان ذلك اسوأ من سلوك الاجنبيات اللواتي يراقبن برنامجهن المفضل

في التلفزيون اثناء ممارسة الجنس ، واسوأ من سلوك الشبان الأوروبيين الباردين الذين ينامون احيانا في كاباريهات الستربتيز ويعلو شخيرهم بينا المتعرية تخلع آخر قطعة ثياب على جسدها الضجر . المهم انني تابعت كتابة الفكرة التي خطرت ببالي،وهجرني هو !) . .

***

بدأت ألحظ أن خطي صار سيئاً جداً . . . لا ريب في أن المخدر قد استولى علي نهائياً . تأكد لي ذلك حين نهضت لإحضار ماء من البراد . كنت أتمسك بالجدار ، وكان الجدار ينزلق الى الأسفل وكانت رحلة رهيبة من الغرفة الى المطبخ . . . كل شيء ينزلق من حولي . كل ما أمسكه يتساقط عني . العالم جبل رمل وأنا ذرة وكلنا نتساقط . . كلنا . . كرسي . أرتمي فوقه . أحس بشيء تحتي . أنهض . أجد رزمة (ربما كانت ثياباً قادمة من الكوّاء) وعلى الرزمة اسم الدكان : « برفكشن » أي (مصبغة الكمال) . لا ادري لماذا اضحكتني كلمة « الكمال » ! انفجرت أضحك بصوت عال مجنون . بدت لي كلمة « الكمال » نكتة هائلة . نسيت إلى أين كنت ذاهبة . جفاف فمي وحلقي ذكراني بأنني كنت في طريقي الى البراد . تابعت المشوار . تابع العالم انهياره ، والزلزال ، وضاق صدري وكل هذه الرمال والكتل الحجرية تسقط فوقي وعبثا أتنفس . خفت . كنت أدب على أربع وأنا عائدة الى الغرفة ، والزلزال مروع . هلع شديد يغمرني . أذكّر نفسي بأنني تحت تأثير المخدر وأن شيئاً لا يحدث فعلاً في الخارج . . . ولكن ، ما الفرق ؟ إنه يحدث ما دمت أحسه . لسنا في حاجة الى شهود أو إجماع الرأي العام ليقرروا أن شيئاً ما قد حدث لنا حقاً . لا يمكن جلب شهود على أحلامنا مثلا . إنها تقع لنا وكفى . . .

***

جسدي مرميّ على الارض كالخرقة . أشعر بحاجة الى الأنين . حلقي جاف . تذكرت أنني لم أستطع الوصول الى البراد . انتوني يدخل وفي يده زجاجة ماء وكأس . مبارك أنت يا انتوني ! عاجزة تماماً عن الحركة . السطر يتماوج ولم أعد أرى بوضوح ما أكتب لكنني سأتابع . للمرة الاولى في حياتي أعي نفسي مشلولة تماماً أمام مخدر ما ، أعني من الداخل مشلولة . عاجزة عن التحكم به أو توجيهه . وكل ما يحدثه من أثر هو مفاجىء بالنسبة إليّ . . من الخارج ما زلت « أنا » المتماسكة . كذب . لا شيء متماسكاً . كلنا نتماوج والغرفة مركب من الماء المتماوج ! لماذا لا يضعون في الجدران مقابض نتمسّك بها كما في القطارات ؟ لكن ما جدوى ذلك اذا كانت المقابض نفسها متماوجة وكان كل شيء عالما

من الفوضى الخافقة ؟ . .

* * *

ما زال جسدي مرمياً على الارض كالخرقة . أرتجف وأكافح كي لا أئن . (لا ادري ماذا دهى جريجوري . غادر الغرفة ولعله ينتحب في الغرفة المجاورة) . عاد حاملاً حراماً وفرشه على الارض فوق الموكيت وقال لي : الطقس بارد . تمددي فوقه . إنه انسان رقيق . . . كم أحب الرقة في هذا العالم الوحش المسكون بالقسوة ! . .

يصرخون . . يقولون أشياء وأشياء . . . لعل الكتابة وحدها تجعلني أحافظ على وعيي (وهذا شيء مؤسف) . تحميني من السقوط نهائياً في التجربة ، أي تجربة ، ما دام عليّ باستمرار أن ألعب دور موظف المخابرات على حواسي وأعضائي وأدوّن التقارير حولها ! . . يا لرعبي من نفسي ! نفسي المتعددة الملونة الغزيرة . . كم أنا غزيرة . كأني قبيلة من النساء في كل لحظة وفي آن واحد . أنا امرأة الرقة وامرأة الشراسة وامرأة الانتظار . . ما أغباني ! . . من داخل الانزلاق أتابع صراخي . . . وأكتب . . ما جدوى أن اكتب ؟ . . جنون . مجرد جنون . إنه جنوني الخاص . إنني مهووسة كتابة .

* * *

حدث شيء هائل . على الصفحة بدأت الألوان ببقعة خضراء ، ثم بنفسجية ثم برتقالية ، صفراء ، خضراء . الألوان تندفع الى عيوني ، وتنفجر داخلها مثل حزمة من الألعاب النارية ، وتحترق عيوني ، وأشعر ببعض الخوف من العمى - عقاب من يرى ما هو فوق طاقة الحواسّ والمسموح عادة - وبنشوة لا حدود لها . . . كم هي ساحرة تلك الألوان ! . . أشعر بألم في أحشائي ، وبموجة من اللزوجة الحارة تهاجمني . . إنني داخل الموجة . . موجة الألوان والألم والنشوة ، وإذا لم أغالبها غلبتني . أعوم أو أغرق مثقلة بالخنجر المغروس في أحشائي وألمه . لكنني سأعوم . جسدي كله يرتجف ، والكتابة تحرمني إبحاراً أبعد لكنها تقويني بطريقة ما . قوس قزح على الورق ، وأسمع صوت القلم وهو يتحرك على الورق عالياً كطلقات رصاص وأرتجف . . .

* * *

الساعة الثامنة والنصف . ربما كانت عزلتي لا تروقهما . يغادران الغرفة ثم يعودان ، ويتحركان حولي باستمرار كأنما ليذكراني بوجودهما .

الكتابة بدأت تصير جهداً جباراً . إني منبطحة على الارض ، واشعر بألم حاد في

أحشائي وبحاجة الى الأنين . لن ائن رغم أنني وحيدة في الغرفة ، لأنني أعرف أن ذلك لا يجدي . بصعوبة ارفع رأسي لاتأكد من أن لا احد في الغرفة . يدي ترتجف . أسمع صوت أنين . انه إذاً صوتي أنا . اسمعه غريباً عني ولكنه صوتي حتماً ما دمت وحدي في الغرفة . تغمرني رغبة في التقيؤ . لن . سأظل مكومة داخل نفسي . لن يصدر عني صوت ولن يخرج مني شيء ولن يدخل اليّ شيء . إني صدفة محكمة الاغلاق ، وغير مستعصية على الانفتاح حين تشاء . المهم لا شيء يحدث خارج إرادتي . واذا حدث فانه يحدث سراً وفي داخلي وبالتالي تحفظ الارادة كبرياءها .

عادا .
أشعر بعطش مروع . أدب على أربع نحو الماء . يدي ترتجف . ارفع الكأس الى فمي . ويقول جريجوري : لا تشربي دفعة واحدة وإلا غسلت المخدر . خذي رشفات صغيرة جداً من الماء بين وقت وآخر . . .

لا أشرب حتى ولا قطرة واحدة . سأعيش التجربة ، أي تجربة ، والعطش ثمن بخس . . إن رغبتي في الاكتشاف والجديد لا تعادلها رغبة . .

يتحاوران ، وأنا أتابع الكتابة . يضحكان . أتابع الكتابة . آه كم وجودي مرعب وشرس ! يراقبني جريجوري أحياناً كما لو كنت حيواناً غامضاً من حيوانات ما قبل التاريخ . تراني أبدو من الخارج مثل دينا صور مثلاً ؟ لا . الديناصور مسكين . محشور داخل كونه جسداً ضخماً . إنه عاجز عن الاختباء او الرقص أو الانتشار أو التناثر ولذا أنقرض . أنا حيوان أكثر تعقيداً ورقياً من الديناصور ولذا أستمر أنا وينقرض هو . من قال إنني استمر ؟ . . أي هراء حين نتوهم أننا نستمر (أجد صعوبة في ترقيم الصفحات) .

***

إني أرتجف ، وإذا لم اسيطر على نفسي فالأمر خطر . رأسي على الارض . مبطوحة على بطني والكتابة ليست مريحة إني أئن وارتجف . لا اشعر بالراحة حين يغادران الغرفة . انني اريدهما ولا أريدهما . أريد أن يكونا معي ولا يكونا . في آن واحد . أريدهما معي ولكن خارج جلدي . كل شيء يجب ان يظل خارج جلدي ما دمت أنا شخصياً خارج جلدي ، منتشرة في السحب .

لا أشعر بالشهوة ، لا الحب . لا الغيظ . لا شيء . إنني فقط منتشرة وشاسعة ، وسحابة من غبار ذري فوق كوكب ناء ناء (اسمع صوتي ائن). حسناً . إنهما خارج الغرفة . يعدان القهوة . سألاني إذا كنت أريد قهوة وطلبت ماء . لا أحب شيئاً في العالم

كالماء . أفضل الماء على الخمرة . ليس تماماً . لا أفضل أي شيء على أي شيء ولا أفضل ما هو خارج يدي على ما في يدي ، أو العكس . إن القضايا أكثر تعقيداً من ذلك ، و (قوانين) لا يد لنا فيها هي التي تعبث بنا . كلمة (قوانين) خاطئة أصلاً . أتذكر من جديد شكسبير :

« نحن كالذباب
بين أيدي الأرباب العابثة كالأطفال
إنهم يقتلوننا
من أجل رياضة صيدهم ! »

أجل ! عبث . . عبث . . . لا قوانين . . مع التشتت والسحب والامواج وكل هذه العناصر الأولية، لا يمكن استعمال أوعية أو مكاييل وموازين ومقاييس. . . ومن هنا المهزلة . . المؤسسات تحاول عبثاً أن تكون وعاء للانسان . وعاء للعواطف والاحاسيس . والانسان ـ كما أحس الآن وأنا واثقة من صدق شعوري ـ هو سحابة وموجة ، والقبض عليه بالتالي مستحيل . واذا مكّن الإنسان القيد من نفسه ، ورضي بالانسكاب في وعاء ورضي بالقبض عليه ، فإنه يصير تعيساً تعيساً ، والوعاء أيضاً تتوجع أطرافه بكل ذلك الاصطخاب في داخله (تماما كما يتوجع جسدي ـ أي وعائي ـ الآن) .

يقول جريجوري :

« انت امرأة قوية . أسلوبك في التعامل مع المخدر ساحر ومدهش » !

أحاول أن أرد ولا أجد صوتي . هنالك أغنية تجرفني إليها . تقول كلماتها :

« فقط عدني يا حبيبي بأن حبنا سيظل صادقا الى الابد » . كم تبدو الكلمات مراهقة وهشة . . ! كلمة « عدني » مثلا . من يستطيع أن يعد بأي شيء في العالم . . من يملك نفسه أصلاً ليملك تحقيق وعوده ؟ ألحظ أن قدرتي على أن أكون وحيدة تضايقني . لعلها تحرمني من جو أكثر حرارة وألفة . . . قدرتي على عدم الارتماء بين ذراعي جريجوري ترعبني ؟ تدهشني ؟ تثير فضولي ؟ احتقاري ؟

لا يهم . فلأرحل بعيداً . . .

أردت أن أقول شيئاً لجريجوري ثم بدلت رأيي . كل كلمة هي تورط . الآن أفهم لماذا أميل الى الصمت . أرى يدي ضخمة جداً . بدأت أضيّع وعيي بنسب الأشياء وحجومها المألوفة . كل شيء لا يبدو لي كالمعتاد أو مألوفاً . كل شيء في حاجة الى تأمل وإمعان من جديد . . .

يقول لي جريجوري : ان ما اخذته من المخدر يكفي لاطلاق فيل في الغابة بحالـة جنون يقتلع الاشجار ويرقص الباليه على خرطومه . . . (هل هذا تحريض لي على الخروج من داخل ذاتي تحت إغراء الوهم بأنه يحق لي أن أكون سخيفة باسم المخدر ؟ . لا اغراء في العالم ينجح في انزلاقي عن ذاتي الى الابتذال ، ليس خوفاً من أن أصير موضع سخرية ، ولكن لأن ذلك يفسد عليّ قدرتي على الاستمتاع بذاتي) .

الألوان تتراقص على الصفحة . ألوان . ألوان . حارة . متدفقة . رائعة جميلة . اني أعوم فوق نهر من الموسيقى والالوان المنصهرة ، إنني جزء من هذا النهر وكل شيء مضيء وجميل ومسحور والسلام الكلي يغمرني . . . إنني قوية واستطيع أن آخذ مخدراً أكثر . . أكثر . . . أريد ان أبحر أكثر . . . أن أرى أكثر وأحس أكثر . . . قلت لجريجـوري : اريد مزيداً من المخدر . . . أريد متعة أكبر . .

قال : سيغمى عليك إذا أخذت ال . اس . دي . أكثر ، أو تجنين وتفقدين وعيك بما تفعلين ولن تستمتعي بأي شيء . . أصررت : ولكنني أشعر بأنني قادرة على أخـذ المزيد .

قال : الجميع يحسون بذلك في وقت من الأوقات . . إنها خدعة الشيطـان لتدمـير الضعفاء أمام شهواتهم . . . لاحظي أن هذا المخدر يعمل كموجات وأنت الآن في ذروة الموجة . . بعد قليل يتغير شعورك ورأيك . .

بحب أتأمل وجـه جريجوري وأراه طيفاً من الألوان . . ماذا يمثل لي جريجوري ؟ ولكن ، لماذا دوماً الوعاء ؟ ربما لذلك بالضبط ضرورة الوعاء ؟ . . إنني أحبه وكفى . . .

إذا كان علي أن اتعامل فجأة مع العالم الخارجي ، سأتماسك ، ولن يطلع أحد على الالوان التي تضيء داخل عيني ، أما أنا فأرى عالمهم مختلفاً لأن الاضاءة هي في داخلي أنا ، لا في الخارج المظلم . . جريجوري يناديني (ورقة الشجرة الزرقاء) بالضبط يقول «BLUE LEAF» . إنه لطيف معي . أنا وحش وحيد منطلق في الغابة ، ولغة اللطف الآن غير مجدية مع جروحي . . جروحي على طيلة عصور . . .

سأدخل الآن الى الغابة في داخلي .

اتمنى إسدال الستائر تماماً ، ولكن ذلك يتطلب استئذانها وأفضل البقاء صامتـة . سأسدلها دون إذن ! . . . الأغنية تقول :

« اننا لا نملك غدا

لكننا نملك البارحة . »

كلمات . . كلمات . . كلمات . . اني انزلق وكل ما حولي . . كلنا نسقط باستمرار وبلا نهاية . . ما جدوى أن أكتب ؟ ما جدوى أن أرقم الصفحات . كم يبدو لي ذلك الآن مضحكاً ومتعباً . جسدي يتورم . . يتعفن أمام عيوني . . يخرج منه الدود ويبدأ التهامي . ها أنا مجرد هيكل عظمي . . من جديد يكسوني اللحم . يتورم . يتعفن . يأكلني الدود . تتسارع العملية . أمارس الموت مرات عديدة . أخنق صرختي . جريجوري خرج الى الشرفة . حتى ولو تمسكت به ، فما جدوى ذلك . هو أيضاً أراه يتورم يتعفن . يلتهمه الدود . ما أشده بؤ سنا . ما أصعب خنق تلك الصرخة في حلقي . هنالك مذاق حاد للالم . ألم شرس يفترسني باستمرار هو كائن خلف كل شيء . خلف كل ما يمكن أن أفعله . الالتصاق الانساني يبدو الآن ـ أكثر من أي لحظة في عمري ـ حاجة وأكذوبة في آن واحد . مجرد أكذوبة . كل ما يدور هو تجسيد لهذه الاستحالة . . وها أنا أغرق في قاع الموجة وأتكوم تحت الثلج مستسلمة للخنجر في أحشائي ، وسحر جريجوري الأشقر أفق ناء .

***

هذا المخدر رهيب . إنه يعمل بشكل موجات . من جديد تهجم موجة النار الملون إلى عيوني وأصابعي وحواسي كلها . إني اشتعل . رأسي يشتعل ألواناً راجفة شرسة . جريجوري يحاول أن يروي لي نكتة (ألحظ انني أرتجف ولا أضحك) . . .

يقول :

« البارحة شيك ملغى

غدا شيك موعود

اليوم (كاش) ! »

إني أتوجع وأئن . كل ثرثرتي عن التماسك تذوب في أنيني . . . لا يلحظون ذلك ، فهم أيضاً ـ ربما ـ كانوا يئنون أو لا يبالون بي . أسمع صوتي يضحك . . الضحك والأنين شيء واحد بالنسبة الى الرئتين !

يريد جريجوري تصويري . يقول : « إذا كان ذلك لا يضايقك » . كيف أفسر لهما أنني عائمة في الفراغ ، وانني مثل كوكب لا يهمه من يرصده أو يتأمله من ذروة مرصد أو يلتقط له الصورة ؟ . . لا يقبل أو يرفض . . .

قال جريجوري : اني ارتجف . . . واقف أمامي كالعملاق . جسده جميل كالتماثيل الاغريقية ، بالاحرى كما يجب أن تكون عليه التماثيل . . ملونة ومرتجفة وحية . . شعره

أشقر مضيء كالشمس . انا الآن ممددة على ظهري وأوراقي على بطني والكتابة تعذيب ولا ترى عيني ما تخطه يدي . . حين أغمض عينـي أرى عالماً مذهـلاً . . . تنفتـح لي دنيا الثعابين المضيئة وتأخذني الى داخلها . . سمعت صوتي طالباً المزيد من المخدر . سمعت جريجوري الحنون المتفهم ككاهن في معبد يقول : لا . ربما لو قال « نعم » لقلت « لا » . يجب أن يظل أحدنا محتفظاً برأسه !! . .

ما زال يصورني أو يحاول تصويري . . . يرتجف . أخيراً ثبت الكاميرا على كرسي وقال لي : إنني عبثاً أصوب العدسة عليك . تعالي وانظري من الكاميرا ثم ثبتي نفسك داخل الصورة حيث يجب أن تكوني ! . . ضحكنا . أصابتنا نوبة ضحك . جريجوري وأنتوني وانا يكاد يغمى علينا من الضحك ونحن نتخيل الناس في السهرات والكوكتيلات والحفلات الرسمية يتصورون هكذا. المصور يثبت الكاميرا وكل واحد يأتي ليحدق من عدستهـا الى حيث يجـب أن يضـع نفســه ليكون في الصـورة . . . نضحـك نضحـك نضحك . . .

ما أسهل السقوط في فخ الضحك الرخيص ! أريد أن أتابع رحلتي في الداخل . أن أغمض عيني لأعود إلى غابة الالوان المسحورة والثعابين المضيئة . لا مفر من أن يتابـع الانسان رحيله وحيداً اذا كان يبغي الوصول الى اصقاع غير مطروقة . . .

أشهق وأشعر بالذعر لأنني أرى مخلباً يمتد فوق الورقة . .

***

اني أعوم فوق موجة مائية من الدفء والالوان المذهلة التنوع السريعة التبدل كومض البـرق . . . برق ملـون يفتـرس العالـم . . ما يدور في الحانــات الليلية من إضـــاءة (بسيكاديليك) هو مجرد تقليد سخيف لروعة ما أراه الآن ، والفرق بينهما كالفرق بين (الفلاش) الهزيل والبرق العظيم ! . . الساعة صارت ٩,٣٠ يا إلهي ! مر الزمن الحار مثل نهر من الزئبق ولم أشعر به . مدهشة قدرة الرجال على الاهتمام بعالم التفاصيل . كاميرات ، قوارب ، عدسات ، سيارات ، لديهم الفة عجيبة مع الآلات . أنا لا استمع أحياناً الى الموسيقى لأني أكره ملمس شريط التسجيل ، وضبط الازرار ، وأخاف كثيراً من فيش الكهربـاء ، ولـكن جريجـوري وانتونـي غارقـان في حوار راجف حول الاتهـم ـ كاميرات ـ دراجات نارية ، قوارب سريعة .

إني وسط الموجة تماماً . تعلو بي الى الذروة وتقذف بي في الجو ، فأتناثر ، وأسقط شلالاً من الضوء ، لأتحد من جديد بالموجة . جسدي يلتهب . أحترق . ألوان ألـوان

مذهلة الروعة والحدة والدفء . سأفتقدها لأني أعرف انها ستذهب ولن أراها على الورق دائماً . حيوان رهيب يمشي على السطر . إنه نملة . من أين جاءت ؟ لا تبدو كنملة . تبدو جديدة وضخمة وأكبر مني ، وأخاف منها ، وأستميت لأحاربها ، والورقة صحراء بيضاء شاسعة ، ونحن حيوانان وحيدان . قتلتها بلا رحمة .

***

كل هذه الدروب المضيئة . .

كل هذه التي تنفتح لي . أي حركة الى جانبي ترعبني . يدي تبدو لي مخيفة . كأنها كائن آخر . كأنها حيوان مستقل قادم من مكان ما . لو خلعت ملابسي الآن لأصبت بالذعر حتماً ، ولشاهدت جسدي كما لو كان حيواناً منفصلاً عني ! أقرر أن انهض واخلع ملابسي . لا استطيع النهوض عن الارض . اعضاء جسدي كلها تؤلمني . تغلي . تفور . . . آه ! . .

تنهمر في داخلي نجوم مضيئة . الدنيا برتقالية مضيئة . ما أجمل اللون البرتقالي حين تدب فيه الحياة هكذا ، ويتنفس . . ما اروع هذه الالوان التي تخفق وتتأوه وتشتعل وتمشي وتفوح رائحتها وتحلم وتصرخ . . أنا حفنة نجوم ملونة . . أنا راكعة تحت شلال من النور الدافىء . . أنا لهبة نار . . أحترق . . ارتجف . . أتواصل وشلال النور، أهطل الى الأعلى .

شربت قليلاً جداً من الماء لئلا أغسل المخدر. رغم وجعي لا أريد أن يزول مفعوله . الامر ساحر رغم الالم . رغبتي في تجربة كل شيء أقوى من خوفي أمام الالم . أنا فاوست احياناً ، أبيع بعض أيامي للشيطان مقابل اكتشاف المزيد من اعماقي ودهاليزي وأسرار الكون حولي . . أنا في ذروة الموجة . جريجوري أيضاً . وجهه ألوان . قال انه كان تحت البحر مع حوت وكانا يسبحان معاً الى الاعماق الى البعيد ، ثم فجأة تذكر أنه ليس حوتاً فترك الحوت وبدأ يسبح عائدا الى سطح البحر ، والحوت يحدق فيه مدهوشاً ويسأله لماذا . . .

الالم في الاحشاء . كل هذا الزخم والدفء لا يستطيع القلب احتماله وحيداً . على الورق تتلاحق الالوان الحية . برتقالي . أصفر . اخضر . استعمل أسماء الالوان مجازاً . ما أراه لا علاقة له باللون في حالته الراكدة (الستاتيكية) التي اعتدنا عليها . اللون الآن كائن حي مستقل ، كأنه يولد ويكبر ويهرم ويموت في الثانية التي يستغرقها توهجه المليء بالزخم والإشعاع . . .

القلم لصق الارض . الورق لصق الارض . وأنا لصق الأرض . سأحاول أن أتابع التسجيل قدر الامكان . تأتي موجات تغلبك وتعجز عن شيء غير الارتجاف ، والإبحار معها الى غابات مسحورة مسحورة ، ثم تنحسر الموجة قليلاً فأسارع الى القلم . . .

أشهق . أقفز مذعورة . . . لقد رموا اليَّ بصوري وأخافتني الحركة الى جانبي . الكاميرا التي بها يصورون تطبع الصور فوراً (بولا رويد) .مذهل تأمل الورقة الرمادية بينما الوجوه تنبت فيها وتطلع ، والعيون والملامح تخرج شيئاً فشيئاً وخلال دقيقة تتكون الصورة . . إحساس مدهش وسحري ، كأنك تنظر في كرة الساحرة الشفافة لترى فيها وجه الحبيب ومكانه . . اتأمل الصور وعبثاً أراها جيداً . . كل شيء يتماوج تحت عيني وألوان سريعة تتلاحق وتشوش الرؤ ية . . . رغم ذلك كله يبدو لي أنه في صوري كلها ، وانا مرمية على الارض هكذا ، توجد إلى جانبي نافذة . نافذة أو كوة ؟ من أين النافذة ارتسمت في الصورة وليست هنالك أي نافذة الى جانبي على الارض ؟ كيف في كل صورة لي هناك نافذة ؟ من أين طلعت النافذة في الصورة ؟ أم أن الكاميرا تصور أحلامي ؟ أم أنها يد جريجوري المرتجفة اثناء التصوير تسببت في بقعة تبدو كنافذة او كوة على الفضاء ؟ أتسلق النافذة . أمد رجلي أولاً . استعيدها . . أمرر رأسي أولاً . متى مر الرأس انزلق الجسد بأكمله ! المهم إقناع الرأس وتدبيره أولاً ! هذا ينطبق على كل شيء . . اخرج من النافذة وأطير . اتوهج وأطير على درب ناي حنون . . . صوت ناي حنون . . جريجوري يعزف . وأشعر بأنني أذوب مع اللحن . استحيل الى مجرد أنغام. أدخل في القيثارة . أخرج من ثقوبها . أتسلقها نحو شفتيه ، وأحس بحاجة الى أن يضمني أحد . ان يضمني أن يضمني أن يضمني أحد ما . انتوني أيضاً يعزف بعذوبة . يلهث متعباً ، ويعطيني الناي لأنفخ فيه : إنه دورك . . أقول لهما : انني لا أحسن العزف ولا أحب مضايقة أحد . والحل ؟ سأذهب الى الغرفة المجاورة وأعزف . اذهب الى الممشى . انفخ في الناي بكل ما في حنجرتي من صراخ ، وبكل ما في قلبي من وحشة أعرف أن لا شيء يستطيع تبديدها . . .أصرخ في الناي يخرج الصوت حزيناً وناشزاً مثل صرخة أخرس يغمدون فأساً في قلبه . . . ثم أصمت ، ويخيفني الصمت ، وألحظ أنني أمسك الناي كما لو كان هراوة ، وأحس برغبة في العنف ، ومن السهل أن أضرب أي رأس يطل الآن من الباب ! لم يطلّ أي رأس ، ولاحظت يدي مجرمة قابضة على الناي بتحفز ، وخجلت من نفسي ، وأدهشني كيف يمكن للناي أن يستحيل عصا في اليد نفسها وخلال ثوان . . وقررت أن في أعماقي أشياء مرعبة ومجهولة ، وخفت من نفسي ، وشعرت أن امرأة لها صورتي وشكلي

تحمل « ناياً ـ هراوة » وسوف تنهال بها على رأسي . وركضت هاربة اليهما . . وجدتهما مستغرقين في الضحك من أسلوبي في الزعيق بالناي . قال جريجوري : كنت تصرخين !
(كنت أريد أن أقول له شيئاً ولكن لماذا أقول أي شيء . ما جدوى أن أقول أو لا أقول ، أن يسمع أو لا يسمع . . أن . . وأن لا . . .)

انسحب من جديد الى داخل ذاتي دونما تأثيرات عالمهم العذب والعابر وموسيقاهم وكل تلك الإلهاءات (السنتمنتالية) عن الرحيل الى الداخل . . أحس بأنني حبة رمل في شاطىء شاسع . . أشعر بغربة الرمل . الغربة . إني وحيدة . كم أنا وحيدة ، رغم أن بعض جسدي يعمل بنشاط محاولاً تقديم اقتراح لي بالهرب الى الجنس . . أشياء ساخنة تتسرب من شقوقي كلها . . لو لم يحذرني جريجوري من ذلك سلفاً للجأت حتماً الى هذا الهرب الرخيص . كان قد قال لي وهو كاهن المكان الخبير برحلاته وعقاقيره : الخطر في « ال . اس . دي » أن البعض يتلهون بالشهوة الجنسية الرهيبة التي يطلقها ، ويفشلون بذلك في الإبحار الى داخلهم . . إنه عقار يجعلك تعين مدى وحدتك ، ولذا يهربون عادة الى الجنس أو المزاح أو الشجار لدحر الوحدة ، لكن الجنس مع « ال . اس . دي » يخلف شعوراً مدمراً بالخيبة والخواء . كي تستمتعي بـ « ال .اس . دي » يجب أن تكوني قادرة على أن تكوني وحيدة . . .

وتذكرت كم وكم وكم كنت وحيدة . . (مرمية على وجهي في حديقة الهايد بارك بلندن على الحشائش والثلج يهطل وانا ثملة ووحيدة وأتقيأ بوجع . . . لا أذكر هل ثملت ليلتها لانني وحيدة أم العكس ، لكنني أذكر جيداً انني شربت زجاجة نبيذ كاملة في نصف ساعة ، ثم خرجت من غرفتي راكضة مثل حيوان جريح مذعور وجد نفسه في شارع مزدحم ، وانني ظللت أركض في الهايد بارك حتى صرت في دائرة قطرها كيلومتر على الاقل . فارغة تماما من أى أثر للحياة سواي ، والاشجار والاعشاب والنمل ، وانني دفنت نفسي حية ، وبدأت ائن وأبكي واشفقت على نفسي من القيء والقرف ، وتدحرجت بعيدا عنه ، أمسح وجهي بالعشب النقي والثلج . . . والثلج ظل يهطل ولم أتحرك وتركته يكفنني . ثم شعرت بهلع مروع : سأموت برداً إذا لم أتحرك . . وشعرت بأن ساقي ميتتان ومجلدتان ، ونهضت فجأة أركض مذعورة وسقطت على الارض . ولم تحملني قدماي ، ونهضت ثانية وسقطت ، وثالثة وسقطت ، وصرت أدب على أربع وأركض وأزحف وأكافح لاخرج من الحديقة المقفرة إلا من الموت الابيض . . . وحين وصلت الى الشارع كانت آثار الخمرة كلها قد انطفأت في رأسي ، والدم المتجمد يسيل من أصابعي المتشققة المجرحة بالحصى والزحف . . وسرت بهدوء مروع . . .

هدوء من خرج من مقبرة بعد أن دفن فيها إلى الأبد حاجته الى الآخرين ؟ . . . ولكن « الحاجة الى الآخرين » هي الميت الذي ينهض كل ليلة من أكفانه ويلاحقنا شبحه بلا رحمة) . . .

أفتش عن جريجوري لأرتمي بين ذراعيه . ها هو على الشرفة داخل شرنقة صقيعة . كم هو أيضاً وحيد مثلي . . . نحن ذئبان وحيدان حزينان في أعماقهما جوع الاطفال الى حكاية دافئة قبل النوم . . . ولكن . . . لا أحد .

***

ما زالت الكتابة تعذيباً وانا مبطوحة هكذا على بطني وألم غامض يتنقل من مكان الى آخر في جسدي . لاحظت أن صوت احتكاك شعري بالورق وهو المكوم فوقه يرعبني . . عادت موجة النار . . . عاد ذلك العالم المذهل الذي أراه فقط حين أغمض عيني . . كون مستقل بذاته . مختلف الايقاع والألوان والنبض عن كل ما هو مألوف . المهم ألا أسقط الى قاع النار الملتهبة هناك (المهم أن أظل باستمرار أسير على ذلك الخيط الفاصل بين الوعي وفقدان الوعي ، واذا زحت عنه قيد انملة فقدت قدرتي على الكتابة والحياة ، والفعالية والحرية . . . ذلك الخيط هو الصراط المستقيم بالنسبة الى الفنان . . . المهم ألا أسقط في فخ الوعي الاجتماعي كموقف نهائي ، ولا في فخ التخدير كموقف نهائي . المهم أن أظل أتنقل بين هذين العالمين على ما في ذلك من عذاب ومشقة) . محرمة علي نعمة الاستسلام والانتماء الى المجتمع الشرعي نهائياً أو الانتماء الى عالم التخدير وآكلي اللوتس المرفوض رسمياً . . على الخيط بينهما أسير باستمرار ، مثل خيط ممدود بين الكواكب أركض عليه ، أحياناً رشيقة الخطى كفراشة وأتعثر حيناً آخر وأتمسك بالخيط والهاوية تفغر فاها لتبتلعني في الضياع النهائي . . لن أضيع . . وجه جريجوري قريب . يحدثني عن سبينوزا ويشير بيده . يده جميلة جميلة كتمثال إغريقي . أستمع إليه ولا أفهم شيئاً . يلحظ ذلك ويحاول أن يشرح لي برسم خارطة . . لا أفهم أكثر ! . .

***

أتابع الكتابة (لماذا علينا أن نقلب صفحات الدفتر لنكتب) . كل شيء يعاود احتراقه . الوان . الوان . خصب من الالوان والدفء . الساعة ١١ وأنا بدأت أنهار تماماً إلى الداخل. أنزلق. ولم يعد من الممكن أن أصدر حتى حشرجة من داخل هذا الانزلاق حيث الارض تعاود انطباقها بعد سقوطي الى الداخل وابتلاعي . صارت الكتابة مستحيلة .

استيقظت . وجدتني مرمية على الورق منذ لا أدري متى . الساعة ١١ ونصف . القلم ما زال في يدي . شعرت بأن المشهد رومانتيكي مثل لوحة سيئة أسمها مثلا : « الاديبة شمعة تحترق » ! . . . ضحكت طويلا وقررت أن أتدحرج على الارض بعيداً عن الورق لأتابع رحلتي الى المغارة المسحورة في داخلي . سوف أطبق نوافذي . . جسدي مثل قلعة سوف تغلق كل أبوابها وجفونها وفمها وفتحات أذنيها ، وسوف أرفع في داخلي كل السلالم التي منها أطل من أسواري على ما حولي ، وسأهبط أدراجي الى قبوي المعتم ، ومن هناك سأحفر في الجدار لصق التراب ، سأحفر ثغرة صغيرة تتسع لخروجي وحدي ، وسأخرج وحدي متسللة من ذاتي الى الليل حيث الغابة تنتظرني . الغابة بكل ما فيها من أسرار ستنفتح لي وحدي كالصدفة ، وتأخذني الى أسرارها العجائبية . لن أخاف وسأمضي وحيدة من دون يد جريجورى ، فالثغرة التي فتحتها لا تتسع إلا لخروج شخص واحد ، وهي تُنسَدُّ بعد خروجه تلقائيا . سأتدحرج بعيدا عن الورق والقلم وأرحل من دون حتى علائم طريق ترشد الى السبيل التي سلكتها في دربي الى الهاوية . لا أريد أن أبرر لأحد شيئاً . المهم أن أنهار بعيداً عن القلم والورق . لا أحب مشهد أضرحة الشهداء . أحب الموت السري .

***

أسير في شارع طويل تضيء على جانبيه علامات وتوجد هوة على طرفيه خلف العلامات . انطفأت العلامات . أظل أسير . أسقط في الهاوية . أشهق . أستيقظ . أتذكر انني تحت تأثير مخدر . تجيء الموجة . أستحضر قواي وأقرر أن أنسحب الى الداخل وأن أحقق أمراً كبيراً . قررت أن أرى وجه أمي التي ماتت وأنا طفلة . . اتواطأ مع ذاتي . . (أمي مسجاة على سريرها . إنها تحتضر . أمامها طبيب يرتدي شيئاً أسود . أظنه كاهناً . لا . إنه طبيب وكاهن . أكاد أتذكرُ اسمه . أسمع شخصاً يخاطبه باسمه . وجهه يروح ويجيء داخل موجة ضبابية . له لحية قصيرة . إنه طويل القامة . أرى نفسي الى جانب السرير . صغيرة جدا . كم أنا نحيلة ومسكينة وأبكي . امرأة في ثوب أبيض تقترب . إنها ممرضة تنقط على فم أمي قطرات ماء بالقطنة . نعم تقطر الماء بالقطنة نقطة نقطة . أمي تخرج لسانها . تريد ماء . لماذا لا يسقونها ماء . اسقوا أمي ماء . . . أصرخ . .) انتوني يتأمل وجهي بحنان . الدموع تفيض من عينيه لكنه يضحك . قناعه يضحك وعيناه تبكيان . أضحك معه وأنا أبكي . أكف عن البكاء ولكن عينيه لا تكفان عن البكاء .

هنالك ألم في أحشائي . حريق ما . ألوان وألوان . تتراقص كلها وتتماوج . أتلفت حولي . وحيدة في الغرفة . لست خائفة . خرجت وناديت جريجوري . سمعت صوته وسررت . عدت إلى الغرفة . أتمنى لو يعود سريعاً .

تشتعل الألوان داخل رأسي مثل انفجارات ضياء متلاحقة . كل انفجار يحرض آخر أكبر وأكبر . شفتاي رابيتان من النار . الموجة جاءت وسأنتهزها . سأرحل الى داخلي وأحاول من جديد رؤ ية أمي . . . الصورة تأتي وتتشكل من دخان ضبابي يقترب ويقترب . . يتصاعد من وادٍ عميق ويقترب . . تتضح قليلا . . أكثر . . (إننا في غرفة ما ، فيها أثاث لونه وردي . . سرير وردي وطاولة صغيرة وردية وطاولة كلها من الصدف الصغير الملصق بها والعاب . . وها أنا في ركن السرير أبكي ولا أريد أن أنام وتأتي وتحملني وأشم من عنقها رائحة حليب دافىء معطر . . . ثم يدخل شخص ويتشاجران وتتعالى الأصوات وأبكي . . وأبكي . . تنقلب الصورة . . أنا أكبر قليلاً . . أبدو كطفلة في السادسة . . هنالك امرأة تضربني وتسجنني في غرفة صغيرة لا نوافذ لها وتقول انها ستدهن لي اذني بالدبس كي تأكلني الفئران في الظلام . ظلام مروع آه . . كفى) . . أشهق . . ها أنا مرمية على الارض على بطني وأكتب . . أحاول أن أتذكر من كانت تلك المرأة ! لا يمكن ان تكون أمي . حين كنت في السادسة كانت أمي قد ماتت .

تعود موجة النار اللاسعة . . . أترك نفسي لها (إضاءات مذهلة وأنا في العصر الفارسي . أتحرك داخل لوحة من تلك اللوحات وقد بُعثتْ فيها الحياة . ارتدي ثياب ذلك العصر الحريرية وأسمع هسيسها على جسدي وأنا اتحرك في الحديقة قرب طاووس كبير . . إنني حية حقا وفي ذلك العصر) . . جريجوري يحدثني عن سبينوزا واستيقظ . يسخر من الفلسفة . الفلسفة كلها تفاصيل تفاصيل لا ضرورة لها حول شيء مبسط جداً هو ببساطة انني « . . . » . . كدت أكتب « أحيا » ثم لاحظت أنها ليست تماما الكلمة المطلوبة (إذاً كان هنالك لزوم لوجود الفلاسفة !) . . . جريجوري يقول : « الحقيقة الوحيدة هي انني حي » . . تأملت وجوده المذهل الحيوية حتى العجز عن القبض عليه ، وحزنت فرحاً ! . .

***

يحدثني جريجوري . أحب الإنصات إليه . يقول لي : كم نرى الزمن من زاوية ضيقة . فكري أن عمر الجبل ٣٠ مليون سنة مثلاً ، وعمر أي حب نتمزق لأجله ليس أكثر من سنوات ! هذا لا يستوعبه إلا الذين يأخذون « ال . اس . دي » . المسنون أيضاً

يعونه ، ولذا ترينهم يهزون رؤ وسهم باستمرار وبصمت ! . . يتحدث ساخراً عن سقراط وكوبرنيك وكولومبوس . . . أقول له أني ذاهبة الى الحمام .

نهضت وسرت وكان جسدي خفيفاً يطير في الفضاء كما صور رواد الفضاء على القمر وفي الفراغ . . أعوم بيسر مذهل ممتع . . حواسي مرهفة الى حد لا يصدق ، وفي الحمام كنت أسمع الأصوات التي تدور خلف الجدران . . نظرت الى المرآة . شاهدت وجه امرأة لا اعرفها !

***

الساعة ١٢ إلا ثلثاً . أي حركة تصبح مجهوداً خارقاً . الرحلة لإحضار خبز من المطبخ كانت شاقة ، وركبتاي ما زالتا تصطكان ، وكانت الارض تهرب من تحت أقدامي وتنهار إلى الأسفل هي وأنا والجدار حين اتمسك به ، وهنالك ألم حاد في معدتي يشبه الجوع ومقبض البراد ينصهر تحت يدي . كانت في البراد صرة ، ودون أن أفتحها شاهدت أن في داخلها جبناً وحين فتحتها ، كان الأمر كذلك . أكلت خبزاً بشراهة مخجلة مثل حيوان في الغابة ، وفرحت لأن أحداً لا يراني .

***

انتوني ينفجر ضاحكاً . تلك الضحكة العذبة البريئة . ما الحكاية يا انتوني ؟ يطلعنا على صورة كلب . وجه الكلب إنساني يشبه شخصاً نعرفه . تعبير العينين بالذات يشبه شخصاً مصاباً بعسر الهضم وساخطاً لأنه شبع ، ولم يعد في وسعه أن يأكل المزيد ! . . . تنتابنا نوبة ضحك . نضحك نضحك نضحك . . نتابع تقليب الكتاب وتطالعنا صور الكلاب ، ونرى فيها وجوهاً نعرفها . . .

فجأة تهاجمني موجة الزئبق وتتقدم نحوي لتبتلعني وهي في حالة الغليان . أغطي رأسي بوسادة . أغطي جسدي بوسادة أخرى وأرتمي في زاوية الغرفة . يناديني جريجوري : أيتها المرأة التي تحت المخدة . . . ماذا تحت المخدة ؟ .

قلت له : مخدة . ماذا تتوقع ؟ . . وداخل المخدة مخدة . . . واذا فتحت المخدة وجدت داخلها مخدة . . وكل مخدة داخلها مخدة الى ما لا نهاية . . وانفجرنا نضحك نضحك وصار منظر المخدة وحدها كافياً لتفجير ضحكنا وحسنا العبثي بالأشياء . . . إفتح الباب تجد خلفه باباً . وخلف الباب باب وخلفه باب وخلف كل باب باب . . إنها ببساطة حكاية المخدة . . . المخدة تلخص كل الحكاية . . ونضحك ونضحك ونضحك .

تسرقنا من الضحك كلمات أغنية خاصة بالـ « ال . اس . دي » . تقول كلمات الأغنية التي يُفترض أن تتحدث عن تجربة المطرب مع المخدر :

« إنني أنصت الى الرياح . . رياح نفسي
لا أحد غير الله يعرف ماذا أفعل وأين أستقر
لقد سبحت في بحيرة الشيطان
حين جلست فوق الشمس المبحرة . .
ولكنني لن أكررها أبداً أبداً أبداً . . .
ألتقط أفكاري ، لكنها تسقط بعيداً
وأترك الموسيقى تحملني إلى حيث يشتهي قلبي . . .
وأسبح في بحيرة الشيطان . .
أسبح في بحيرة الشيطان ، أعوم ولا أغرق
ولكنني لن أكررها أبداً أبداً أبداً أبداً . »

تأتيني موجة رهيبة من الالوان الحارة . تندفع في حلقي ورقبتي وتصعد داخل رأسي ، وأشعر بعيني تكادان أن تنفجرا . أتألم ، ليس كثيراً . أخاف فقط أن تنفجر عيناي من زخم النار والألوان فيهما . أجدني أغني مع المطرب :

« اترك الموسيقى تحملني
إلى حيث يشتهي قلبي
وأسبح فوق بحيرة الشيطان
ولكنني لن أكررها
لن أكررها أبداً أبداً أبداً أبداً . »

وأظل اغني : « لن أكررها أبداً أبداً أبداً أبداً » حتى بعد أن تنتهي الأغنية وتبدأ أخرى . . .

***

الساعة الواحدة وأنا في ذروة الرحلة . . . جريجوري قال إنه ذاهب لاحضار شمعة زرقاء . . (ألحَظُ أن عروق يدي كلها منتفخة ومتورمة جداً ، وجلدي شديد الاحمرار ، وفي داخلي يشب حريق) . . آه كيف عاد طوفان الألوان الكاوية . ها هي من جديد تنفجر داخل عيني . . آه كيف تنفجر الأسهم النارية وسط عينيّ . اغمضهما خوفاً وتظل الأسهم النارية تشتعل وتنطلق . لا أظنني سأجرؤ على تجريب هذا المخدر ثانية ، خوفاً على

عيني . إن خوفي من تعطيل جسدي تعطيلاً دائماً يفسد علي الرحلة . . تذكرت ما يقال عن أن كل رحلة « ال . اس . دي » تقتل نهائياً عـدداً معيناً من خلايا الدماغ وبالذات خلايا الذاكرة . هذا رائع . من يريد أن يتذكر ؟ فلتسقـط الـذاكرة وليحـيَ النسيان . ولتكن الذاكرة أداة للنسيان . . الموجة ما زالت تتكاثف وتعلو وسوف تغمر مركبي بعد لحظات . من الافضل ألا أقاوم . (اذا لم أبحر مع الموجة وأتحرر من « جسدي ـ القيد » وانكفىء إلى الداخل كي أطير في الغابة المسحورة ، يصير جسدي مزعجاً وموجعاً جداً ومن الافضل أن أسبح في بحيرة الشيطان قبل أن يستولي الألم الجسدي عليّ) . . كل موجة لا نحسن السباحة فيها الى مجاهلنا تصير وجعاً جسدياً شرساً . . ذلك هو سر هذا المخـدر الرهيب . اذا استطاعت الموجة أن تغرقك فقد تحملك الى شطآن الجنون ، وما دمت أكتب فهذا معناه انني أستعين بطوق نجاة في بحيرة الشيطان ، خيط من الصحو يظل يشدني الى الشاطىء الآخر . . .

منذ ساعة أو ساعتين وأنا أبحث عن شريط تسجيل معين ثم أنسى ثم أتذكر ثم أنسى وهكذا . .

***

هذا المخدر يعمل بشكل موجات . . . تجيء لحظات أتوهـم فيهـا أنـي صحـوت وانتهت الرحلة ، ثم أُفاجأ بموجة عالية من النار الملون تطيح بي بعيداً ، أبعد من الموجة التي سبقتها ، وجسدي مركب بدأت تنهكه الامواج المتلاحقة لعاصفة الزئبـق الشـديد الغليان . .

الآن ، الألم في معدتي حاد جداً . الألم . يدي متورمة وعروقي تكاد تخرج من تحت جلدي . أسناني تصطك . سمعت صوتي وأنا ائن . أنهار على الورق .

لا ادري كم طالت غيبوبتي . أكتب الآن وأنا منطوية على بطني . لا ريب في أنني أتألم كثيراً ولكنني أعي وجعي مثل مخدَّر ببنج موضعي في غرفة العمليات وهو يرقبهـم يقصقصون لحمه بالآلات . . يحسها ولا يحسها تماماً ! . . . من جديد أرحـل في غابـة الانفجارات المضيئة الملونة ، المذهلة التناسق ، ذات التناغم الكلي اللامتناهي البهـاء ، حيث كل حركة ومضة برق لها رشاقة نمر خرافي . .

يوقظني جريجوري ، ما زال يتابع غيظه من الفلاسفة الذين درسهم جيداً . . يقول لي :

« لدى الناس أفكار كثيرة حول الحياة ، ولكن لماذا لا يعيشون » ؟

اتمنى لو كان عربياً . لو كان يتحدث بالعربية ، لا أعني لغة فقط ، بل روحاً . لولم يكونا انكليزيين لاستمعنا الآن الى موسيقى عربية ما . . ولكن لماذا ؟ لا أدري ! أحب الموسيقى العربية ، ولكنها ـ للأسف ـ غير موجودة ! لا بد أن تكون موجودة في صدر عبقري ما لم يولد ، وأنا من المعجبين به سلفا ! . . .

جريجوري جالس وأمامه بقية الاقراص . يقول ضاحكاً : هذه هي الرأسمالية .

ثم بدأ يبرر لنفسه أو لي قائلا : اني مستعد لمنح من يشاء منه ، لكن أحداً لا يريد . الكل يخاف .الكحول كانت ممنوعة قبل مئة عام وهي الآن مسموحة ، وبعد مئة عام ستباع اقراص هذا المخدر كما تباع الكحول . كل ذنبي أنني ولدت قبل مئة عام من عصري . . .

انفجرنا نضحك .

أذكر أنني كنت أنوي التفتيش عن شريط تسجيل معين . وانني فعلت ذلك ونسيت . أعاود التفتيش .

كدت أسبب حريقاً . كنت أرش في جو الغرفة (سبراي) لتعطير رائحتها وجعلها منعشة ، وكنت أفعل ذلك قرب الشموع حين التهبت سحابة نار ، ولولا جريجوري لشب حريق . وطبعاً لم ألحظ التحذير المكتوب على الزجاجة بعدم استعمالها قرب النار .

ما أخطر هذا العقار ! إنه يعطل الحس بالخطر الحقيقي العملي ، ويلفت الأنظار الى أخطار أخرى مروعة مفترسة مثل نملة تسير على ورقة مثلا ! . . .

(ترى هل تفسد الرحلة الدماغ ؟ كل هذه اللمبات التي تُطفأ وتُضاء داخل رأسي متلاحقة وبجنون ، هل أستطيع احتمالها بقية الرحلة قبل أن أنهار ؟) . . .

الآن يغمر الورق والعالم لون برتقالي . أخضر . برتقالي . حار جداً . يلتمع نصل القلم على صدري كخنجر شفاف . انتهت موجة الصحو النسبية وعادت موجة النار الملون لتحتلني وسأرحل معها الى بحيرات الشيطان . . .

***

صحو نسبي . أشعر بالحاجة الى أن أكون ودية . أقرر أن أعطي سيجارة غلواز لجريجوري وأخرى لانتوني . لا شيء يبدو كالمعتاد . لفافة السيجارة شاهقة مثل عمود في الخلاء وأنا أقف صغيرة أمامها . ملمسها مختلف . يحاول جريجوري أن يساعدني . من الواضح انني عاجزة حتى عن الامساك بسيجارة . (أشم رائحة حريق من وقت الى آخر

ولا شيء يحترق) . أفتش عن شريط التسجيل . أظل أفتش ولا أذكر عن أي شيء أفتش . أتابع التفتيش وأحزن لأنني لم اجد ما كنت أفتش عنه ونسيته ! . . اثناء التفتيش قلبت منفضة السجائر على البطانية البيضاء . كانت إعادة الأعقاب الى المنفضة عملية شاقة جداً . وانشغلت بتفاصيل تنظيفها حتى تعبت جداً جداً . . . أوه كم العالم الخارجي مرهق وشاق ! هذا المخدر مصنوع لنرحل الى الداخل .

***

أشعر بألم حاد يخترق دماغي من المنتصف ، وسينشطر رأسي إذا لم أبحر مع الموجة ، مخلفة جسدي ورائي مع الألم الفيزيولوجي الذي يعوقه عادة عن الإبحار ويدفع بالضعفاء إلى الانهيار على عتبته ، فيُحرمون من السباحة في بركة الشيطان . أنا الآن ذاهبة الى بحيرة الشيطان ، ولولا ذلك الخنجر في احشائي لاستمتعت بالرحلة أكثر . وجع في الأحشاء يشتد ويخفت . كل شيء موجات . الألم موجات . العالم كله موجات . العواطف . الحب . لا وجود للخطوط المستقيمة في طبيعة الأشياء . كل شيء كما أراه الآن يتقاطع وقد يتوازى طويلاً ، ولكن لا وجود للخط المستقيم .

***

انحسرت عني الموجة قليلاً وأشعر بانتعاش . الساعة ٢ إلا ربعاً وسأنتهز الفرصة قليلاً قبل أن تلطمني موجة ضياع جديدة .

تقول الأغنية :

« أحاول ، تحاول ، نحاول

أن نجعل هذا العالم أفضل . . . »

هراء . لا شيء . لا جدوى من أي شيء ، وكل محاولة عبث . « لن ينتهي البؤس من هذا العالم » كما قال « فان غوغ » وهو يحتضر . .

أكرر محاولتي لتدخين سيجارة . لا أدري كيف تمزقت بين أصابعي والتبغ يبدو مثل غابة من القصب الجاف . وخفت قليلا ثم تذكرت أنني تحت تأثير المخدر . (فقط كان هنالك شريط تسجيل أبحث عنه وما زلت أفعل قليلاً ثم أنسى ، وقد نسيت عن أي شريط أبحث لكنني أبحث) .

أسمع أصواتاً ما خلف الجدران . حواسي مرهفة جداً . أنتهز فرصة انحسار الموجة عني ، لأقوم ببضعة أشياء عملية . أفتش عن نظارتي طويلاً ثم أجدهما فوق شعري ! . . جريجوري يزداد شقرة وعيناه في غاية الزرقة ويقول لي وهو يتأمل البحر :

العاصفة قادمة .

إنه فعلاً مثل كائن من الطبيعة الحرة وتعامله معها مباشر وأصيل . لقد ولد وعاش في منطقة البحيرات ببريطانيا حيث عاش شيللي وكيتس . . . لعل كيتس كان يبدو مثله أزرق العينين بنفسجيهما . .

***

عادت موجة النار الملون . . . عاد ذلك الألم يخترق احشائي . لعلي ابتلعت كمية من المخدر أكثر مما يجب . فأنا نحيلة ووزني ٤٥ كيلو وقد أخذت كمية معادلة لما أخذ جريجوري ووزنه حوالي ٧٥ كيلو . . .

لولا ذلك الخنجر في احشائي لكانت الرحلة ممتعة جداً ولكن خنجراً إضافياً لا يهم . . جسدي حامل خناجر غرسها فيه أعز الأصدقاء والأحباء طوال سنوات عديدة . . . أتذكرهم بوجوه وأضحك . .

***

الساعة ٢ وعدة دقائق . أرتجف . أشعر باستمرار بالأبواب تُفتح ويدخل منها حضور ما بلا جسد . حضور يثقل أحياناً على صدري وأحياناً يبهج نفسي . لا ألم الآن . أنا في ذروة موجة نشوة . رأسي يطير بي . أنا سحابة ، جزء من هذه السماء الرائعة الاصطخاب ، إنها العاصفة . (وأخيراً وجدت الشريط الموسيقي الذي كنت أبحث عنه منذ الصباح وحاولت إدخاله في موضعه بالآلة ، وفشلت لارتجاف يدي ، وساعدني انتوني) . أشعر ببرد مفاجىء . لا تزال الألوان تهاجم يدي وأنا أكتب وتنبت فوق الورق ، وفوق كل ما أنظر إليه أو ألمسه وتتكاثر حين أغمض عيوني . سأحزن حين ترحل الألوان لتخلف العالم من جديد كما كان ، بلا نبض ملون ، ولا حياة خافقة مستقلة في الاشياء . . هذا العالم الزاخر بالنبض الناري يأسرني . تأتي الموجة . إني حارة وملتهبة . سأرحل معها . الساعة ٢ وربع ولا أصدق كيف انقضى الوقت . أكرر اللعبة : أغلق منافذ « جسدي - القلعة » وأرفع السلالم عن أسواري وأنحدر الى الداخل الى القاع الى القبو وأعاود حفر ثغرة وأخرج منها الى غابة الجنون وأركض مثل اليس في بلاد العجائب ثم أتعرى وأرمي بنفسي في بركة الشيطان وأسبح بلا خوف وأئن . . .

أفتح عيني . عند قدمي ٣ شمعات جميلة . يقول لي جريجوري : أنت ملكة الجحيم ، والشموع ثلاثة ملوك يغازلون رفضك ويتحدثون إليك . . .

كضربة صاعقة على مؤخرة رأسي تأتي موجة النار الملوّن الجديدة . الألوان تشتعل راقصة والسطور تتماوج وتتوهج كأنما هنالك مصادر إضاءة سرية تسلط فجأة على الاشياء أمام عيني وتنطفىء فجأة . . عاد ذلك الدم الحار يتدفق في عروقي وصدري ، وذلك الألم الشبيه بالألم عاد الى أحشائي ، وفي داخلي طاقة مروعة عليّ استغلالها . . . سأحاول الاتصال بصديقة غالية ماتت منذ زمن ما . . . سميرة عزام . . . (ستائر ترفع في قصور مهجورة ويدخل النور الى زواياها . ما أجمل قناطرها ! سقوفها من « العقد » المهندسي العربي ، وسميرة خلف الستارة وأرفع الستارة وأراها بوضوح وتفتح فمها لتقول شيئاً وأمد يدي اليها) . . .

جريجوري يوقظني بصوته ويحدثني عن « هربرت هوفمان » وذاب القصر والستائر وسميرة !! . . . .

***

تعبت من وحدتي . أنصت لجريجوري . أتمنى أن نطير معاً لكنني في أعماقي أعي أن طيران شخص مع الآخر وهم مستحيل ، وقارب الذات لا يتسع إلا لشخص واحد وحيد ، إذا كان مصراً على الإبحار الى بحيرة الشيطان المرمية بين الكواكب ، أو في قاع النفس البشرية السرية الاعماق .

***

أشعر بسلام كلي عذب لولا الخنجر في أحشائي . أرتجف ولكن حين أرحل بعيداً عن جسدي وألمي الجسدي ، فالألوان لا توصف والرؤ يا مذهلة الاضاءات والومضات . . . إنه عالم الداخل الذي لم تخلق اللغة له ، وعبثاً نحاول أن نطاله ، وكل بؤس الفنانين وحزنهم هو لوعيهم بعنة اللغة أمام الاعماق البكر أبداً . . .

ما أجمل ما يدور في هذه اللحظة في داخلي . كل تلك الموسيقى والألوان والحياة والسلام . . لو يدخل معذبو الارض الى أعماقي ويشهدوا روعة هذا العالم المسحور ، لنسوا كل الأوجاع والأحزان وألاعيب الحياة اليومية الصغيرة . . المأساة أن هذا الكون المذهل موجود داخل كل واحد منهم ، وكثيرون يموتون دون أن يدروا به ، والذين يعون وجوده لا يجرؤ ون على اقتحامه . كل المؤ سسات والاديان وجدت لتحريم الدخول الى حرَم الاسئلة المسعورة كنحل مجنون ، والسباحة في بركة الشيطان . . . ها قد جاءت الموجة . الخنجر في احشائي ولكن لا يهم ، سأرحل الآن الى ذلك العالم البهي ، الأزلي الالوان والضياء ، الذي لا يمكن للغة أن تحيط به أو تصفه ولانضم اليه كعودة قطرة الماء الى

النبع (الكتابة الآن فعل استشهاد . إني مرهقة جداً وأتألم وسينفجر رأسي والساعة الثالثة) . نقطة مخدر أخرى آخذها ستقودني حتماً الى الجنون أو الصراخ والانهيار على مدخل أول مستشفى . ضوء الشموع الباهت ومن خلفه السماء الساطعة محزن ومؤثر ، وكم نستعيض بالشمعة عن ضوء الشمس المحرم علينا ، نحن سكان كهوف المحرمات !

***

جريجوري الرائع . يقرأ مقاطع من الانجيل ، ويبدو بوجهه الاشقر الشفاف كالمسيح في أحلام طفولتي . . . يقول في انجيل متى ـ الفصل السادس ـ الآية ٣٣ ـ ٣٤ (سألته عنها لأسجلها فقد أعجبتني) :

« فلا تهتموا بشأن الغد
فالغد يهتم بشأنه
يكفي كل يوم شره . »

***

إني وحيدة وحيدة . كلاهما ودي ورقيق يحاول مد جسر الى عالمي . يخشيان عليّ من تجربتي الأولى مع الغربة اللامتناهية . لا يعرفون أن أمي اسمها « الغربة » وأبي اسمه «التشرد» وأنني ولدت على ندفة ثلج ذابت تحتي قبل أن أتعلم المشي ! . . مستحيل مد جسر . مستحيل الحوار . مستحيل العناق . مستحيل الجنس . مستحيل الالتصاق . رأسي يصطدم بحاجز زجاجي كلما مددته لأقبل جريجوري . لو أنتزع رأسي من مكانه ! ربما كان رأسي هو الحاجز . إني وحيدة وفي حاجة الى الاتحاد برجل ما بقدر ما أرفض ذلك ، لأنني أعرف سلفاً انه لا يجدي . لا أحد قادر على اختراق حصار أسوار العزلة . .

***

إني أبحر مع الموجة الى الماضي . . (أحاول أن أتذكر الرجال الذين عرفتهم في حياتي وأتذكر هل انكسر الحاجز ولو لمرة . أشعر انني مثل نافذة تحاول أن تتذكر القطارات التي مرت بها وأمامها ، وأن الأمر لا يعنيني حقاً بقدر ما أدّعي . وكل ذلك الحب الحب الذي غمرني به عشرات الرجال أحسني أنفضه (وأهرّه) عن جسدي مثل الريش المتطاير في الفضاء بينما أنا أمعن طيراناً بعيداً بعيداً الى أصقاع الحقيقة والغربة) .

يقرأ جريجوري في الانجيل ـ الفصل السابع ـ سورة ٣ :

« ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك ، أم كيف

تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك وها ان الخشبة في عينك » . . . افكر بالذين قد يعرفون بأمر سباحتي في بركة الشيطان . سيروعهم الامر ، سيسارعون الى إخراج القذى من عيني ، ولا يرون الخشبة في عينهم ، وهم دائمو الاقامة على ضفاف بركة الشيطان . .

يتابع جريجوري القراءة بصوته الساحر . كيف يستطيع ان يقرأ ؟ يدهشني ! حاولت أن اقرأ . الكتاب كالبحر . الصفحات أمواج ، والقراءة على الموج أتقنها ولكن . . .

يتابع القراءة : « ولا تلقوا بجواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها وترجع فتمزقكم » . . .

وأتذكر جواهري . . . والخنازير . . . وأشعر بأنني فراشة بين سيقان قطيع من الافيال ! . .

****

أكف عن التفكير في الماضي ، لكن لذعة خاصة تظل في حلقي . أشعر انني كنت دائماً امرأة تحاول أن تدق وتداً في موجة ! . . حكاية عمري كلها في سطر هي : محاولة دق أوتاد في الامواج !

هذا المخدر يقوي القدرة على الاستشراف الى حد عجيب . حمل جريجوري جريدة « الديلي ستار » ولم يفتحها منذ جاءت صباحاً . قلت له : ما دمت قادراً على القراءة ؛ لماذا لا تقرأ لنا الجريدة ؟ قال : أحس أن فيها دماً كثيراً وصور قتلى .

فتحناها وكان ذلك صحيحا وذهلنا . وتذكرت حادثتي مع البراد وقطعة الجبن التي حدست وجودها حتى قبل أن أفتح كيسها ، وحادثة انتوني مع الاوراق التي كان يبحث عنها ثم شاهدها داخل حقيبة دون أن يفتح الحقيبة . هذا المخدر ينبه حاسة منسية مجهولة مهملة في الانسان العجيب المليء بالاسرار . . .

****

ما زال الألم في أحشائي لكنه بدأ ينحسر . ما زلت مبطوحة على الارض . أتأمل الموكيت الذي هو عادة ميت ورمادي . أراه مثل الجسد الحي ، مثل كائنات من الدانتيل الرمادي ، أجسادها مثل أشكال بلورات الثلج ، وهي تغلي أمام عيوني وتتوالد وتتكاثر . . أخاف وأصرخ . أنا الآن خشبة في نهر تطفو ويجرفها التيار وتتأمل الاشجار الحية الراسخة على الضفتين . .

****

إنها الرابعة إلا الثلث ، وأنا لا أزال (منبطحة) على بطني فوق الأرض، مرمية في مكاني منذ ساعات ، ولا أدري كيف ينقضي الزمن . . . حفنة رمل هاربة من رأسي عبر

عنقي الى أخمص قدمي . ما زلت تحت تأثير المخدر . أي انني عاجزة تماماً عن التصرف بشكل اجتماعي سليم (أم أن تأثير المخدر بدأ ينحسر ما دمت ألحظ عجزي ؟) . . . إذا دخل رجال الشرطة الآن مثلا فلن اتمالك نفسي من الضحك من ملابسهم ! . .

* * *

الرابعة ، والموجة تروح وتأتي . . . صارت أشبه بدفقة حرارة ، واضواء سائلة في الجسد المتواصل مع نهر الكون ، وهذه الدفقة الحارة الملونة الملتهبة المتأججة متحركة باستمرار مع تلاطم الفضاء الممتد فيّ . . الألوان ما زالت ترقص على كل ما تقع عليه يدي أو عيني أنا «ميداس» الألوان الحية . أزرق . بنفسجي . أخضر . برتقالي حار حار آه تعبت كفي . . .

* * *

الرابعة والربع . أتأمل البحر . عادت العاصفة وأنا في حالة صحو نسبي . لا أفق ، السماء والبحر متصلان متمازجان كما كل شيء في هذا الوجود .

هنالك رجل واحد يسير وحيداً في العاصفة راكضاً على الشاطىء نحو البحر في ثياب رثة . . إلى أين ؟ ولماذا ؟ قال جريجوري ضاحكاً : « ربما ليلقي نظرة ! » . . . أقنعني التفسير . هذا بالضبط ما فعلته طوال النهار اليوم ، لألقي نظرة على داخلي رغم عاصفة المخدر الموجعة . كل حيوانات الطبيعة اختبأت من العاصفة إلا هذا الرجل الخارج « ليلقي نظرة » . ربما لذلك وحده الانسان هو حيوان الطبيعة الذي يتعاطى المخدر أحياناً ليلقي نظرة على داخله ! . . إنه مثلي شريد في العاصفة والحيرة . . .

* * *

الخامسة تقريباً ! إنه الغروب ، ومع ذلك لا أزال أرى السماء الرمادية مثل أول فجر في التاريخ . . نعم أقرر أنه الفجر . ثم كيف يمكن للغروب أن يحلّ وأنا لم أعش هذا اليوم حقاً بالمعنى الارضي الزمني للكلمة ، بل أبحرت جيئة وذهاباً في أفق الزمن وتجولت خارج قيوده . . . فلماذا تسري قيوده عليّ كما تسري على بقية الناس ؟ . .

* * *

الخامسة والنصف .

يا الهي كيف مر الزمن ! لا أصدق ذلك ، مثل رجل خارج من غرفة العمليات بعد تبنيج كليّ . الألوان المذهلة بدأت تذوب ، ولم يبق منها غير بقع صغيرة تروح وتجيء فوق

السطور كالذكرى الحزينة ، مذكرة بمجد البروق الملون الذي كان . . ومضى . . .
انحسر المخدر تقريباً . . . والسطور لم تعد متماوجة . عادت سطوراً متوازية ومستقيمة كما يريد لها اساتذة المدرسة ان تكون .

أنا لن أعود قط كما انا .

أكثر من أي لحظة في حياتي وعيت اليوم كم أنا وحيدة وكم كنت دوماً وحيدة . . .

من الدفتر سقطت كمية من الصور . . صور هذا النهار . . لحظات مسروقة من الزمن . . استطعنا سرقتها وتثبيتها على الورقة .

اتحسس وجهي بيدي . ما زال يبدو غريباً عني ، تماماً كوجه مبنج لقلع ضرس ! . .

***

الشموع شارفت على النهاية .

يقول جريجوري : إنها جميلة فعلاً .

وفعلاً كانت جميلة أكثر من أي لحظة طوال النهار . ما هذا السحر الذي ينبثق من الاشياء قبل لحظة النهاية . قبل الاحتراق الأخير - في البشر ، في الاشياء ، وحتى في الدول . . (تذكرت ابن خلدون الذي تحدث عن التهاب الدول وازدهارها الموقت والعابر قبل سقوطها النهائي) .

***

جاء جريجوري يضمني مهنئاً بسلامة العودة من الرحلة مصحوبة بكل اعضائي دون أي حرق أو كسر ! . . .

التمع البرق مثل « فلاش » وضحكنا وهو يقول لي : إنهم يصوروننا في السماء !! . . .

***

جائعة . جائعة . وبعدها سأنام مئة عام .

لا تصلبونـــي من زعانفي ! . . .

قلت للطبيب : بل افضل اجراء العملية بعد تخديري كليا . . .

قال بدهشة : تخدير كلي من اجل عملية بسيطة تكاد لا تحتاج الى بنج موضعي ؟

تخدير كلي من اجل اللاشيء ؟ هذا أمر لم اسمع به طيلـة حياتـي . . . هل تعرفـين معنـى البنـج الـكلي ؟ انـه بحاجـة الى مستشفى ، وقاعة عمليات ، وطبيب خاص للتخـدير ، وجيش من الممرضـات ، وخمسـة أضعاف الكلفة العادية ! . . . وستدخلـين في تاريخ الطب كأول انسان يخدر كلياً لأجل هذه العملية التافهة !! . . . .

قلت : إننـي أصر على البنـج الـكلي ، وسأدفع التكاليف .

قال : ولكنني أخجل من إجـراء عملية تافهـة كهـذه مع تخـدير كلي ! . . انـك تحرجينني مهنياً .

قلت : اعرف انني كمن يستأجر طائرة فانتوم لنقل أرنب الى سيرك لكنني أصر . أصر متوسلة !! (لم أجرؤ على القول بأنني أرغب في تجريب مشاعر الانسان في لحظات السقوط في الغيبوبة ولحظة الخروج منها . . . الى أين نذهب أثناء الإغماء ؟ وماذا يحدث (للروح) عندئذ ؟ لم أجرؤ على قول ذلك كله . . ولا سواه عن فضولي نحو تجريب كل شيء !) .

. . . وقال لي الطبيب السويدي قبل تخديري يحدثني عن بلاده وجمالها الطبيعي وسهوبها وجبالها ووديانها : فكري بشيء جميل . . . فكري بالانهار . . . بالجبال . . . بالبحار . . . بعالم تحبينه . . .

ومع وخزة الابرة بدأت تجربة جديدة مثيرة لم أذق لها طعماً من قبل . . . انطفأت كل اضواء غرفة العمليات ، وكل الوجوه التي كانت ملتفة حولي ورحلت الى حيث لا أدري ولا أحد يدري . . . كل ما أذكره هو حس بالضيق لأن الكرة الارضية تدور ولأنني مقيدة إلى أحد جوانبها لسبب مجهول ، وخيل اليّ أن ذلك سوف يدوم الى الابد ، ولم أكن أحس في تلك اللحظة بماهيتي البشرية أو بأية ماهية ، وانما غمرني شعور غامض بالضيق والرعب والسقوط في فخ من العذاب الرتيب الذي لا نجاة منه ، والدوار الذي هو أقرب الى السقوط المتوالي منه الى الدوار . . .

ثم بدأت أعي انني سمكة ، ولكني مقيدة إلى الكرة الارضية وأريد أن انطلق منها وأن يفك أسري لأعود الى البحر ، الى البحر اسبح في البحر الواسع الحنون ، ولم يكن البحر في خاطري زرقة أو أمواجاً ، وانما كان سائلا حنون الدفء شاسع الاتساع ، فيه وحده أجد الحرية التي قضيت عمري ابحث عنها . . . وللحظات شعرت انني سمكة وطليقة وحرة واسبح باسترخاء مذهل المتعة ، ثم بدأت أميز أصوات العالم الخارجي وبدأ معه عذاب الوعي فقد سمعت الممرضة تقول أنه يجب منعي عن تحريك يدي كي لا انتزع منها ابرة السيروم (علمت فيما بعد ان ضغطي هبط قليلا ، فاضطروا لتغذيتي عبر إبرة تثبت في الوريد وكل هذا من اجل عملية صغيرة تافهة كانت نكتة المستشفى يومئذ)* سمعتها بالضبط تقول أمسكوا يدها . وصرخت بأن لا يد لي وانما زعانف فأنا سمكة .

---

* عملية إزالة حبة صغيرة في الجفن (شحاد) - (جنجل باللهجة الشامية) ! . . .

وصرخت أطلب منهم أن يتركوني اسبح بسلام ، ولا يصلبوني من غلاصمي وزعانفي ثم سمعت صوت رجل أحبه واحسسته سمكة مثلي ، وطلبت منهم أن يتركوني أسبح وإياه بحرية ، ثم بدأت أزداد وعياً بأصوات الذين يتحدثـون حولي ، وبجسـدي وبماهيتـي البشرية ، وادركت مرة واحدة من انا وما أنا وتذكرت لم أنا هنا وانتهى الحلم المدهش ، والتجربة الجديدة المثيرة .

وهنا لا بد لي من شكر صديقتي التي كنت قد رجوتها حمل مسجل صغير ، سجلت فيه (تصريحاتي المائية) أثناء صحوي التدريجي من البنـج . . . لقـد سمعـت الشريط وتذكرت يقيني المطلق لحظتها بأنني سمكة . وتذكرت أيضاً بحزن حادثة جرت في لندن أيام دراستي وكنت في السابق أضحك منها . . .

كنت وأخي ومجموعة كبيرة من رفاقنا بالجامعة نسهر ونحتفل بعيد رأس السنة ، حين جاء احد الرفاق بمكعب صغير من السكر . وقال إنه استطاع ان يصنع خلسة في المختبر الجامعي قليلاً من الـ (ال . اس . دي) المخدر المشهور ، وانـه يعرضـه لمن يريد أن يجربه . . . ولما رفضنا جميعاً (نعمة) عرضه ، ابتلعه مغتاظاً وبدأ يعب الخمرة ثم صار يقول إنه طير ، وهجم الى النافذة ليقذف بنفسه منها كي يطير ، وهجمنا نمسكه فازداد شراسة ، وتخلص منا بقوة عجيبة ، وركض الى سطح البيت وكلنا نركض خلفه ، ثم رمى بنفسه الى الهواء يريد ان يطير وكان صوته مقنعاً (كصوتي في التسجيل وانا مقتنعة بأنني سمكة) ولكنه سقط على الارض وتحطم أمام عيوننا جميعاً ومن يومها وانا اسميه عباس بن فرناس الانكليزي ، واتذكره وأخي على سبيل التندر . . مع غصة من الحزن والاسف .

اليوم ، وقد جربت بعضاً من طعم التخدير ، أحزن عليه بصدق بعد سنوات من مصرعه . وأعتقد أن عالم التخدير وضحاياه بحاجـة الى رؤ ية جديدة ملؤ هـا التفهـم والحنان . . . ولكن كيف ؟ .

بإرغام القضاة على تجربة (تخـديرية) واحـدة ، تكون بعضـاً من قسمهـم لتـأدية واجبهم ؟ . . .

بسوق الجميع الى تجربة (تخدير إجبارية) ،لنكـون أكثـر قدرة على فهـم أولئـك المعذبين بيننا ، الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم ويتضخمون ؟ . . . ويغرقـون في عوالـم المخدر بكافة أنواعه ؟

أم بالكف ـ على الاقل ـ عن طرح مآسيهم للتفكهة أو للاثـارة أو للتشهـير ؟ . . . ودراستها بحنان ، علمياً ومن الداخل ؟ . . .

الجنـــون

« الذين يملكون بصيرة إلهية ، هم غالباً بحالة عمى ، حينما يتعلق الأمر بشؤون تفاصيل الحياة اليومية الاجتماعية » .

ـ ماري ستيوارت ـ

« كل عمل خلاق يتضمن رؤيا جديدة البراءة ، متحررة من شلال المعتقدات السائدة » .

ـ آرثر كوستلر ـ

« للدماغ جبال ، صخور شاهقة ، ووهاد سحيقة القرار ، مخيفة ، مبهمة ، لم يسبر غورها إنسان بعد » !

ـ جيرارد مانلي هوبكنز ـ

« اننا نعيش وعياً جديداً بحقائق منسية . . وفي المستقبل ، سيؤرخ الجنس البشري لبداية عصر العلم الروحاني النفساني قائلين إنه عام ١٩٧٠ » .

ـ ويليام تيلر ـ

٥/٧/١٩٦٨

المجانين هم الاقلية العاقلة في عالمنا المجنون

في إحدى كليات جامعة لندن ، كان البروفسور الكبير جداً ، سناً ومكانة ، يعدد لي أسماء بعض المراجع ، حينما سقطت نظراتي على كتاب معين فوق منضدته بين أوراقه وكتبه ، وكدت أشهق دهشة وذهولاً(يا الهي . . . هل يمكن لبروفسور مثله أن يقرأ كتباً جنسية رخيصة كالمراهقين) . . .

لم أعد أسمع ما يقول . . . كنت أتأمل غلاف الكتاب وأنا عاجزة عن التصديق . على الغلاف امرأة ورجل . . . عاريان تماما في غابة . شعرها الطويل متصل بالخضرة والأرض . . . متلاحمان في عناق غامض ، وفي عيونهما رعب وخشية . . . في تماسكهما حس بالحركة ، يسمر أعين الناظر اليهما ، اذ يتوقع أن يتحركا فجأة على الورق في لقاء جسدي مثير . . .

ثم اسم الكتاب ، رمزي رخيص ! « عصفور الجنة ومبادىء التجربة* . . . » !! . . تأليف الدكتور لينغ !

رفعت نظراتي عن الكتاب ، وكان فيهما بلا شك اتهام صريح مفجوع . . . (إذا كان لا بد له من ان يقرأ كتباً كهذه ، كالمراهقين ، فليخفها تحت وسادته كالمراهقين أيضاً) ! . . .

طبعا لاحظ أنني اتأمل الكتاب . سألني بسرعة كما لو كان من المفروض أن تكون نسخة منه تحت وسادتي : هل قرأته ؟ . . .

كدت اصاب بالسكتة الفكرية (يا إلهي . أية مفاجأة . . . لست ضد أن يغازلني ، لكنني ضد هذا الاسلوب) . .

« شكراً » . قلتها بسرعة وأنا اتأهب للهرب .

بحزم اكاديمي جمدني : « سألتك هل قرأت هذا الكتاب ؟ » .

---

* كتاب عصفور الجنة

THE POLITICS OF EXPERIENCE AND THE BIRD OF PARADISE

(تأليف الدكتور لينغ R.D. LAING) ـ منشورات بنغوين

رددت « لا احب هذا النوع من الكتب ، ولا أريد أن أقرأه » .

وبالحزم نفسه قال « إن موقفاً كهذا أمام أية لجنة فاحصة ، يكفي لحرمانك من المقعد الجامعي . أن تقيّمي كتاباً لم تقرأيه » . . .

(تذكرت أنهم في اسبانيا اصدروا قانوناً بسجن أي ناقد يثبت انه كتب حول كتاب لم يقرأه . . أتخيله سجناً مع الاشغال الشاقة الادبية : أن يُرغم على القراءة !) .

قاطعني : هذا جزء من لوحة للفنان جيرونيموس بوش كبير مؤسسي السوريالية في الفن ـ وموجودة حالياً بمتحف مدريد . من الغريب أن لا تعرفيها ، فالثقافة وحدة لا تتجزأ . . .

وهذا الكتاب هو لأحد تلامذتي السابقين . . هو اليوم أستاذ زميل ، وعبقري سوف يخلده التاريخ الانساني . . . يجب أن تطلعي عليه . .

خرجت بالكتاب خجلة ، إذ كشفت للبروفسور مرة واحدة عن عقدتين تتحكمان في مجتمعنا العربي : الجنس . . . والثقافة العرجاء غير المكتملة من النواحي الفنية والموسيقية .

طبيب أم مجنون أم شاعر ؟

لم تكن مفاجأة الغلاف المفاجأة الوحيدة . ففي الكتاب بلا شك أكثر من مفاجأة فكرية مذهلة تشد القارىء إليه . . .

فالمفروض ـ كما في مقدمة الكتاب ـ أنه يدور حول مداواة الجنون بوجه عام ، وانفصام الشخصية بوجه خاص (الشيزوفرانيا) . . وأكثر ما يطمع به القارىء عادة من كتب كهذه ، أن تعلن له عن اكتشاف عقار جديد لمداواة هذه الامراض . . . دواء هو عادة حصيلة ما توصل إليه التقدم العلمي بفضل الاختراعات الحديثة كالذرة وغيرها . . .

أما أن يجد بدلاً من هذا كله كتاباً يدافع عن الجنون ، ويروّج له ، ويأسف للذين يشفون منه . . . فتلك بلا شك مفاجأة . . .

الدكتور لينغ لا يصف علاجاً لشفاء الناس من الجنون ، وانما يبحث عن علاج لشفائهم من العقل ! انه ليس حزيناً من اجل المجانين ، وانما هو حزين لأن الافراد العاديين فخورين بظنهم انهم عاقلون ! . . .

الدكتور لينغ لا يتحدث عن المجانين داخل المستشفى وانما عن عالم المجانين خارج المستشفى . . . وهو ليس فخوراً ـ كبقية الاطباء عادة ـ بتقدم الوسائل العلمية في معالجة المجانين ، فهو يرى في جنون التطور العلمي أهم أسباب الجنون المعاصر .

طبيب نفساني يطبق الاساليب العلمية هو في نظره موظف للتعذيب في مستشفى ! . .

الطبيب النفسي الحقيقي يجب ان يكون مجنوناً متقاعداً !! أو مجنوناً محترفاً !

إنفصام الشخصية بالذات ، هو جنون هذا العصر ، وكلنا مصاب به بدرجة أو أخرى . . ولكن العباقرة فقط ، والمناضلين السياسين ، والمثاليين ، والمؤمنين ، والاذكياء والمرهفين هم الاكثر تعرضاً للصحو الكلي : الجنون . . أما الناس العاديون ، فهم أقل تعرضاً لهذا الصحو ، لأنهم لا يرهقون أنفسهم بالتفكير ، ويتبنون آلياً المواقف الاجتماعية السائدة ، ويقصرون وجودهم على التكيف معها ! . . وفي رأيه أن المدينة الحديثة سائرة الى الدمار لا محالة ، لأن الناس يكرمون رائد الفضاء اكثر مما يكرمون المجنون !! (المجنون بنظره هو رائد أعماق الفضاء الانساني والنفس البشرية) .

ثم تأتي مفاجأة الكتاب الاخيرة الرائعة ، والتي أتركها حتى نهاية المقال (لا من اجل إثارة فضول القارىء على طريقة المسلسلات البوليسية ، وانما لأن شرح آراء الدكتور لينغ ضروري جداً قبل الاعلان عنها !) . . .

ولا شك في أن آراءه هذه ، تبدو للوهلة الاولى أقرب الى الهذيان او إلى الشعر . . ككل الافكار الجديدة . . لكن سر عظمة الكتاب تكمن في أمر واحد : هو ان الدكتور لينغ لا ينجح في اقناع القارىء بما يقول فحسب ، وانما يدفع به الى ان يتمتم بين صفحة واخرى : « يا الهي . . كأنه يتحدث عني » . . . أو الى القول « هذا صحيح . . . لقد كنت دوماً أشعر به ، والدكتور لينغ يقوله بالنيابة عني كما لو ان صوته يخرج من دماغي انا . . . »

ويخرج القارىء من الكتاب مقتنعاً بأنه مجنون ، وفخور بقناعته تلك ! . . أو مقتنعاً بأنه « عاقل » ، وممتلىء بالخجل لذلك !!

أديب أدركته حرفة الطب !

نظرية الدكتور لينغ على غرابتها ، تصبح عادية بل وبديهية اذا تابعنا منطقهُ (المبدع أحياناً هو ذلك المفكر الذي يعيد إلى الأذهان بديهيات تم طمسها ونسيانها لسبب ما تاريخي أو اجتماعي) . . .

الفرق بين الدكتور لينغ وبقية الاطباء النفسانيين هو كالفرق بين موقف المبدع الحر ، وبين موقف الموظف الجيد المطيع .

الدكتور لينغ لم يعمل كطبيب على تطوير أساليب مداواة المرضى وانما عمد الى نسف

فكرة « المرض » من أساسها .

في نظره ، الطب النفسي على طول تاريخه انطلق من أسس خاطئة اعتمدها لتصنيف المجانين ، وحاول (معالجتهم) على ضوئها . . . وانه من الضروري العودة الى نقطة البداية : الى تعريف ، من هو المجنون ؟

النظرية القديمة تقول :

المجنون في نظر المجتمع هو إنسان يسلك سلوكاً يختلف عن السلوك المتعارف عليه ، وهو بالتالي ينفصل عن المجتمع ويصبح خطراً في الحالات الحادة ، ولذا يعزل لحماية سواه ومحاولة شفائه .

الدكتور لينغ يقول :

« المجنون ليس مريضاً مصاباً بجراثيم معينة ، اذ ليست هنالك جراثيم (للجنون) أو وباء الجنون ، إذن الموضوع لا يمكن بحثه تحت المجهر واعطائه صفة الحقيقة العلمية الاكيدة . . .

تشخيص الجنون يعتمد على اختلال سلوك الفرد . .

واختلال سلوك الفرد ليس بالضرورة برهانا على اختلال تفكيره . . . لا العلم ولا الطب ولا أية وسيلة اخرى تستطيع قط الوصول الى معرفة ما يدور في أعماق أي إنسان ، وانما تحاول (تخمين) ذلك عبر مراقبة سلوكه . . . واذا كان سلوك (المجنون) غير مفهوم لنا ، ولا ينسجم مع منطقنا ، ولا يتكيف مع مجتمعنا ، فذلك لا يكفي لاثبات أن ما يدور في أعماقه قد اختل أو تخرب ، وتجب معالجته لإعادته (كالآخرين) . . ولكن ذلك قد يعني شيئاً آخر : المجنون إنسان اكتشف عبر حادثة مفاجئة عجزه عن تكييف انسانيته مع مجتمع مجنون . . . . (المجنون) بالتالي لا يهدد بقاء المجتمع الانساني ، وانما هو أول ضحايا المجتمع اللانساني المتجه نحو تدمير ذاته . . . إنه صفارة إنذار ليس المهم هو إسكاتها كي لا تزعجنا ، بل الأهم أن نعرف لماذا انطلقت » . . .

وقد وجدتُ في هذا التعريف تفسيراً لأمر طالما احسسته حقيقياً وانسانياً دون أن أدري لماذا . . . إنه موضوع جنون الضابط الذي ألقى القنبلة الذرية في هيروشيما . . . قرأت ذات مرة أنه جنّ ، ولم أجد في جنونه أية غرابة . . . وأظنني وجدت في نظرية الدكتور لينغ التفسير الحقيقي .

أن يرمي الضابط بالقنبلة ويعود الى قاعدته كأن شيئاً لم يكن ، ويتابع حياته العسكرية بسلام هو التصرف السليم من وجهة نظر المجتمع :

أما أن يعود الى قاعدته يهذي وقد فقد سلوكه كل منطق متعارف عليه ، فذلك يعني في نظر المجتمع أنه صار مجنونا .

السؤال هو : في أي الحالتين نشعر بأن هذا الضابط أقرب الى انسانيته ؟ في حالة انسجامه مع رمي القنبلة (أوامر المجتمع) ومتابعته لحياته العادية ، أي تكيفه مع هذا المجتمع الذي أمره بإلقاء القنبلة ، أم أنه أقرب الى انسانيته حينما انشق بطريقته الخاصة عن ذلك المجتمع وصار يدعى مجنونا ؟ . . .

من وجهة نظر المجتمع كان سليماً وصار مريضاً .

من وجهة نظر برتراند راسل مثلا ، أو أي فيلسوف انساني ، هذا الضابط كان جزءاً من مجتمع مجنون منذور للدمار ، ولحظة جنونه ، أو ما يسميه الطب التقليدي بجنونه ، كانت لحظة شفاء انسانيته من التكيف مع مجتمعه المريض !! . . .

ازدواج الشخصية ، مرض العصر !

بعد هذه النظرة الشاملة ، والتي تنسف المفهوم القديم والشائع لمعنى الجنون ، يقول الدكتور لينغ : اذن ، الجنون ، هو وجود فئة من الناس نعجز عن فهم ما يدور في اعماق افرادها لأنهم ـ لسبب ما ـ كفوا عن التعبير عن تجربتهم عن طريق اللغة المتعارف عليها والسلوك السائد . . . وبما انهم الفئة الأقل ، والنموذج الأندر ، لذا فان لقب مجانين ، ليس أكثر من اصطلاح الأكثرية أطلقته على الأقلية ! . . . وهو أيضاً ظلم مارسته الأكثرية (العاقلة) ، لتحمي نفسها من الأقلية (المجنونة) .

لكن الفئة (العاقلة) بدأت تفقد أكثريتها . . . الأمراض النفسية هي مرض العصر الاول ، وهي مرحلة من مراحل (انفكاك) الانسان عن مجتمعه . . . ومرض الشيزوفرانيا ، أو انفصام الشخصية صار أكثر انتشاراً حتى من الزكام .

الطبيب العالم الدكتور لينغ يضع أمام أعيننا هذا الاحصاء :

أن كل طفل يولد في انكلترا ، يواجه احتمال الدخول الى مصح عقلي أكثر بعشر مرات مما يواجه احتمال القبول في جامعة !! . . .

وان خمس الذين يدخلون الى المصحات العقلية مصابون بالشيزوفرانيا . . ونسبتهم في ارتفاع متزايد . .

وهنا يتابع الدكتور لينغ الاديب والمفكر شارحاً مدلول هذه الظاهرة : ألا يعني ذلك اننا ندفع بأولادنا الى الجنون والمصحات ، أكثر مما نقدم لهم (العلم) ؟ أم اننا ندفع بهم

الى (الجنون) بسبب ما نقدمه لهم على أنه (علم ومعرفة) ؟ . .

اعتقد أن في هذا التساؤ ل الأخير الساخر ، تفسيراً جديداً لجانب من أسباب اضرابات الطلاب الاخيرة في انحاء العالم كله . . . انها في هذه الحالة تمثل احتجاج الجيل الجديد على مجتمعات لا يدري بالضبط لماذا يرفضها . . . يحس بأن فيها ما يعتدي على بقائه ويهدد انسانيته لكن فيلسوف هذه المرحلة لما يولد . .

سارتر مثلا فسرها من زاويته الفلسفية ، لكنه لم يكن صوتها ! اؤمن بأن عصرنا في حاجة لفيلسوف جديد .

ثم ان الذين يدخلون المصح ليسوا وحدهم المصابين بانفصام الشخصية ، وانما هم الذين ساءت حالهم الى حد لم يعد معه مرضهم سراً . . . وبيننا ، وحولنا ، آلاف من المصابين ببداياتها . . . بل أن كلا منا تقريباً مصاب بمرض الشيزوفرانيا بطريقة ما ، ومهدد (بزيارة) المصح . . . لذا فإن دراسة تاريخ حياة المصابين به ومجتمعهم أمر ضروري لا لمداواة المريض فحسب ، وانما لمداواة المجتمع المريض الذي اضطره الى الجنون . . . (نحن المهددين بالجنون ، دعونا نحاول شفاء المجتمع المريض الذي يدفع بنا الى الجنون !) .

الشيزوفرانيا : مكسور القلب والروح

شيزوفرانيا تتألف من كلمتين : شيزو ومعناها « مكسور » و « فرينوس » ومعناها « الروح أو القلب » واعتقد أن ترجمتها الى العربية هي : النفس . .

والدكتور لينغ يرى في هذا الاسم القديم خير تعريف للمرض ووصف له ! .

ولكن ، ما هي اعراض الشيزوفرانيا ؟ . . .

ان في ذهن الناس جميعاً صوراً سينمائية مثيرة عن هذا (المرض) العجيب . . .

هنالك حكاية « دكتور جيكل » و« مستر هايد » الرجل ذو الشخصيتين المختلفتين تماماً . . . حينا تظهر احداهما تختفي الاخرى . . .

وهنالك فيلم « حواء ذات الوجوه الثلاثة » حيث البطلة تعيش ثلاث شخصيات مختلفة تمام الاختلاف : طفلة بريئة بائسة ، وامرأة محنكة لعوب ، وفتاة ذكية هادئة . . . ولكل من الشخصيات حياتها المستقلة وثيابها وحتى طريقة تصفيف شعرها ، ولغتها !! . . .

وكل من الشخصيات تريد أن تدمر الأخرى لتسيطر . . . !

وإرضاء للجماهير ومكافأة لها ، عمد المخرج في النهاية الى إنقاذ الفتاة العاقلة بعد

قتل الشخصيتين المتطرفتين (على شريعة خير الامور الوسط) . . . ولكن الفيلم يظل تحت الوسط من الناحية الواقعية . . .

الدكتور لينغ يصف « مكسور النفس » بعيداً عن هذا التهريج . . .

« مكسور النفس » في الحالات غير الخطرة هو أنا وأنت ، وهو رحلة كل انسان داخل ذاته في محاولته الدائمة لخلق التوازن بين الداخل والخارج . . . وهذا في نظر المؤلف أمر ضروري ورائع وإنساني . . والمهم هو أن ينجح الإنسان في العودة من هذه الرحلة ، وأن يظل الاتصال بين حقيقته الانسانية ـ داخله ـ وبين الحقيقة الاجتماعية ودوره فيها ـ خارجه ـ ، أن يظل الاتصال قائماً . . .

أما حينما يفشل الانسان في العودة من رحلته الى داخل ذاته ، أو حينما يرفض العودة ، فانه يغرق ـ داخل ـ ذاته ، ويكف عن تبني السلوك الذي اعتاده ـ خارج ـ ذاته ، أي سلوكه الاجتماعي . . . ويتخذ هذا التشويش مظاهر شتى ، عنيفة أو هادئة أو متقطعة . . .

وقد اثبتت دراسات الدكتور لينغ وغيره من الاطباء على مجتمع المصاب « بانكسار النفس » ، ان جميع المصابين به ينتمون الى شبكة اجتماعية مقطعة الخيوط ، مهزوزة المفاهيم والعلاقات والروابط . (من نتائج دراسة موحدة اجريت في كاليفورنيا ، جامعة يال ، مؤسسة بنسلفانيا للطب النفسي ، والمعهد العالمي للصحة العقلية . . .) . . .

ثبت أن لا علاقة أيضاً بين مرض « انكسار النفس » والطبقة الاجتماعية من أرستقراطية أو عامة . . فهو يقع أينما كانت العلاقات مهزوزة ومشوشة والارتباطات غير حقيقية والطمأنينة مفقودة . . .

ففي مجتمعات كهذه ، يسقط الانسان فريسة مواقف متناقضة مشوشة ، وتتنازعه شتى القوى والضغوط ؛ ولحظات الحيرة المذهولة المرتاعة . . . ويهرب الانسان بحياته من مجتمعٍ ، الحياةُ فيه غير ممكنة . . . إنه يرحل الى داخل نفسه ، ولسبب ما لا يعود . . .

ولذا فإن عزل الافراد الذين « تنكسر نفوسهم » لا يُجدي ، والأهم من هذا كله هو علاج المجتمع . . .

ولأن المفكر والمناضل السياسي والفنان والإنسان المرهف والوحيد ، يواجه عادة هذه الضغوط أكثر من سواه بحكم طبيعته وطبيعة عمله ، لذا فهو معرض أكثر من سواه للاصابة بانفصام الشخصية ، خصوصا حينما يصاب مجتمعه بالانفصام عن تاريخه أو عراقته أو انسانيته ! . . . (هذا التشخيص يرعبني كعربية . . اذ ان فيه وصفا للجو النفسي

لجيلنا ، وفيه شبه تحذير من جيل ليس مصابا بازدواج الشخصية فحسب ـ مثلنا ـ وانما مصاب جدياً بانفصامها إلا إذا داوينا مجتمعنا بالثورة) .

مطلوب طبيب مجنون

كيف نعالج « مكسور النفس » ؟ وما معنى معالجته اذا كان مرضه صحواً ؟ ولمصلحة من نعالجه ؟ . . .

هنا يحمل الدكتور لينغ على أسلوب العلاج العلمي ، الذي يداوي « الأعراض الجسدية » ، تلك الأعراض المرافقة للأعراض الروحية الدفينة في النفس . إنها علاج سطحي مؤقت ، لأن التبدلات (الفيزيولوجية) لدى المريض هي نتيجة لانكساره النفسي ، وليست سبباً إلا في حالات معروفة .

ثم إن أسلوب التشخيص التقليدي ، يزيد في إمعان المريض هرباً الى داخل ذاته (كأن يغرز الطبيب إبرة في مقدمة رأس المريض ،ولا يقول للمريض شيئاً حتى ولا يفسرّ له لماذا يفعل ذلك به !) . . . ان طريقة التشخيص بحد ذاتها وحشية . . .

ما البديل ؟ . . .

البديل هو إنسان يفهم النفس البشرية ، أكثر من فهمه لوظائف الجسد البشري . . . وما دام الجنون رحلة الى مجاهل النفس البشرية ، رحلة بلا عودة ، فان الحل الوحيد هو مساعدة المجنون على العودة من هذه الرحلة . . كيف ؟ أقدرُ الناس على ذلك ، هم اولئك الذين استطاعوا القيام بهذه الرحلة أو ببعضها ، ونجحوا في العودة قبل أن تغوص أقدامهم في مستنقعات الرمال . . . حيث لا عودة . . .

الفنان هو غالباً مجنون محترف ، يغوص داخل ذاته وينجح غالباً في العودة (ربما لهذا نسمع كثيراً عن أدباء أصيبوا بالجنون ، وعن لوثة العباقرة ، وتقول العوام إن فلاناً جنّ لكثرة ذكائه) . . .

وهكذا فالمطلوب إذن هو طبيب ذو مواصفات خاصة : فنان ، ومجنون سابق استطاع النجاة . . . فمثل هذا الانسان يستطيع أن يفهم الى حد ما، ما يدور داخل « مكسور النفس » ، إذ سبق له أن عرف هذه التجربة أكثر من سواه . . ودكتور لينغ يرى في دراسة مذكرات الذين أصيبوا بالجنون خلال غوصهم التدريجي في ظلام المجهول وثيقة هامة . . وفي الكتاب نماذج منها .

أوقفوا هذا العصر المسعور

يختم الدكتور لينغ نظريته بهجوم شديد على العصر . . . ويحمّل الإلحاد بيقين

المسؤ ولية كلها . . .

فالبشرية تمر الآن بهزة فكرية إنسانية لم تعرف لها مثيلاً : هي الإلحاد . . . والحاجة الى يقين .

يقول ان الانسان وجد فكرة الله في داخله منذ البداية . انه لم يخترعها بدليل انها كانت أول شيء عبر عنه قبل أي اختراع آخر أو أية معرفة . . اكتشفه مع اكتشافه لحاجاته الاساسية : الاكل . الجنس . . . وغيرها . . . وعلى طول تاريخه الأول كانت مواضيع خلاف الناس حول اليقين تعود الى صورة تمثيله ، في بقرة ، أو شمس ، أو طير أو صاعقة . . .

ثم حدث تطور آخر . . . تم توحيد الآلهة الكثيرة في إله واحد عن طريق الديانات ، الأمر الذي يعطي الناس اسباباً أكثر للتعاون واللقاء والاخاء . . .

أما عصرنا الحالي ، عصر الآلة والحروب العالمية والمادة ، فقد جاء بالالحاد ، ومؤ سساته وأنظمته لا تضع في اعتبارها أن الانسان حيوان مؤ من بيقين ما ، وانما تحاول تصنيع المجتمع الانساني . . وهو يستشهد بقول ايفان في الاخوة كرامازوف : « اذا كان الله غير موجود ، يصبح أي شيء مسموحاً ! » وهكذا ، فقد اختل شيء داخل الانسان ، لأن قالب المجتمعات الحديثة لا يأخذ بعين الاعتبار أهم حاجاته الاولية والاساسية : الثورة من أجل يقين ما .

والرب بمفهوم الدكتور لينغ ليس بالضرورة تقليدياً ، انه الحب والقيم والمثل والطمأنينة أيضاً . . وعصرنا سرق الله من الانسان الأوربي دون أن يمنحه أي بديل . . .

لذا ، فهو يعتقد ان « مكسور النفس » هو الذي يبحر بحثاً عن يقين داخل ذاته (القيم والمثل والحب والحقيقة) ولأن الانسان ما يزال طفلاً يحبو في مجاهل النفس وأسرارها ، وليست لديه تجارب حقيقية أو خبرة بها ، لذا فالكثيرون في أوربا يضيعون . . .

من أجمل ما في الكتاب هو امتزاج الشعر بالعلم ، حينما يسأل الدكتور لينغ : لا نستطيع أن نعرف ماذا يحدث للإنسان بعد الموت ، لأن أحداً لم يعدْ ليخبرنا ، ولان الذين يموتون يكفون نهائياً عن أي سلوك خارجي (الحركة . الكلام) لحظة الموت ، وفوراً . . . ولذا نسميها لحظة « الرحيل » . الرحيل بمعانيه كلها الى مواجهة حقيقة الوجود .

والمجنون ، أليس أيضاً إنساناً رحل تقريباً عن عالمنا ؟

ترى إلى أين يرحل ؟

وماذا يجد هناك ؟ تراه يصبح قريباً من (الحقيقة) ، الى حد الاستغراق فيها واحتقار عالمنا ؟ . . . أليس ممكنا أن يكون المجنون إنساناً اكتشف بعضاً من حقائق الوجود ؟ بهذا المفهوم ، الميت يبصر الحقيقة كاملة ، والمجنون هو نصف مبصر في عالمنا نحن العميان . . . .

إذن فالمجانين هم « رواد » الحقيقة المدفونة في أعماق النفس البشرية ، هم « رواد » عالم الروح ، ونحن بحاجة اليهم أكثر من حاجتنا الى « رواد الفضاء » . . إنهم كهنة النفس البشرية . . ولذا ، اذا استطعنا اقناعهم بالعودة إلى عالمنا ، وقبولهم بالحوار العتيق معنا ، فقد يكون لديهم الكثير من الأسرار التي تهدينا الى يقين ما . . وهكذا ، فالمجنون الذي يعود الينا ليمنحنا تجربته ، هو كنصف المبصر الذي يقود أعمى في مجاهل الحقيقة الانسانية .

مفاجأة الكتاب .

بعد هذا كله ، يطلع علينا الدكتور لينغ بفصل طويل من مذكرات إنسان مجنون ، هو نفسه الذي كتبها (!) واسماها رحلة الايام العشرة ، ويقول إن مجنوناً يدعى (جيس واتكينز) أملاها عليه . . . وهو أيضا يحدثنا عن تاريخ حياته ، ومع ذلك يداخل القارىء إحساس غامض بأن الدكتور لينغ هو (جيس واتكينز) بقدر ما كان (الدكتور جيكل) هو (مستر هايد) . . . ولكن مفاجأة الكتاب هي الفصل الأخير الذي كتبه الدكتور لينغ وأسماه « عصفور الجنة » . . . وهو نثر شعري على جانب كبير من العمق والجمال .

والكتاب يؤكد حقيقة رائعة : إن الدكتور لينغ قام برحلة أو بعض رحلة إلى مغاور النفس البشرية . . . وان رحلته تلك كفنان وكإنسان هي مصدر وحيه كطبيب ! وانه بلغة الطب « مكسور النفس » وبلغة المجتمع « مجنون » سابق متقاعد ! . .

ولا أستطيع أن أمر بها دون أن اترجم بعضها ، لأن فيها نكهة خاصة عجيبة . . . فيها تفكك من حيث (المنطق) التقليدي ، انها مزيج مما يمكن أن يقوله فنان ومجنون (بمنطقنا) كأنه يريد أن يشير الى انهما شيء واحد . . والمجنون هو ربما الذي يعرف أكثر ، وهو لذلك يتحدث أقل . . .

يقول الدكتور لينغ : « رجلان جلسا ، أحدهما يواجه الآخر ، وكلاهما أنا . بهدوء ، بدقة ، بانتظام ، يطلق كل منهما النار على رأس الآخر . يبدوان منسجمين . التلف في الداخل . » واخترت من مكان آخر هذا المقطع للترجمة ، وأنوه بأن الترجمة تفسد الكثير من شاعريته .

« ايها القلب المذهول ، أيها القلب المحب الذي لم يحبه احد ، يا قلب عالم مجرد من القلب ، يا قلب عالم يحتضر .

نلعب لعبة الحقيقة بأوراق لعب (كوتشينة) وهمية يحملها كل في يده .

جسد تحلل ، تمزق نتفاً ، صار تراباً مسحوقاً ، اضلاع تتوجع ، قلب ضاع ، عظام تكلست ، أفرغ الدوار في الغبار . . أريد أن أتقيأ رئتي ، الدم في كل مكان ، والمناشف ، والعضلات ، والعظام ، كلها مسعور ومتشنج .

خارج هذا كله كل شيء هادىء ، ساكن ، كما كان أبداً . نوم . موت . ولكنني أبدو في حالة جيدة .

ذلك الصمت المسعور يخمش ويتحرك في الليل . ماذا لو مزقت شعري وركضت عارياً معولاً في ليل الضواحي ؟ سوف أوقظ بعض الناس المتعبين ، وسأعرض نفسي لخطر ادخالي في مستشفى أمراض عقلية . ما جدوى ذلك » . .

والذي يلفت النظر انه صدّر لخواطره بقول المسيح :

« حينما تجعلون الإثنين واحداً وحينما تجعلون ما بداخلكم كالذي تبدونه والذي تبدونه كالذي تخفونه . . .

حينئذ تدخلون ملكوت السموات » .

الجديد : انه قديم جداً !

أبتعد عن جو الكتاب الذكي المشوق المثير في محاولة حيادية لتقويم ما جاء فيه ، وبعيداً عن مفاجأة الكتاب المثيرة : ان هذا الطبيب الكبير مصاب بانفصام الشخصية كما هو واضح في كتاباته !

إن نظرة هذا الطبيب الى (الجنون) من حيث الاهتمام بالعامل النفسي قبل المرض الجسدي ليست جديدة . . وقد وعاها الأدب منذ أقدم العصور وبشكل خاص الدراما اليونانية . .

ثم إن فكرة احتراق الانسان بنار المعرفة ، التي أورد (المجنون) كمثال لها ، ليست إلا تطبيقاً لاسطورة (بروميثيوس) . . . واذا كان الاقدمون قد جاءوا بحكمتهم « العقل السليم في الجسم السليم » ، فان الدكتور لينغ قد طور هذ النظرة الى : كيف يكون عقل الافراد سليماً إذا كان جسد المجتمع مريضاً ؟ . .

والثورة على عالم المادة ، والدعوة للعودة الى عالم جديد نبدع يقينه هي دعوة الثوار في كل مكان .

وفكرة اعتبار المجنون ، العاقل الوحيد ليست جديدة . . .

وفكرة اتخاذ (المجنون) تعبيراً صادقاً عفوياً وبلا اقنعة ، تعبيراً غامضاً عن حقائق يعرفها وحده (ولأنه يعرفها فهو يتصرف بطريقة مغايرة) ، هذه الفكرة صارت شبه موضة في الادب الحديث . .

وهنالك كاتبة اميركية جيدة لا تكتب إلا عن الاطفال أو المجانين لأنها تعتقد انهم وحدهم يحملون الحقيقة الانسانية . . أما باقي الناس فهم أدوات اجتماعية لا تستحق الفضول ، ولا ينم سلوكها عن حقيقتها .

لعل أبرز الأمثلة على ذلك « مجنون فولكنر » في روايته الصخب والعنف . . كان بكاؤه وشهيقه المتواصل ، يرمزان بحدّة الى انه وحده يعي ويعرف أية مأساة هي الحياة حوله .

ما هو جديد الدكتور لينغ إذن ما دامت صرخته تلك واحدة من صرخات الاحتجاج على عصر المجتمعات الاستهلاكية ، وباللجوء الى عالم القيم المنسية ؟ . .

الجديد ، انه تبنى نظرته كأديب في نطاق عمله كطبيب ، وأنه ليس مفكراً حالماً ، وإنما هو أيضاً عالم منفذ . . . إنه « ثائر » بطريقة ما .

واذا كان الاديب يكتفي بابداء نظرته الى الوجود ، فان العالم قادر على التبديل عملياً . . أهميته هو في هذا التزاوج بين الفكر والعمل الذي خرج به علينا . . . كالثوار . .

الأديب اكتفى بالشهادة ، بإعلان مفهومه الخاص للمجنون ، لكن الدكتور لينغ يطبق هذه النظرة على الاحصاءات والحقائق العلمية ويطالب بنسف أسلوب الطب النفسي التقليدي من أساسه ، ويطالب بتطوير وسائل المداواة على هدي تشخيص الاديب والفنان .

ثم إن الدكتور لينغ قد أعاد للجنون (انسانيته) . . فقد نسف المبالغات (الفرويدية) حيث اعتمد فرويد يومها الجنس كتفسير أساسي ووحيد للسلوك البشري وأمراضه من جنون وفن وغيرها . . . .

لقد حول المجنون من (مكبوت جنسياً) الى (مكبوت انسانياً) ، و (مكبوت ثورياً) ، وجعل منه كاهناً أعلى للوجود . .

من يدري ، وقد يأتي اليوم الذي تصبح فيه كلمة (عاقل) شتيمة لا تغتفر ، ويطال القانون صاحبها في بند القدح والذم !

٢٤/ ١٠/ ٦٩

زيارة الى مستشفى (العقلاء) !

تلفتت حولي .

لم أجد لافتة مرسوماً عليها جمجمة وعظمتين تحذر من (خطر الموت) .

لم أجد لوحة تقول : ممنوع الدخول .

لا شيء يشير الى أنني وصلت « مستشفى المجانين » حيث قررت أن أقضي اجازتي لهذا الاسبوع ! . .

لم أجد أمامي سوى لوحة ريفية تفيض الوداعة من كل شيء فيها . . .

رجال . شمس . حقول . بهدوء يعملون . (لعلي ضللت طريقي الى المصح) . تقدمت من الرجال لأسأل . لم أدر ماذا أسأل . تذكرت كلمات الطبيب النفساني - الصديق الفنان الذي ساعدني على تحقيق اجازتي الأمنية (احذري رجلاً مثقفاً ، قوي البنية ، يبدو احياناً في هدوء الاطباء . . لكنه حينما يثور يصبح عنيفاً حتى القتل !) . . وأنا أقترب من الرجال لأسأل ، لاحظت أن هذا الوصف ينطبق على اكثرهم . . . وأنهم أشبه بعمال في مزرعة . . . (لا ريب في أنني ضللت الطريق . لعلي المجنونة الوحيدة هنا) . التفت بعضهم حولي بفضول . . هنا فقط لاحظت شيئاً مشتركاً في العيون كلها ، دخيلاً على اللوحة المشرقة التي طالعتني للوهلة الاولى .

بريق غير عادي مثل دمعة معلقة في العين لا تنحدر منها ولا تجف .

بريق لوثة ؟ . . لا . أفضل أن أسميه بريق حزن . في عيون الرجال كلهم حزن عميق طفل . حزن . حزن . حزن هو في أحد الوجوه يتحدى . في وجه آخر يرفض . في وجه آخر يسخر . يتوسل . لا يبالي . يثور . يستكين . ولكنه حزن إنساني . تأكدت أني (هناك) . ازداد عدد الرجال الذين تركوا عملهم والتفوا حولي . كانت أول مرة في حياتي أتوسط فيها حلقة من المجانين (وأنا اعرف ذلك !) . لم أخف . لماذا أخاف ؟

(ربما على الداخل الى « الهورس شو » أو « الويمبي » أو بقية مقاهي « المثقفين » أو حتى الى مقر عمله ، أن يخاف ألف مرة ، أكثر من الداخل إلى مصح عقلي . فهو هنا ، يرى

على الاقل ردود فعل المحيطين به حقيقية وصادقة . لا تملق . لازيف . . لا همس تحت الطاولات) . .

اخترت من الوجوه المحيطة بي وجهاً هادئاً ، لشاب ، بدا لي للوهلة الأولى ممرضاً أو عابر سبيل وليس « منهم » فسألته : هل أنت الاستاذ عاطف ؟

ـ لا . أنا احسان . عاطف هناك . وأشار بيده الى شاب آخر يقف في الممشى الأخير من مدخل الحديقة . . .

وانزلقت من الحلقة البشرية الملتفة حولي ، نحو الشاب فارع القامة المشرف على أحد اقسام المستشفى .

رآني . هرع الى لقائي . قال : إن الطبيب الصديق اتصل به وأبلغه نبأ زيارتي . سلمته رسالة الطبيب ، وفيها أسماء (النماذج) المختلفة التي سأقابلها . . . وتعليماته . . .

غرفـــة التحقيـق

في البداية ، نفذت تعليمات الطبيب الصديق بدقة . قادني عاطف بسرعة الى غرفة مكتبه . . . بدأ فوراً ينادي المرضى الذين اقترح الطبيب أن أتحدث إليهم كنماذج مختلفة (للشيزوفرانيا) أو « انفصام الشخصية » وفقا للترجمة العربية الشائعة . .

وفيما يلي سأنقل حرفياً ما دار بيني وبينهم من حوار :

نادى المريض (افضل عبارة الاستاذ أو الاخ بدلا من عبارة المريض لأنني لم أشعر شخصياً بأنني قابلت أشخاصاً يختلفون عن الذين أقابلهم يوميا في كل مكان . . . المقهى والشارع والسوق وحتى دار المجلة التي أعمل بها !) . . .

نادى على الاستاذ ع . ش . فدخل رجل متوسط القامة رصين الملامح يقترب من الخامسة والاربعين أو الخمسين ويميل الى النحول . . . كان هادئاً ، وبدا عليه السرور لأن هنالك من يسأل عنه ، وكان متحمساً للحوار مع إنسان ما . . . مع أي إنسان . . .

كانت المرة الاولى في حياتي التي اتحدث فيها مع شخص من المفروض انه (مجنون) ! وأنا أعرف ذلك . لم أدر ماذا أقول له . لم تكن تبدو عليه أية عوارض ، تختلف عما أراه في هيئات وسلوك الناس الذين أراهم كل يوم . . ربما لذلك وجدتني أسأله ببساطة : ماذا تعمل ؟ ولماذا أنت هنا ؟ . .

ـ كنت موظفاً بالحكومة ، أحياناً تحدث لي (نوبة) ويحضرونني الى هنا .

ـ موظف بالحكومة ؟ من الطبيعي أن تنتابك (النوبات). المريض هو موظف الحكومة الذي لا يصاب بنوبة هذه الايام ! (بالمناسبة ، مع اولئك الذين من المفروض انهم

« مجانين » يجد الانسان نفسه منساقاً الى أن يقول الصدق ، الصدق الذي يحسه وليس الذي يفترض أن يقوله) . . .

رد عليّ :

ـ مصائب ولا مفر من أن تقع ! . .

ـ على ذكر المصائب ، هل أنت متزوج ؟ لم يجب . لم يبد عليه أنه يوافق على ما أقول ، ولكنه ليس مبالياً بما يكفي ليصحح لي نظرتي . . ربما هو أيضاً لا يدري بالضبط لماذا لم يعجبه تهجمي على الحياة الزوجية (أما أنا فقد عرفت فيما بعد !) وعدت أسأله : ماذا تحب ؟

ـ احب الحياة .

ـ ما هي الحياة ؟

ـ هي أن تعيشي سعيدة . . .

ـ وما هي السعادة ؟

ـ هي أن تحققي ما تطمحين اليه . يتدخل الاخ عاطف في الحديث ويسأله : ألا يمكن للسعادة أن تأتي عفوا ؟ رد الاستاذ غ . ش : ذلك لا يمكن أبداً .

ـ واذا أمكن ، هل تقبل بها ؟ . .

ـ كنت سعيداً أيام كنت حراً ، قادراً على الرحيل والتجول . . . لقد طفت العالم . . . قضيت أياماً طويلة أتجول من مدينة الى اخرى . . . أما الآن ، فأنا محجوز وحريتي الشخصية مفقودة . .

ـ هل هنالك ما تنتظره ؟

ـ أخي . . انتظر زيارة أخي . . . إنه لم يأت منذ شهرين .

ونهض فجأة ، والتفت الى عاطف قائلا :

أريد أن أستعمل الهاتف .

ـ لماذا ؟

ـ لأهتف لأخي كي يأتي . . أو ابنة اخي . .

بلباقة رد عاطف :

ـ الهاتف في الغرفة المجاورة . اذهب واستعمله .

وخرج الرجل . . .

وسألت عاطف : إنه طبيعي جداً . أعني مثلي ومثلك . لماذا هو هنا ؟ . .

وعدت الى رسالة الطبيب ، فقرأت مزيداً من التفاصيل عن هذا الكهل الضائع ، الذي غادر الغرفة للتو بحثاً عن هاتف يصرخ عبر سماعته - ربما المقطوعة الاسلاك - لينادي أخاً ربما لا وقت لديه ليسمعه ، وربما هو غير موجود ، وإنما هو رمز العالم الخارجي الذي نسيه . . والعاطفة التي يفتقدها . . يقول الطب : الرجل مصاب « ببارانويد سيكزوفرانيا » أي (جنون العظمة) .

يعتقد انه مخترع ، وأن أحداً لم يول اختراعه الاهتمام الكافي . . . (أليس ذلك ممكناً ، أعني أن لا يكون أحد قد أولى اختراعه الاهتمام الكافي ؟ ها نحن امام كهل ، يواجه الخمسين وحيداً بلا أسرة ربما لذلك لم تعجبه سخريتي من الزواج ، متهماً بالجنون ، أي انه تحت المراقبة الدائمة . . . الا يمكن لأي منا في ظروف كهذه أن يتصرف مثله ؟) . .

وعدت اسأل عاطف بحسرة : إنه طبيعي جداً ، اعني انه مثلي ومثلك . . . لماذا هو هنا ؟

- . . . . . .

- إنه مثلنا . . . ولكنهم اكتشفوا ذلك فألقوا القبض عليه . . . إذن الفرق بين العاقل والمجنون هو عجز المجنون عن ارتداء الاقنعة . .

- . . . . . .

- والكاتب هو انسان يرفض (غالباً وليس دائماً) ارتداء الاقنعة . .

- . . . . . .

- ولذلك فان نصف الكتاب والفنانين متهمون بالجنون ، ونصفهم الآخر حل نزيلاً في أحد المستشفيات العقلية في فترة ما من حياته .

- . . . . . .

- نيتشه قضى ١٢ سنة في مصح عقلي ومات فيه . . وهولدرلن استمر جنونه أكثر من ٣٠ عاماً .

- . . . . . .

- وجيمس جويس كان مصاباً بالشيزوفرانيا . . و « إزرا باوند » كان مصاباً بالسكيزوفرانيا . . وغي دي موباسان أيضاً . وبودلير وفان كوخ عاشا في المصحات العقلية أكثر مما عاشا في الحانات . . وكافكا و . . بهدوء قاطعني الأخ « عاطف » : انهم مثلنا تماماً . . ولكن . . ولأنه عند هذه الـ (ولكن) يجب أن نقف وأن نعيد النظر ،

كففت عن حواري مع نفسي بصوت مرتفع . . ونادى « عاطف » على الشخص التالي :
الاستاذ ج . ص .

مزاج بريطاني !! . .

دخل رجل طريف المظهر ، يرتدي قميصاً رياضياً أبيض ، وبين شفتيه بقايا لفافة نصف منطفئة . . وربما هي غير مشتعلة . . ما الفرق ؟ . ربما كان ذلك أسلوبه في الكف عن عادة التدخين !! . .

(يظل . . ذلك أفضل من تناول السوائل التي تجعل طعم الدخان كريهاً في محاولة الامتناع عن التدخين) . . اسم الرجل لا يهم . لنفترض انه جورج . المهم انه يسمي نفسه جورجيت ! واذا نادوه جوزف مثلا فهو يصر على ان اسمه جوزفين . صافحت يده الخشنة وأنا أقول : أهلا جوزفين ، كيف تشعرين هذه الايام . (اكتفت) بأن هزت برأسها . . وماذا تعملين ؟

يرد بل ترد جوزفين بصوت أجش صريح : « أعمل في تجارة الاوساخ » !! . . (كثيرون يعملون في تجارة الاوساخ ولكنهم لا يعترفون . جوزفين على الأقل يعترف ! . . لو كان جوزفين في لندن ، لارتدى الاقراط والثياب المزركشة ولمارس جنونه تحت حماية القانون الانكليزي الجديد . . لكن جوزفين هنا افتضح أمره ، إذن جوزفين مجنون . . يا لرعبي ! كم هي نسبية تلك الكلمات : الاخلاق . السلوك . الجنون . الزوج في الاسكيمو الذي لا يقدم زوجته لضيفه لتنام معه هو رجل خارج عن سلوك وتقاليد مجتمعه . أي مجنون) ! . .

وتركت جورجيت أو جوزفين أو أسموه كما شئتم يتابع عمله في « تجارة الاوساخ » معترفاً على الاقل بما يفعل . .

نيل أرمسترونغ لبناني

واسأل « عاطف » : الكل هادىء وطيب . .

ـ ولكنهم احياناً يصابون بنوبة هياج . .

(من منا لا يصاب بنوبة هياج ؟ لو راقب كل انسان سلوكه ، بالدقة نفسها التي يراقب بها سلوك المجانين ، لتأكد له انه يتصرف مثلهم أحياناً هو أيضاً . .

من منا لا تمر به لحظات يشعر خلالها بأنه يكاد يقدم على جريمة قتل) ؟ . .

نادى عاطف على (استاذ) كل مرضه هو انه يريد الصعود الى القمر . إنه مجنون

بالقمر ! . . وعاجز عن النطق الواضح كأن رغبته في الذهاب الى هناك قد لجمت لسانه . .

مجنون ؟ ربما الآن صار مجنوناً . ربما لو كان في مجتمع متطور تكنولوجياً ، لوجد ما يستوعب رغبته في الصعود الى القمر ، وتحويلها من رغبة مستحيلة تثير جنونه الى رغبة ممكنة تثير جنون العالم لدى تحقيقها . . وطلبت منه أن يرسمني . .

رسمني في كاريكاتور حزين تجريدي كأي كاريكاتور يتفضل برسمه لي احد الفنانين في المقهى . . ولا ينسى أن يمهره بتوقيعه الكريم للذكرى والتاريخ والخلود . . وارمسترونغ اللبناني لم يمهر رسمه بتوقيعه . . ربما لأنه متواضع ، وربما لأنه رجل أضاع هويته واسمه وتوقيعه ، لكنه يعترف بذلك على الاقل !

الطفل المواطن . . اليتيم

يدخل شاب دون ان يناديه عاطف ، يفيض طفولة وبشراً . اسمه (ي . س) . . ولنسمه ياسين مثلا . .

الطب يسميه (ريتاردد منتاليتي) أي مصاب « بالتخلف العقلي » . . عمره العقلي عشر سنوات (ترى كم هو العمر العقلي لمجلس يخطط للحرب والدمار من « اذكياء » العالم) ؟ . .

ـ ياسين ، كم عمرك . .

ـ عشر سنوات . .

ـ ماذا تحب ؟

ـ الاشجار ، وهدى ، وانت ! . .

ـ لماذا تحب الاشجار ؟

ـ لانها تحبني وتتحدث إليَّ .

ـ وهدى ؟

ـ لانها حبيبتي .

ـ وأنا ؟

ويخفي وجهه خجلا كالاطفال ، ويهمس في اذن عاطف لماذا يحبني ! . .

فقير ، ينطق بصعوبة . . ضحكاته تشبه البكاء تمتزج بكلماته ، فتستحيل أحياناً الى ما يشبه النواح الغامض والغمغمة غير الواضحة . . شيء ما فيه ، ذكرني بمجنون فولكنر ، ذلك الأخ الأصغر الأخرس في رواية (الصوت والغضب) والذي كان يطلق من

آن الى آخر في الليل صرخات ضحك باك كأنه يبكي الوجود ويحتج على الهول والقرف اللذين يغطيان سحنة العالم . . بكل بساطة لم يعد لياسين أي مطلب سوى أن أرحل معه . . ووعدته بذلك كي أتابع اجازتي بسلام (يا لي من عاقلة ، أي مزيفة . كذبت عليه ووعدته بالرحيل . وصدقني لانه لا يعرف الكذب) ! واكتفى بملازمتي كظلي ، بانتظار لحظة الرحيل . .

الطمأنينة . . . والتجوال

من جديد تذكرت تحذير الطبيب لي من (شاب هادىء المظهر ، مثقف جداً ، يستحيل أحياناً عنيفاً حتى الجريمة) . . وقبل أن اسأل « عاطف » عنه ، أطلّ على الغرفة الشاب الوديع ، الذي كنت قد سألته عن عاطف ، وكان أول من حدثته في الحديقة ، ناديته : احسان . . تعال . . اجلس أمامي . اريد أن اتحدث اليك . .

ـ لا مانع لدي من ذلك . . ولكن ، لماذا تكتبين وتتحدثين في آن واحد ؟ (كنت أسجل ما يدور كما يفعل أي صحفي . كم هو على حق في ملاحظته . لقد لخص ببساطة وصدق الرجفة التي تعتري « المثقفين العقلاء » عادة امام الكاميرا أو الصحافة) . . انفجرت اضحك . .

قلت له : أتحدث وأكتب في آن واحد لانني مجنونة . .

ـ هذا لا يكفي ليثبت جنونك . . ثم ، ما هو الجنون يا سيدتي ؟ .

والتفتت الى عاطف لأسأله هل احسان مريض أم زائر أم ممرض . قال عاطف : الفرق ليس كبيراً على أية حال !! . .

كان قد نادى شخصاً يدعى أ . هـ . . وجهه عادي لولا حزن يطل عادة من عيون الشعراء المتجولين . ربما لذلك اندفعت اسأله :

ـ لماذا نعيش ؟

ـ كي نموت .

ـ لماذا نموت ؟

ـ كي نفسح مكانا لسوانا ! . . هذا كل ما في الأمر . .

(بالمناسبة ، عبارته الاخيرة هذه هي خير ما يلخص القصة القصيرة التي فازت بالجائزة الاولى لأكبر مسابقة أدبية في باريس للعام الماضي) ! . .

يعلق عاطف : خذوا الحكمة من أفواه المجانين . إنه قول صحيح ! . . لا أحد يدري كم هو صحيح الا حينما يعايشهم ! . . بدا لي عاطف مسروراً بعمله هذا . .

سعيداً بمعايشتهم . . وأنا أيضاً . . احسست براحة عجيبة . . (لم أشعر بحاجة الى ابتلاع احد اقراصي المهدئة كما أفعل عادة وأنا في صحبة العقلاء) ! . .

وقررت أن اغادر الغرفة ، وأن أتجول في المصح . . كنت قد امتلأت حساً بالالفة والطمأنينة . .

أمام باب الغرفة انضم اليَّ موكب من (الرفاق) الذين سبق وتحدثت اليهم . . وبعد أن التقطنا الصور التذكارية لاجازتي السعيدة معهم ، تابعت جولتي في المصح يرافقني وفد منهم .

وبينما كنا نسير في حدائق المصح وممراته وحقوله ، كان الحوار يدور بيننا جميعاً والضحك يمزق أسطورة العزلة والغربة . .

ـ احسان ، ما هو مطلبك في الحياة ؟ .

ـ العدالة . . والسلام العالمي . .

ـ وماذا تفعل لتحقيق ذلك ؟ . . انه مطلب صعب . . رد علي حرفيا : « وهل يسعد الناس إلا في تشوقهم الى المنبع ، فان صاروا فيه فتروا » . . على رأي جبران ! . .

ـ هل تكتب ؟

ـ أجل .

ـ هل أنت مسلم ؟

ـ المسلم من سلم الناس من قلبه ويده ولسانه ! . .

واسأل شاباً آخر (ط) : وانت ، هل تابعت دراستك ؟

ـ لا . . تخرجت من الحضانة الى التقاعد !! . . . وانفجر البعض ضاحكاً . ولكن لم يبد على إحسان انه مسرور بانخفاض مستوى الحديث الى (الحضانة) ، وعاد الى (رفعه) بصوته الهادىء ولهجته المتزنة : أجل ، اكتب من وقت الى آخر ، وبودي أن اطلعك على ما لا امزقه من بعض نتاجي . .

ـ يبدو انك تفكر كثيراً . .

ـ التفكير كالنهر . . اذا طغى يهدم البنيان . . وأنا لذلك اتحاشى مزيداً من التفكير . .

ـ هل وجدت تفسيراً للوجود ؟

ـ يبدو ان هنالك اسئلة تستحيل الاجابة النهائية عليها ، مثل : من أين ، والى اين . .

ـ هل تؤمن بالله ؟

ـ اجل ! اؤمن بوحدة الوجود ، وبالتقمص الذي هو عملية ارتقاء الروح ! .

ـ أي روح ترتقي ؟

ـ لقد أفلح من زكاها ، وقد خاب من . .

يتابع وحده : لقد جربت الملذات الحسية كلها عبثاً ، فاكتشفت ان السعادة عبر « الابيقورية » محاولة فاشلة ! . .

ـ هل تخاف الموت ؟

قال بالحرف الواحد : **احب الموت كما يحب الطفل حليب أمه !!** . .

ولذا حاولت الانتحار مرتين من قبل . .

ـ واليوم ؟

ظل صامتا . ربما كان يعني « الصمت » الحقيقي . . (بيكيت ، المسرحي الكبير ، صار خالداً لأنه جسد هذا الموقف في مسرحياته) !

الجنـون العاقـل

وتابعنا طريقنا الى المبنى الرئيسي للمصح الذي يضم ١٥٥ « مجنونا » . قابلت بعضهم ولم أجد بينهم « مجنونا » واحداً بالمفهوم (التقليدي) للكلمة . .

وهنا تقضي الامانة العلمية أن أذكر لقارئي ان زيارتي هذه كانت الى مصح عقلي يضم بصورة خاصة حالات من الجنون تدعى (بالشيزوفرانيا) ومشتقاتها . .

ومجنون (الشيزوفرانيا) ليس بالضرورة مصاباً بمرض فيزيولوجي في الدماغ أو الاعصاب . . على الاقل في مراحل المرض الاولى (انه كالمرشح للمرض بالقرحة ، يحس بعوارضها المؤلمة تشتد كلما اشتدت أزماته النفسية ، ولكن دون أن يكون لديه أي مرض عضوي في المعدة . . ومع الزمن ، تنقلب الأزمات النفسية الى مرض عضوي مزمن لا يشفى) . .

بعبارة اخرى ، مجنون (الشيزوفرانيا) ليس مجنونا بدليل مادي ، كعارض جسدي دماغي مثلا ، **وإنما هو مجنون بدليل اختلاف سلوكه عن سلوكنا ! مجنون لأننا نعتقد أنه مجنون !** . . ولعل العودة الى الاصل اليوناني لكلمة (شيزوفرانيا = سكيزوفرانيا = (سكيزو + فرانيا) معناها : (مكسور النفس) أو (مكسور القلب) ما يعبر عن حقيقة حالته أكثر من كلمة (مجنون) العامة الشاملة التي اعتدنا إطلاقها باستخفاف على كل ما يخالف سلوكه الخارجي سلوكنا الاجتماعي المتعارف عليه . .

ولكن ، هل إطلاق لقب (مجنون) على انه تسمية (الاكثرية) ، للأقلية التي يختلف سلوكها عن سلوك الاكثرية ، هل يعني ذلك بالضرورة أن المجنون (مريض فاقد لقواه العقلية) لمجرد أنه ينتمي الى الاقلية المختلفة ؟

الاكثرية مثلا هي التي أمرت رجلا بقتل ملايين البشر بضغطة زر واحدة في هيروشيما (قائد الطائرة الذي أصيب بالجنون فيما بعد) ! . . ترى من كان على حق ؟ قرار الاكثرية غير الانساني ممثلا في قيادة دولته يومها ، أم محكمته الداخلية الذاتية التي دفعت به الى رفض مجتمعه ، ذلك المجتمع الذي دفع به الى الجريمة تحت لقب (الواجب) ، فكان رفضه لمجتمعه ما نسميه عادة (الجنون) ؟ ألا يمكن أن يكون جنون انفصام الشخصية هو احتجاج الاقلية المرهفة الحس والوجدان الانساني ، ضد الاكثرية التي غاب عنها صوت الذات الانسانية تحت أكداس الاصوات المتوارثة ، من قيم سائدة ، ومفاهيم مكرسة ، مرفوض سلفاً إعادة النظر بها ؟ . . صرخة احتجاج تتخذ احياناً صورة الهجرة عن الناس ، وعن عالمهم . .

ثم إن المرض العقلي ليس مرضاً جرثومياً نستطيع ان نرى جراثيمه تحت المجهر . . وهكذا فان من اختصاص الادب والفن وحامل القلم بحث أمر (المريض العقلي) ربما أكثر مما هو من اختصاص حامل المجهر . . أو لنقل : هو من اختصاص قلب يحمل مجهراً ! . .

ربما لذلك ، كان موقف الادب المبدع من المجنون يختلف عن موقف (العامة) الخاطىء . . مجنون شكسبير الشهير (هاملت) ليس مجنوناً ، وإنما شخصية مرهفة شاعرية مأساوية (فصامية) . .

الكاتب المسرحي المصري توفيق الحكيم يحدثنا عن رؤ ياه للجنون و(المجانين) عبر مجهر قلبه كما وصفها في احدى مسرحياته الرائعة التي تتحدث عن مملكة يجري فيها نهر . . كل من يشرب من هذا النهر يصاب بالجنون . . ويشرب من نهر الجنون أهل المملكة كلها (الاكثرية) ولا يبقى سوى الملك ووزيره لم يشربا ولم يجنا بعد ! . . فهل يشربان من النهر ليصبحا جزءاً من (المنطق السائد ، منطق الاكثرية) الذي يحتكر لنفسه صفة العقل ، أم لا يشربان ، ويقبلان تهمة الجنون وما ينجم عنها من فقدان للسلطة والمغريات الدنيوية ؟ . . ويشرب الملك ، أم يرفض أن يشرب ؟ ويفضل لقب « مجنون » لأن حبه (للحقيقة) كان أكبر من حبه (للأمر الواقع) الخاطىء ؟ .

ترى أي الموقفين على صواب ؟ . . بالضبط ، أيهما أكثر حكمة ؟ . . وهل يمكن ان

نسمي (التنازل عن الصدق) حكمة في بعض الأحيان ؟ وهل من حقنا أن نسمي هجرة الأقلية الصادقة عن الاكثرية الكاذبة جنوناً ؟ . . نحو هذا المفهوم تتجه الدراسات الحديثة في الطب النفسي .

وقبل أن استرسل في معلقة ، قد يجدها البعض من باب (البيان والتبيين في وصف محاسن المجانين) ، أعود بقارئي الى حيث كنا نتابع طريقنا الى المبنى الرئيسي .

المجنـون الوحيـد !

أمام باب مبنى المستشفى الرئيسي وقفت مجموعة من الشبان . . وكنت قد نسيت كل شيء عن « الخوف من المجانين » الذي تربينا خطأً عليه (حينها كنا صغاراً مثلا ، كانـوا يخوفوننا بالغول والمجنون . ونشأنا على مشهد رجل مشعث يمر بزقـاق فـيرميه الاطفـال بالحصى صارخين : مجنون . . ثم تركض سيارة الاسعاف ، لتلمه عن الطريق بأسرع مما تلم سيارات البلدية النفايات . ويتم حجبـه نهـائياً عن المجتمـع ، كما لو كان (نفـاية بشرية) تم استهلاكها ويستحسن حمـاية النـاس منهـا . . ويتـم سجنـه في المصـح الى الابد) .

أجل ! كنت قد نسيت كل شيء عن الخوف . لكنني فجأة شعرت بالهلع ، وكدت اختبيء خلف عاطف أو احسان ، اذ فوجئت برجل يسد باب المستشفى بجسده ، ويحول دون دخولي ، ويتحدث بسرعة وقد احمر وجهه وانتفخت اوداجه ، ويشـير الى الـزميل « زهير سعادة » وكاميراه بغضب شديد . . ولو لم ألحظ انه كان يرتدي الروب الابيض الخاص بالاطـباء والممرضين لانطلقت هاربة ، إذ ظننته المجنون الذي حدثني الطبيب عنه وحذرني من نوبات غضبه . . فقد كانت الصفات كلها تنطبق عليه : كان وسيماً ، ومتوسط القامة قوي العضلات ، وكان في حالة هياج شديد . .

ثم تبين لي أنه أحد (العقلاء) القلائل في هذا المكان ـ العقلاء رسمياً ـ وانه مدير المبنى والمسؤ ول عنه ، وانه غاضب لأن التصوير ممنوع ، ودخول الغربـاء الى المهجـع الرئيسي ممنوع !! . . .

واعتـذرت منـه ، وأفهمتـه اننـي لن انشر الصـور إلا كما يقضي العـرف الطبـي والقانوني : أي بعد اخفاء ملامحهم .

وسألته عن أسمه . ولنسمه الأخ ممدوح . .

وهنا رحب بي بلطف وادخلني والوفد المرافق لي (وعلى رأسه احسـان) الى ردهـة المكان . . ومنها الى قاعة الطعام الرئيسية . .

وقررت أن أصارحه : أخ ممدوح . . أنت الوحيد الذي أخافني في هذا المكان ! أنت الوحيد الذي ظننته مجنوناً حقاً !! . .

وانفجرنا نضحك جميعاً . . . وعاد الحوار يدور مريحاً مرحاً ، مثقفاً تارة ، بسيطاً تارة اخرى ، عاطفياً كلما أصر ياسين على أن احقق وعدي له بالرحيل معه ، غريباً وغامضاً احياناً ، لكنه في أشد حالاته غموضاً لا يختلف عن الحوار الذي يدور بين أبطال مسرحيات بيكيت ويونسكو والمسرح الحديث (اللامعقول) .

الفقـر . . . والغربـــة

عبر الحوار لاحظت أمراً هاماً . اكثرهم إما فقير ، يعاني من طموح عجز عن تحقيقه أو وحيد في هذا العالـم الموحش ، لا أسرة تشـده الى التـراب ولا نظـام اجتماعياً عادلاً يقـوم مقامها . . .

والاحصاءات تدل على أن نسبة « المجانين » في البلدان التي حققت لافرادها ضماناً اجتماعياً عادلاً تنخفض انخفاضاً لا حد له بالنسبة لعدد المجانين في البلدان المتخلفـة أو الرأسمالية والمجتمعات الاستهلاكية . . .

في الولايات المتحدة ، هنـالك ٥ من كل عشرين شخصـاً يتـرددون على العيادات النفسية ، أو يمرون بمستشفى الامراض العقلية مرة أو أكثر في حياتهم ! . .

الوطـــــن

شاب يرتدي بزة عسكرية . ليس فيه ما ينبىء عن أي جنون ! . .

سألته عن اسمه قال : عكا .

وطنه : فلسطين . . . . قال لي إحســان ان صوتـه جميل . . سألتـه ان يغنـي لي ، فانطلق ينشد كلمات دمعـت لهـا أعـين بقية المرضى (فعـلاً) . . . كان قد حور الموال السوري الفلسطيني (يا ويل اللي ما يخاف ربه ، يتبغدد على اللي بيحبه) فصار :

« يا ويله اللي يضيِّع وطنه
ومـا يجـازي اللـي غـدره
صار لاجيء لا أرض ولا مـــال
ولا دار وخيمه يعـــد نجـــوم
في السما ، يشتهي النـــوم
يقضـي نهـــاره مهمـــوم
حامل الكارات واقف ينتظر اللقمة » .

وسألت عنه ، فعرفت انه قد شهد في طفولته مذابح دير ياسين ونجا منها بأعجوبة !! . . (ترى من المجنون ؟ هو الذي لا يستطيع أن ينسى ، أم هم الذين مؤهلات مهنتهم أن ينسوا !) . .

الجنون . . والوطن

سقط الليل وبدأت الاشياء تصبح أكثر حزناً ومرارة . . . بدأت الكلمات تصبح أكثر كثافة . . . ونبهني الزميل زهير سعادة الى أن (الجماعة تعبوا) ! فقررت أن أذهب . . .

وأنا أغادر المكان لحق بي شاب وخلع كنزته وطلب مني أن أهديها الى فدائي ! . . اختلطت الاشياء . . لم أعرف هل هو ممرض أو مجنون . . هل هو (منهم) أم (منا) . . . من يعايشهم يتأكد من أن الخيط الفاصل بين العقل والجنون أوهى من خيط الافق ! . .

وقبل أن أمضي شاكرة لعاطف وممدوح مساعدتهما ، لم أنس أن استفسر عن الشاب المثقف (العنيف احياناً) الذي حذرني الطبيب منه . . . ولماذا لم أقابله . .

وكدت اشهق حينما قال لي عاطف : انه إحسان ! مرافقك الخاص الذي اخترته !! . . . هو أعنف شاب في المكان .

وعرفت فيما بعد مأساة احسان المصاب بانفصام الشخصية : انه لبناني ، اراضيه في الارض المحتلة ، يتسلل الى هناك ، لحراستها في غارات ليلية فردية ، ينسى عنها كل شيء فيما بعد . . . انه رجلان : المثقف اليائس ، الانتحاري الشخصية . . . والعربي الغريب الممزق بلا أرض ولا هوية !! . .

الجريمة الحقيقية

وأنا أغادر المكان ، كانت صرخات ياسين تنطلق من احدى النوافذ كصرخات مجنون فولكنر ، وتمتزج بالليل الذي ربض بجسده الاسود الغامض فوق كل شيء . .

كان ياسين يبكي لانني وعدته بالرحيل معه ولم أفعل ! . . عذبني ذلك . (غداً لن يحب سوى الاشجار . سيكره هدى وسيكرهني لأننا عقلاء نحترف الكذب !) . .

مهجع « الكاف دي روا »

عدت الى بيروت . في احدى (عصفوريات) الروشة ، بالضبط في « الدولشي فيتا » ، حدثني الشاب عثمان الطبش (١٨ سنة ـ فلسفة) عن التجربة النادرة التي قام بها ورفاقه .

لقد قضوا ٢٢ يوماً في حقول المستشفى . وعملوا مع المجانين في الحقول . . .

قال لي : بعد أيام لم نعد نميز المريض عن الزائر عن المجنون عن رفاقنا . . . في الليل كنا نسهر معهم في المهاجع . . في أشد حالاتهم جنوناً وغناء ورقصاً كان المكان يصبح شبيهاً بـ « الكاف دي روا » ملهى نجوم المجتمع المخملي ببيروت !! . . هذا كل ما في الامر !! . .

التهاب (الزائدة)
والتهاب العقل

وبعد ، يبدو ان الانسان في عصر الفضاء ما يزال يعرف عن مغاور النفس البشرية أقل مما يعرفه عن مغاور القمر . . .

ويبدو أن إعادة النظر في مفهومنا (للمجانين) ، وأسلوبنا الوحشي في تعاملنا معهم ، بحاجة الى نسف أساسي . . .

المريض بالتهاب الزائدة الدودية يعلن عن ذلك ، فيهرع الناس اليه يعودونه بحنان ويهنئونه بالشفاء . . .

المريض بالتهاب في العقل (وكل ما في عالمنا يدفع بأي عاقل الى الإصابة بالتهاب في العقل) نسميه « مجنوناً » ونحرمه فوراً من حقوقه المدنية ، كما نحرم أي سجين . . بل وأقسى . .

قد يجد (السجين سابقاً) ، من يثق به ، يحبه ، يتزوج منه ، يوظفه ، أما المجنون سابقاً ، فإن ألصق الناس به من أفراد اسرته يدفعون به الى الجنون من جديد ـ دون قصد ـ لكثرة ما يرقبون سلوكه وتصرفاته وردود فعله . . .

وربما كان الجيل الجديد ، من أمثال عثمان الطبش ورفاقه ، أكثر قدرة على فهم مأساة (إحسان) ورفاقه . . . أليس في مخيمهم هذا إشارة الى أن رؤ يا الجيل الطالع « للمجانين » أكثر وضوحاً وانسانية من رؤ يا الاجيال الماضية . . .

ولأن عثمان سألني عن (احسان) بالذات أحسست ببعض الطمأنينة ، وبأن يوماً سيأتي وتصير فيه كلمات مثل (الجنون . الموت . القسوة) مجرد ذكريات لكوابيس عابرة مرت على سحنة الوجود الانساني ولطخته طيلة أجيال . . .

١٩٧٢/٥/٢٦

البيان والتبيين في وصف محاسن المجانين !

حينما تصير أيامنا تلاً من الزجاج المكسر ، علينا أن نزحف فوقه بصدورنا العارية ، ويصير أحباؤ نا طيوراً محنطة تتدلى من رقابنا ذكرى من الرعب ، ويصبح أصدقاؤ نا فزاعي طيور في حقول الذاكرة . . حينما يستحيل وجودنا كله الى شريان مقطوع معلـق في دنيا الآخرين اللامبالي ، شريان ينبض بشراسة مستسلمة ، ولا يدري حتام يطـول نزفـه ، حينئذ يلخص علم النفس القديم والحديث ذلك كله بقوله : أنت عصابي . . .

واذا كان علم النفس القديم يصف لذلك كله علاجاً أبرز ما فيه البعد عن الناس ، وهجر العمل ، والتخلي عن مسؤ وليات الحياة اليومية ، فان علم النفس الحديث يصرخ بالعصابيين : كن فخوراً بكونك (عصابياً) فليس في التـاريخ عبقـري واحـد لم يكن عصابياً ، المهم هو أن تتعلم كيف (توظف) هذا المرض ، وكيف تحوله من طاقة هدامة الى طاقة مبدعة .

وربما كانت ابرز هذه الصيحات وأهمها هي التي تضمنها كتاب « كن سعيداً لأنك عصابي » من تأليف أحد كبار علماء النفس المعاصرين البروفسور لويس بيش . . .

ليست مفاجأة لأي قارىء أن يعرف أن كتاب « كن سعيداً لأنك عصابي* » قد طبع ٢٧ طبعة ، وانه مترجـم الى السـويدية والاسبـانية والفـرنسية ، فالعصـابية هي مرض العصر ، وكل ما في عصرنا من حروب عالمية وهزات فكرية واضطربات في المعتقـدات والمرتكزات التقليدية ، وفقدان الايمان واليقين ، والتطور العلمي السريع والفقر وقسوة المجتمعات الاستهلاكية والطبقية البشعة والافتقار الى العدالة والحرية الحقيقية ، وعصر الآلة والتكنولوجيا ، وربما قريباً عصر السياحة في الفضاء ، هذه العوامل كلها زادت في اضطراب نفس الانسان وحيرته في متاهات الوجود . . .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فإن الكتاب بحد ذاته يعتبر دراسة أكاديمية قيمة ،

---

* كتاب « كن سعيداً لأنك عصابي » BE GLAD You're NEUROTIC
تأليف الدكتور لويس بيش Dr . LOUIS E. BISCH

عميقة وبسيطة اللغة في آن واحد ، تتضمن فهماً لا حد له لأحاسيس الإنسان العصابي . . ولا غلو في ذلك ، فان مؤلف الكتاب البروفسور العلاّمة ، مريض بالمرض الذي يتحدث عنه : العصابية . انه عصابي كبير ، استطاع أن يحول عذابه ، الى طاقة عملية منتجة ، وهو يروي لنا في هذا الكتاب تجربته الخاصة مع هذا المرض الذي لا شفاء منه ، بل والذي يجب أن يفخر المصاب به ، ويحرص عليه ويحذر من محاولة الشفاء منه ! . . وانما عليه تصعيده ، وتحويله الى طاقة تدمر قوى اللاعدالة واللاجمال في الوجود بدلاً من طاقة تدمر صاحبه . . .

والقارىء الذي تستهويه قراءة كتب علم النفس ، لا بد أن يلحظ أمراً طريفاً ورائع المدلول ، وهو أن أجمل وأعمق وأصدق ما كتب حول أمراض النفس ، هي كتب خطها أطباء، هم في الوقت نفسه مرضى نفسانياً ، ومرضى بالمرض الذي يتحدثون عنه ! . .

فالمؤلف ، بصفته مريضاً سابقاً ، يرصد المرض ويعيه ويصف أعراضه . ويحس المريض بذلك أنه أمام شريك لأوجاعه ، لا متفرج حيادي يمدده على أريكة الطبيب النفساني التقليدية ، ويرقبه متثائباً وهو يرعف أيامه وينزف أحزانه ، ثم يدفع إليه بفاتورة ثمن انصاته ! . . . هذه الموجة في علم النفس ، موجة الاطباء المرضى ، ستكون لها الغلبه كما يبدو ، وقد يأتي يوم لا يسمح فيه بالانتساب الى كليات الطب النفساني إلا لخريجي مستشفيات المجانين مثلا !! . . أو لمن يثبت أنه ليس إنساناً (عادياً) وإنما هو من حزب أصحاب (الخافق المعذب) ، المعذب لا لفشله في حب امرأة ، وانما لفشله في حب العالم المجنون الذي يحيط به ، والتوافق معه . .

من هو العصابي ؟

العصابية مرض تتفاوت أعراضه في الحدة ولكنه بصورة عامة هو اضطراب عاطفي وعصبي . ويقول الدكتور « بيش » ان العصابيين أناس يشعرون بصورة عامة بأن الدنيا دهليز ضيق آخره مسدود . . وهم لذلك يمضون في الحياة بخطى مثقلة ، وقلوب قد انطفأ الغد فيها . . انهم لا يقبلون على عملهم بشهية . . ويتعثرون في دروب الحياة بصور مختلفة ، منها عدم الثقة بالنفس ، والخجل ، وتأنيب الضمير والشعور بالذنب ، والعجز عن اتخاذ القرارات وزيادة الحساسية وتضخيم الامور ، ومحاسبة الذات والدفاع عن النفس دون أن تكون متهمة . . والنوم المضطرب . . والاحلام المزعجة . . هذه الأعراض كلها تهدر طاقات الانسان وتشتته ، وتسلمه فريسة للإرهاق ، وتخرب حسه الفطري بحب الحياة . . .

وليس من الضروري أن تجتمع هذه الأعراض كلها لدى العصابي ، ولكنها توجد لديه ، بنسبة ما يسيطر عليه المرض . . . أما الحالات العصابية الحادة التي قد تؤدي بأصحابها الى المصحات ، فالبروفسور « بيش » لا يعنيها في كتابه هذا لأنها كما يقول تشكل أقل من نسبة واحد بالألف لدى العصابيين (في الحالات الحادة تصير العصابية هستيريا تسببها الأماكن المغلقة مثلاً أو هستيريا وسواس المرض أو هستيريا المرتفعات وكلها أيضاً متشابهة وقابلة للشفاء) . . . إن ما يعنيه بالعصابية التي يجب ان تكون سعيداً بها ، هي تلك الحالات التي لم تفقد فيها بعد سيطرتك على نفسك نهائياً . . . كما لم تفقد بعد رفضك للتكيف مع العالم حولك .

العصابي ليس مجنوناً

والدكتور « بيش » يفرد في كتابه هذا فصلاً لمزيد من الايضاح بما يعنيه بالعصابي ، ويميز بين العصابي والمجنون قائلا : ان كلمة NEUROTIC « العصابي » ليست كما يظن البعض الكلمة المهذبة المرادفة لكلمة « مجنون » . . . فالفرق بينهما شاسع ، وإن كانت كل من أعراض العصابية والجنون مشابهة جداً لأعراض العبقرية ! . . . فالعبقري ، والعصابي ، والمجنون ، كل منهم يرفض العالم بصورته القائمة حوله ، ولديه رؤ يا أخرى له ، وكل منهم يرفض النموذج الاجتماعي السلوكي الموحد ، ويتوقف أمامه ليقول : لا . أو ليصرخ لماذا ، أو على الاقل ليهمس : ولكن . . .

إذن في حالة العبقرية ، والعصابية ، والجنون هنالك رفض للعالم الخارجي . ولكن العبقري يبدل العالم ويحاول أن يقربه من الصورة التي يريده عليها . . . إنه عبر عبقريته يؤ ثر في مجرى التاريخ والاجيال .

أما المجنون فيخلق لنفسه عالماً خاصاً به ، ويرى الاشياء كما يريد أن يراها دون أن يبدلها حقاً ، وهكذا فالجنون هو نوع من الهجر النهائي لعالم الاكثرية (الملقبين بالعقلاء) وهو بالتالي ذروة في الاكتفاء الذاتي وليس بالضرورة وضعاً تعساً . . وبعض المجانين هم في غاية السعادة ، لأنهم يرون الاشياء تماماً كما يريدون أن يروها ، مهملين بذلك كل الاهمال ، وجهة نظر العالم الخارجي ، وهم مقتنعون بأنهم على حق ، وبأن العالم كله على خطأ (أي كالعباقرة) .

أما العصابي ، فإنه لا يهجر العالم ، أو يقطع خيوطه كما يفعل المجنون ، وانما هو كالعبقري يعي وجود خلل في العلاقة بينه وبين الاشياء حوله . . . والمهم أن يقدر على

تحليل ذاته وتحليل عالمه ، ليعي الفرق بين رؤيته الخاصة الأصيلة للوجود ، والرؤية السائدة ، وليحاول إبداء وجهة نظره وتجسيدها في موقف . . . والخطأ الذي يرتكبه العصابي ، هو محاولة الاستسلام للاشياء كما هي ، حيث يصبح طموحه هو أن يصير إنساناً (عادياً) . . . فالعباقرة هم عصابيون جسّدوا مشاعرهم ومواقفهم في لوحة أو كتاب أو قصيدة شعر . . . وأشهر عصابيي التاريخ هم مثلا : نابليون ـ الاسكندر المكدوني ـ يوليوس قيصر ـ مايكل انجلو ـ ادغار آلن بو ـ باسكال ـ موليير ـ والت ويتمان ـ فيلدينغ وجولد سميث . . ويقول الدكتور بيش ان دراسة الحياة الشخصية لعظمائنا المعاصرين ، تثبت أنه ليس بينهم من ليس عصابياً ، وأن معاصري عظماء التاريخ كانوا يعتبرونهم خلال حياتهم غريبي الاطوار وشاذين ، وأكثرهم مات في المصحات العقلية أو منتحراً أو مسجوناً بعد محاكمة لجرم شائن (مثل اوسكار وايلد مثلا) . . ويؤكد المؤلف بإلحاح على أن العصابية علامة من علامات التفوق ، ويستشهد بقول البروفسور جانك : جميع العصابيين يمتلكون بذور العبقرية والمهم ان يحسنوا زرعها واستنباتها . . .

ويشكو المؤلف أيضاً من سوء فهم المجتمع لكلمة « عصابي » . فزوجة المؤلف مثلا حذرته وهو يؤلف كتابه من أن يعترف بأنه مريض عصابي ، كي لا يخسر سمعته الطبية وزبائنه ! وهو يعتقد أن تحذير زوجته ، يعبر عن وجهة نظر المجتمع ومفهومه الخاطىء للإنسان العصابي واعتبار هذا المرض امراً مشيناً . . . بل انه يشكو أيضاً من الاطباء النفسانيين الذين يسيئون فهم هذا المرض . . . ويروي أن زميلاً له حول إليه مريضة عصابية قائلا له : إنها ليست مريضة حقاً وكل ما تشكو منه هو (أوهامها) . . . ويقول الدكتور بيش : أوهامها ؟ ! ألا يكفي ذلك ؟ ! . . ثم ما الفرق الواضح والنهائي والأكيد بين الوهم والحقيقة ، ما دام صاحب القضية يحس بهما بصورة متساوية ؟ . . عبر الوهم وبالخيال ، نحن مدينون بكل ما حولنا من اختراعات وقصائد وأشعار ومسرحيات . أين تكون الحضارة لولا الخيال ؟ ألا يدين الانسان برقيه كله للخيال الجامح المجنون ؟ . . ولكن الفرق بين العبقري والعصابي هو أن العبقري استطاع أن يعبر عما يستعر بداخله وأن يوصله الى الناس في إنتاج فني ، فنال أوسمتهم واستحسانهم ، أما العصابي فانه يأكل نفسه بصمت وأسى مشيعاً بازدراء الناس ، والعلاج المطلوب له هو إعادة حنجرته إليه ليعبر عن ذاته وليس استئصال جهازه العصبي الحساس أو تخريبه أو تعطيله عن العمل . . .

ولكن الدكتور بيش لا ينسى أن يذكّر مرضاه ، بأنه ليس كل عصابي عبقرياً

بالضرورة ، وان إصلاح الأمر لا يكون بالانتقال إلى عقدة العظمة وانما بنوع من المصالحة مع الذات ومعرفتها واكتشافها وبالتالي تحويل طاقاتها الى البناء في الخارج بدلاً من الهدم في الداخل . . . أما الطريق الى ذلك فتتلخص في المبادىء الخمسة التالية :

١ ـ حلل نفسك ـ أي « اعرف نفسك » وهو الشعار العتيق الخالد الذي رفعه سقراط .

٢ ـ كف عن الاحساس بالذنب .

٣ ـ إكتشف طموحك الحقيقي .

٤ ـ وظف نقاط ضعفك واجعل منها مزايا .

٥ ـ أحسن الاستفادة من سلاح عصابيتك . وهو يصف في كتابه كل خطوة من هذه الخطوات بالتفصيل ، ويرى أنه أثناء المواجهة الذاتية ، والمعالجة النفسية ، تتكشف طاقات دفينة في النفس . . وانه من الضروري لتطبيق هذه المبادىء الخمس ، أن يجد الانسان حوله شيئاً من التفهم لوضعه . . . التفهم لنفسه أولاً . وعدم فهمها خطأً على انها حالة جنون ، ثم التفهم على صعيد الاسرة ، فالأهل ما زالوا يجدون في « العصابي » ما يضايقهم ، أكثر مما يضايقهم مريض بالجدري ! . . . والتفهم على صعيد الاصدقاء ضروري ، فالعصابي ـ غالباً ـ يجد نفسه وحيداً ، وقد نأى عنه صحبه . . . والتفهم حتى من قبل الاطباء الذين يعالجونه ضروري أيضاً ، وذلك كله لا يتم الا بحملة إعلامية توضح حقيقة العصابي ومدلوله . . . وأن تكون إنساناً عادياً ليس أمراً يدعو الى المباهاة ، وأن تكون عصابياً ليس بالضرورة انك انشتاين أو برنارد شو ، ولكن من الممكن على الاقل ، أن تكف عن أن تكون تعيساً ! . .

ويفرد الدكتور بيش فصلاً كاملاً في كتابه ، يسخر فيه من الفرد (الطبيعي) العادي قائلا : ان تكون انساناً عادياً ليس موضع فخر . ليس في الانسان العادي أية أصالة أو خصوصية ، ولا لمعة ولا شرارة ولا ضياء . تذكر أيها الانسان العادي انك لن تنجح أو تصير مرموقاً لأنك تتصرف كالآخرين ، وأن النجاح هو أن لا تكون كالآخرين . . . حسناً . افعل كل ما هو من المفروض أن تقوم به . كن ابناً نموذجياً . انجح في مدرستك بدرجة أولى . تزوج لترضي جدتك . اتبع أوامر ساعة الحائط دونما كلل . امتلك بيتاً . وفر نقودك ليوم الضيق . كل وجباتك الصحية في أوقاتها وابتلع اقراص فيتاميناتك . انضم الى نادي « اللايونز » أو « الروتاري » . أمّن على حياتك ، وتستطيع بعد ذلك كله أن تكون واثقاً من أن جميع أفراد عائلتك سيحضرون مأتمك ! . . . ولكن أحداً آخر لن

يذكرك ، ـ غير الندابين المأجورين ـ لأنه بعد أن يتم رميك في حفرة قبرك أنت ومزاياك (الحميدة) ستمضي دون أن تكون قد قدمت للانسانية ما يذكر) !! . . . .

ويتابع الدكتور بيش تفضيله للعصابيين ـ على اخطائهم ـ على العاديين وفضائلهم الصغيرة ، فيقول إن العصابي حينما ينجح ، يعرف سعادة أعمق من سعادة الإنسان العادي الناجح . . . فالعصابي الذي يبلغ أحياناً قاع بحار الاسى ، هو القادر على أن يطال ذرى السعادة وغمامها . . إنه قد يتعثر ويسقط ، ولكنه دوماً يتنفس بملء صدره ويعب حلو الحياة ومرها ، ودمه المليء بالحيوية يركض مجنوناً في أعماقه ويغلي في حواسه المرهفة . . . وانه لو لـم يكن هو عصابياً (أي الدكتور بيش) لما كتب هذا الكتاب ، ولما حوّل طاقات عذابه الى طاقة ناجحة هي كتابه هذا ، وهو يدعو رفاقه المرضى إلى الاقتداء به . . المهم أن يعي العصابي أن في العالم ملايين العصابيين . . وان هنالك سبباً لمرضه وهو أن العالم حوله مريض باللاإنسانية ، ومرضه هو احتجاج على عالم مريض وهو بالتالي في جوهره دليل عافية . . . وأن الذي لا يمرض في عصرنا هو المصاب ببلادة الاحساس والغباء . . . وان أعراض (العصابي) هي نوع من صرخة الاحتجاج وصرخة الاستنجاد في آن واحد . . . وان المهم أن يقاوم المريض ولا يستسلم . . . وأن يعـرف الى أي حد هو مريض ! . . .

من اجل هذا الغرض ، زودنا الدكتور بيش في كتابه بنموذج من الاسئلة هي عبارة عن مئة سؤ ال ترد عليها بنعم أو لا ، ثم تحصي عدد إجابات نعم ، فاذا فرضنا أنك اجبت على ٧٠ سؤ ال منها بنعم فأنت عصابي ٧٠ بالمئة وان اجبت على ٨٥ بنعم فأنت عصابي ٨٥ بالمئة وهكذا . . . وهنا احب ان أسجل عدم اعجابي بهذه الطريقة (الاميركية) في التحليل النفسي ، والكتابـرائع لولا هذا الجزء الذي ربما يهدف مؤ لفه الى تبسيط الامور لمريضه ولكنه هذه المرة تبسيط مبالغ به في نظري . . . الاسئلة المفروض أن تطرحها على نفسك هي من نوع : هل تخشى مقابلة الناس ؟ ، وهل تحس بالذنب ؟ ، وهـل تحس بالاضطهاد في عملك ، وهل تكره الاطفال ، وهل تجزع من الزواج وهل تميل الى اظهار عيوب الناس وهل فقدت الطموح وهل تحس بأن حياتك بلا جدوى ؟ . . . الخ . . . وأنك لا تستطيع أبداً أن ترد على أي سؤ ال بجواب نعم أو لا ، على الطريقة الاميركية الكريهة !

صرخة احتجاج عادلة

أياً كان رأينا في الكتاب ، فانه دونما شك صرخة احتجاج على جهل الناس بحقيقة

أمراض أعماق النفس البشرية ومدلولها . . إنه محاولة للتنبيه بأن العلم المعاصر ، الـذي يعرف كل شيء تقريباً عن عمل أعضاء الجسد ـ كجهاز الهضم والتنفس ـ ما زال يتخبط في ظلمات علم ما يزال في المهد ، هو علم اكتشاف أسرار التحولات النفسية للانسان . . وصحيح أن العلم استطاع بغواصاته ان يسبر غور أعماق البحار ، لكنه ما يزال عاجزاً عن سبر غور الانسان والغوص في أعماقه ومساعدته على الشفاء من جروحه ، وندوبه . . .

وفي مؤتمر طبي عالمي حول الانتحار ، تبين مؤخراً أن أكثر المنتحرين من أصحاب المهنة الواحدة هم الاطباء النفسانيون . . . لماذا ؟ . . . تراهم صعقوا لما ازدادوا اقتراباً من حقيقة النفس البشرية ، وهل هالهم ما فيها من حقارة أم من سمو أم من نزف وجروح على مر التاريخ ؟ ام هالهم انها مزيج من ذلك كله . . وانهم من بعضها . . . وانهم رأوا وجوههم الحقيقية في مرآة مرضاهم ولو لثانية كومضة برق صاعقة قتلتهم ؟ . . .

١٩٧٤/٧/٨

انزعوا القيود عن المجانين

صعد الطبيب العقلي درجات سلم المصحة . كانت أصوات المرضى المسجونين تغطي العالم احتجاجاً ونحيباً ، وأحس انه يمضي الى جحيم دانتي . . . او أن دفتي كتاب من كتب الرعب قد فتحتا ، وها هو يخطو الى داخل الكتاب لتبتلعه أحداثها المخيفة الغامضة .

ولم تكن الصرخات وحدها هي التي تعذبه ، فلقد لفتت انتباهه سلسلة من اللوحات المعلقة على الجدار الملاصق للسلم ، وحينما وصل الدرجة الثالثة اتضح له أن اللوحات تصور أعراض الجنون ووسائل معالجته على مر العصور . . . وجوه معذبة لبشر يعاملون بالسخرية والهزء ، ثم بالضرب والجلد وحمامات الماء البارد ، والاذلال والقهر ، وأخيراً ينتهي الأمر بالمريض حليق الشعر مقيداً من رقبته بسلسلة الى الجدار . . . وخيل للطبيب انه يرى نفسه موضع المريض في سلسلة اللوحات .

هذا ما كتبه الروائي ويليام جونستون في مطلع روايته Asylum والرواية هي حكاية تجربة طبيب في « مستشفى للمجانين » . . . . ولكنني لن احدثكم اليوم عن هذه الرواية ! . . سأحدثكم عن رواية أخرى مماثلة لتجربة طبيب في مستشفى المجانين ، والفرق هنا ان كاتب الرواية هو بطلها . . . انه الطبيب والبطل في آن واحد ، والصدق هنا أكثر حدة وعمقاً ، خصوصاً أن كاتبها الطبيب لا يفتقر الى الموهبة الأدبية . . .

لكنني اخترت لكم هذه السطور من رواية « مستشفى المجانين » شاهداً على فظاعة الأساليب المتبعة على مر العصور لمحاولة شفاء « الجنون » وهذا ليس سراً طبياً ، وها هم كتّاب القصة يستوحون من هذه الأساليب روايات رعب ومن أجواء مستشفيات المجانين سراديب تدور فيها مشاهد العنف التي يقشعر لها القلب والقلم . . .

الكتاب الذي سأحدثكم عنه هو النقيض تماماً . ومستشفى المجانين هنا ليس سرداباً للتعذيب بل مسرحاً لتجربة جديدة تماماً في عالم الطب العقلي . . .

القفص المطلي بالذهب

اسم الكتاب : The Guilded Cage * وترجمته الحرفية « القفص المطلي بالذهب » ، مؤلفه هو الطبيب المجري البروفسور استيفان بنديك ، ويروي فيه مذكراته لتجربة نادرة عاشها في أحد المصحات العقلية ، وهو مكتوب باسلوب قصصي شيق . . . فيه ومضات علمية مهنية ، لكنه بصورة عامة أعد ليقرأه عشاق القصة ، والمغرمون بالدخول الى دهاليز النفس البشرية وأسرارها ، والمولعون بمتابعة الاكتشافات الجديدة في عالم الانسان وأعماقه الغامضة .

الشيء الأساسي في الكتاب هو رفضه لكل وسائل معالجة المجنون بالعنف . . . انه يريد معالجة المجنون بالحب . . معالجة المجنون بلمسة الحنان قبل الصدمة الكهربائية . . . ومعالجته أولاً بالعمل ، العمل المثمر والمجدي بين أحضان الطبيعة . . .

وهكذا فالكتاب ، بالاضافة الى ميزاته القصصية الكبيرة ، يطلعنا ايضاً على ثورة في عالم الطب ، هي الدعوة الى تحرير المجانين من المجانين الحقيقيين (أي نحن !) . . .

يبدأ الكتاب بما يشبه فاتحة لرواية بوليسية . طبيب وزوجته ذاهبان الى مستشفى للمجانين تتعطل سيارتهما وينامان وأمتعتهما تحت المطر ، يصلان الى المستشفى مرهقين ، ويفاجأ الطبيب بأنه ليس فقط رئيس المستشفى بل طبيبها الثاني الوحيد ! . . ويحيط بهما المجانين من كل صوب في مكان تكتنفه الاسوار والصرخات ويجرجر فيه المرضى قيودهم كالسجناء . . .

وتتحدث الفصول التالية عن « مغامرة » الطبيب وزوجته . لقد اضطر الى الإقامة داخل المستشفى في غرف ملاصقة لغرف المرضى ، وكان ذلك عاملاً أساسياً للدخول الى عالمهم بحنان . . . وخلال الأعوام الثلاثة التي قضاها الطبيب معهم بدأت تتكشف لعينيه أمور كثيرة لم تكن موجودة في كتب الطب التي درسها . . . وها هو يرويها لنا .

يقول الطبيب في مقدمته للكتاب : « يعتقد من لا يعرفون المختل عقلياً اعتقاداً جازماً بأن الشخص المجنون ليس بإنسان . والهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو الكشف عن مدى إنسانية المجنون ، وبالتالي عن مدى حاجته الى معالجة إنسانية . لقد كان المجتمع

---

* كتاب « القفص المطلي بالذهب » THE GUILDED CAGE

تأليف الدكتور إستفان بنديك ISTVAN BENEDEK

ترجمه الى العربية الدكتور قدري حنفي والاستاذ لطفي فطيم وراجعه وقدم له الدكتور أحمد عكاشة . صدر بالعربية في حزيران ١٩٧٥ بعنوان « الانسان . . . والجنون » عن دار الطليعة .

بالغ القسوة بالنسبة إليهم لعدة آلاف من السنين ، وإني أعتبر مهمتي هي أن أوضح للناس ، انه ليس من حقهم نبذ الشخص المختل عقلياً ، فاختلال العقل كارثة يمكن أن تحل بأي منا . . . »

وهكذا فالكتاب في مجمله دعوة الى تحرير المجانين من نظرة المجتمع الخاطئة ووسائل العلاج السائدة . « فقد كان مصير المجانين على مر العصور التعذيب والضرب والسجن حتى انهم يقاسون أكثر من ضحايا الرقيق الأبيض ، ويلقون إساءات أكثر من التي يلقاها الملونون والعبيد » . .

وينطلق الطبيب في علاجه من إيمانه بأن لدى المجانين المقدرة على تبادل العاطفة والعطاء .

وهكذا ففي مصح « الجرانج » تمت تجربة فريدة في عالم الطب يرويها لنا بطلها الطبيب بأسلوب فريد في عالم القصة .

انزعوا القيود

الخطوة الأولى ، نزع القيود وتكسير الأسوار ، وفتح الحديقة أمام المرضى للعمل . . .

وهكذا نشأت أول مزرعة جماعية من نوعها في التاريخ ، وتحول المستشفى البائس الفقير ، الى مكان للعمل والانتاج . وقد نجحت التجربة ، لدرجة أن أكثر المجانين عنفاً جسدياً مال الى الهدوء والدعة بعد فك قيوده . فما يزيد في سوء حالة المجانين ، ويضاعف ميلهم الى العنف ، هو العنف في معاملتهم وسجنهم وتعذيبهم . . . وهكذا يعمل الجميع في حديقة المستشفى تحت المراقبة طبعاً حذراً من حدوث مفاجآت عنف . وقد تحسن الجميع ، ووقفت الاحصائيات في صف البروفسور وشفي الكثيرون وعادوا الى بيوتهم ، كما عاد بعض الذين شفوا للعيش في مزرعة المستشفى ، لأنهم لا يحتملون « جنون » العالم الخارجي وقسوته ! . .

نماذج انسانية

في الكتاب نماذج إنسانية رائعة ، يحكي لنا الدكتور استيفان بنديك قصتها ، وأعراض جنونها ، ثم الأساليب التي اتبعها في علاجها ، وكلها يرتكز على التفهم والحب والحنان ثم الدواء . وأكثر ما أدركه الطبيب غرابة هو خطأ النظرة القائلة : « هذا مجنون . . . أخاف منه . . . سيهاجمني ! » فليس هنالك مبرر للخوف من « مختلي

العقل » ، ولكن فليحمنا الله من « الاسوياء » ! . . كما ليس هنالك « مختل عقلياً » يمكن أن يهاجم دون سبب على الاطلاق ، في حين ان « العقلاء » يفعلون ذلك باستمرار لأسباب مجنونة تافهة . . .

وهكذا حول الطبيب المستشفى الى مستعمرة تضم حوالي ٣٠٠ مريض ، لا يستغلهم الناس « الاسوياء » ، وتتم معالجتهم بالعمل ، والعلاج الايجابي يتم بشرط ان يقوم المريض بعمل منتج يحبه حقاً . . . وهنا يأتي دور الشعراء في مملكة المجانين هذه ، إذ ماذا يفعل الشعراء ؟

مجانين المجانين

الشعراء هم « مجانين المجانين » . هم أصعب الناس علاجاً . أكثرهم يكره الأعمال اليدوية ويفضل كتابة الشعر . . .

والبروفسور لم يعترض على ذلك بل شجعه . كان يعيرهم الكتب من مكتبة المستشفى ، ويناقشهم ، ويقرأ أشعارهم ويجمعها . . . وفي كتابه مجموعة جميلة منها !

وكان من شعراء مستشفى او مزرعة « الجرانج » الشاعر « امير الحزن » او « ذو الدموع الماسية » ، كما يحلو له أن يلقب نفسه ، والشاعرة هيلغا التي اسمى البروفسور كتابه انطلاقاً من الوصف الذي اطلقته هي بنفسها على المصح : « القفص المطلي بالذهب » . . .

فالجنون في حد ذاته قفص يسجن الانسان نفسه بنفسه فيه ، منعزلاً عن العالم ومقاييسه وقيمه ، وهنالك المصح الذي هو أيضاً قفص آخر ، وكل ما يملكه الطبيب هو تحسين ظروف عيش البؤساء المرضى داخل القفص ، وبعبارة أخرى طلاؤه من الداخل بالذهب ، أما كسر القفص نهائياً فتلك قضية اخرى . . . (لعل قفص العالم الخارجي « السوي » هو الذي في حاجة الى كسر بكل ظلمه وتفاهاته) . وكان هدف البروفسور إعادة « الاستمتاع بالحياة » الى سكان مملكته ، ولكنه اكتشف ان مأساتهم الأساسية هي في موت الجمال داخلهم . . ووعيهم بكل ما هو مؤلم في الحياة . .

وهكذا تحول المستشفى الى مملكة صغيرة من نوع خاص ، الى موناكو للذين قامروا بأنفسهم وخسروا العالم ، الى عالم سحري حزين فيه نماذج كثيرة معذبة .

هنالك المؤلف الموسيقي « بيتر مارتير » الذي كان يكتب موسيقاه المسعورة . . . وهنالك الأديب الذي كتب رواية ، وظل سنوات وهو يبدل فيها غير راض عنها ، وذات صباح نهض باكياً لأن مخطوطه اختفى . وبحثوا عنه في كل مكان دون جدوى ثم عرفوا انه

هو الذي اتلفه دون أن يدري ، أو بعبارة أخرى شخصيته الثانية (أليس بين الكتاب من فعل ذلك برواية له خارج المصح ؟) وهنالك أديب آخر في المصح تفوح منه رائحة الثوم باستمرار حتى ليعجز أحد عن الاقتراب منه ، ثم اكتشفوا انه يشرب الخمرة خلسة ويدعك نفسه بالثوم ، لا ليبعد عنه الشياطين بل الشبهات والمراقبين من الممرضين ! . .

وفي هذه المملكة العجيبة بدأت كل الفعاليات تنشط ، وأبرزها الفعاليات الأدبية . وقد لاحظ البروفسور بنديك ان الفلاحين والعمال هم الذين كانوا أسهل مراساً وأوثق علاقة بالتراب من المثقفين ، كما أنهم كانوا يتمتعون بحسب الأغلبية . اما « شعراء مستشفى المجانين » فكانوا بلا شعبية ! . . كانوا مجانين المجانين وكان بقية المجانين يتندرون عليهم (تماماً كما يحدث في عالمنا !) .

ومع ذلك ، حين دعا البرفسور لإقامة ندوة أدبية وفكرية مساء كل ثلاثاء وخميس وسبت ، كان يحضرها أكثر من ٨٠ في المئة من المرضى .

ويقول البرفسور بنديك : « هذا يثبت ان الحاجات الروحية ليست مقتصرة على المثقفين » . ويتابع انه لاحظ استمتاع الجميع بقراءة شكسبير وسرفانتيس ودانتي ، « وانني اؤكد ان كلاً من المرضى ، الأغبياء او الأذكياء ، استمتع بذلك ايما استمتاع ، وانها فكرة مضللة تلك التي تزعم ان الثقافة لا تهضمها إلا الصفوة الممتازة . وانما يجب على المرء ان يتعلم كيف يقوم بتوصيلها ، بحيث يتقبلها اي فرد » .

ويقول البروفسور ان « الصحافي المجنون » كان المحاضر المفضل لدى رفاقه نظراً لأسلوبه المشوق . . . وان نجاح الامسيات الأدبية في الجرانج (لا أتخيل ان ما كان يدور فيها يختلف عما يدور في أية أمسية مجنونة اخرى خارج المارستانات وفي المراكز الثقافية !) شجع البروفسور على إقامة امسيات رقص وغناء وموسيقى كانت كلها ناجحة وساهمت في دحر الكآبة من النفوس . . . وحتى « أمير الحزن » صار « أمير الرقص » ، واستيقظت أشواق بعض المريضات الى الحب والفرح . . .

وفي الليل ، بعد أن ينحسر الجميع عن الحقول والندوات ، ويصمت الغناء والبكاء معاً ، كان البروفسور يخرج وزوجته ليتجولا في مملكتهما الاسطورية في ضوء القمر ، مملكة عجيبة تضم ١٩٠ مجنوناً ولكن رعيتها كانت في تزايد مستمر !! . .

اصل الانسان سمكة

ومن تجارب البروفسور بنديك المثيرة علاقة المجنون بالماء .

فمن المفروض ان المجنون يخشى الماء ، وهذا سببه تعذيب المجانين عادة بالماء البارد . . .

لكنه لاحظ إقبال الجميع على بركة السباحة ، وحتى أكثرهم انحطاطاً نفسياً وجسدياً كانت الحياة ترد إليه حين يعود الى الماء .

كأن أصل الإنسان سمكة ! . .

الحب في مملكة الجنون !

وشهدت مملكة الجنون هذه أكثر من قصة حب كانت تساهم في شفاء مجانينها . وقد لاحظ الطبيب أنه حين يكون المعشوق عنيناً كانت تعاود العاشقة الهستيريا والمرض ، ومع ذلك كانت تنشأ علاقات حب عميقة بين المجانين لا تتطرق الى الجنس بل تتجاوزه الى ما ورائه . . . وهذا النوع من العلاقات كان أجمل وأبقى ، وصحياً أكثر .

فالحب العذري يناسب الجنون اكثر من الحب الجنسي !

الصدمة الكهربائية

وسط هذا الجو القصصي المثير ، المشحون بالنماذج الإنسانية ، نمر بمعلومات طبية هامة .

فالبروفسور بنديك يتحدث عن العلاج بالصدمة الكهربائية ويجده ضرورياً شرط تبديل اسلوب تطبيقه . . .

فقد جرت العادة على حمل المرضى بالقوة الى بيوت خلاء المستشفيات حيث يجري ربطهم على ألواح ، ويقسرون على وضع حلقة مطاطية بين اسنانهم يمر خلالها التيار . . . ويراقب بعضهم بعضاً فيرون كيف يتشنج جسد الذي سرت فيه الكهرباء ويتقلص ويبول لا إرادياً ثم يغمى عليه .

يقول البروفسور بنديك ان العلاج بالصدمة ليس مؤلماً لأن الانسان لا يشعر بأي شيء بعد الصدمة ، وان المؤلم في العلاج هو مشهده ، والارغام على خلع الثياب ، وتقييد المرضى وحتى ضربهم ، لإرغامهم على ذلك . وعنف المرضى في تلك الحالات ليس دليلاً على جنونهم بل دليلاً على خوفهم ، أي على وعيهم ! . . وفي « الجرانج » جرى تعديل مهم لهذا العلاج ، وذلك بتخدير المريض أولاً بحقنه بحيث لا يشعر بشيء مطلقاً بعدها . . . ثم يتم كل ما تبقى بهدوء دون أن يعرف المريض أصلاً أن صدمة كهربائية عبرته . . .

ويناقش البروفسور بنديك القائلين بأن لا وقت لتطبيق العلاج الافرادي الكهربائي على المرضى بعد تخديرهم ، فيقول بحدة : « ما الذي يمكن ان يقوله الناس اذا استأصل الجراح في حجرة العمليات ، الزائدة الدودية لمريض دون تخدير، متذرعاً بأنه لم يجد فسحة من الوقت ؟ » الشيء نفسه يجب ان يقال عن الطبيب العقلي الذي يعالج المريض بالصدمة الكهربائية دون تخديره اولاً .

المهم ان نحبهم

الشيء الاساسي في نظرية البروفسور بنديك هو المحبة . إنه يحب المجانين ، وهو بالتالي يراهم بعين جديدة أكثر سبراً لأغوار حقيقتهم . . .

فهو يدافع عن مزارعيه المجانين الذين يعملون في الحقل ويتكلمون وحدهم ، ويقول : « من منا لم يتكلم مع نفسه قط بصوت مرتفع ؟! » الفرق الوحيد هو ان المجانين قد تخلصوا من الضوابط الاجتماعية ، وهم لذلك قد يمارسون الكلام مع أنفسهم حتى أمام الآخرين .

وهو يلاحظ أن المثقفين اصعب من البسطاء حتى في موضوع الاستحمام . فهم لا يقربون الماء ، واذا اغتسلوا بالغوا في ذلك الى حد الاغتسال بثيابهم ! . .

اما السمة المميزة للمريضات ، فهي انهن إما يثرثرن باستمرار (كسيدات المجتمع) ! او لا يتكلمن على الاطلاق !

الثنائية في الجنون

اكثر المصابين بانفصام الشخصية لديهم ثنائية تلفت النظر . . .

هنالك مريض كان يعتقد انه ستالين والقيصر بطرس العاشر في آن واحد !

مريض آخر ، كان يعتقد انه القديس بولس والذئب الشرير في آن واحد . وكان تارة يعظ ، وأخرى يعوي كالذئب !

ولتفسير ذلك يعطينا الطبيب الأديب صورة أدبية ويقول :« إنها تركة قابيل وهابيل في الانسان ! »

اللغات والجنون

يحدثنا البروفسور عن مريض ثالث كان زميلاً له في المدرسة ، وكان من أذكى الطلاب ، وإذا به يأتيه مريضاً . . . وفي البداية دهش بنديك لوجود صديقه في المصح ، فقد كان يناقشه في كل الأمور بذكاء حاد مرهف حتى انه نسي نفسه ذات يوم وسأله : لماذا أنت هنا ؟

قال له الآخر : إنهم يحاولون اغتيالي . يسلطون علي أشعة سرية لقتلي . يسممون طعامي . واكتشف الدكتور بنديك ان الرجل مصاب بعقدة العظمة والاضطهاد في آن واحد . فهو يعتقد ان أي عطل يحدث في المصح (عطل في الكهرباء ـ انقطاع المياه) موجه ضده شخصياً ، وان كل شخص يضع يده في جيبه يحمل في جيبه جهازاً لمراقبته وتسليط الاشعة القاتلة عليه . . . وهكذا يكفي ان تضع يدك في جيبك امامه لينقض عليك (مدافعاً) عن نفسه . . .

ويقول البروفسور ان هذا المريض كان في صغره يميل الى تعلم كل اللغات الممكنة ، كالتركية واليابانية ، وان هذه علامة مرضية كان يجدر به ان يلاحظها .

الحرية ! الحرية !

أجمل ما يؤكد عليه الكتاب ، هو العلاقة بين مرض انفصام الشخصية (شيزوفرانيا) والحنين للحرية .

واننا نجهل جوهر مرض الفصام ، وكيف ولماذا ينشأ عند البعض دون الآخرين وفي ظروف متشابهة مثلاً ، ولكنه يؤكد على ان الفصام في جوهره رغبة مطلقة في الحرية ، رغبة لا حدود لها ، ومن مظاهرها رفض قانون المجموع ، وتطبيق القانون الداخلي الفردي ، دون محاولة تحديد نقاط التقاء بين الفرد والآخرين ، ودون قبول أية تسويات . ومن هنا يلتقي المجنون مع العبقري والثائر والعالم والفنان ، فكلهم يرفض قوانين الاكثرية والامتثال لها ، ويتمرد . . . ولا ينسى الكتاب تذكيرنا بعباقرة العالم الذين كان اكثرهم نصف مجنون او مصاباً بالصرع ، كما انه يستشهد بديستويفسكي وشكسبير لاطلاعنا على جوهر الجنون الذي هو احياناً ذروة الحساسية والوعي (هاملت مثلاً) .

وهكذا يروي لنا البروفسور كيف انه حول مستشفى للمجانين بالمعنى المرعب التقليدي للكلمة الى مصحة للشعراء والفنانين والعشاق والعمال والفلاحين . ووصفه لذلك المكان يشبه « اليوتوبيا » حتى ان الكثيرين منا يتساءلون عن عنوان هذا المكان ليحزموا حقائبهم الى هناك ويرحلوا للعمل والحب والحياة بعيداً عن بشاعة عالمنا المعاصر وجنونه ! . .

والبروفسور يدعو الى انشاء مستعمرات كثيرة من هذا النوع ويتساءل : « أليس في الامكان مساعدة الاصحاء على هذا النحو ؟ » .

البروفسور المجنون

وقد شاعت أخبار مصح « الجرانج » ، وتجربة البروفسور بنديك الرائدة في هذا

المجال ، وتم الاعتراف باهميتها في المحافل العلمية والمؤتمرات ، ودعي هو أكثر من مرة للمحاضرة عنها ، كما بدأ يتدفق عليه الزوار والفضوليون ومراسلو التلفزيونات والاذاعات . . .

وهو هنا يتحدث عن اولئك الناس القادمين الى مملكته من العالم الخارجي ، بسخرية واشمئزاز شبيهين بالاحتقار الذي يتحدث به الناس عن المجانين ! اما حين يتحدث عن رعاياه من « المجانين » فهو يتناولهم بحنان حقيقي وتفهم عميق . . .

وحين تنتهي من هذا الكتاب ستتساءل :

ترى هل هذا البروفسور العبقري هو أكثر رعاياه « جنوناً » ، وهو لذلك يفهمهم ، ويعرف كيف يتخاطب واياهم ؟ . . هل سر نجاحه هو انه مجنون ، بل وأكثرهم جنوناً ؟ ! .

ولكن ما هو الجنون ؟ وما هو العقل ؟ اليس أكثر اطباء العقل نجاحاً هم اقربهم الى الجنون ؟ .

البروفسور لينغ

البروفسور لينغ ، حين يروي تجربته على تخوم الجنون والعقل ، يؤكد ان الطبيب العقلي الناجح يجب ان يكون قد مارس تجربة السقوط الى الداخل (الجنون) والعودة منها كي يساعد بقية شعبه . هل هذا ما حدث للدكتور بنديك بسرية أكبر ؟

وفي رواية « مستشفى المجانين » ، تأليف ويليام جونسون ، نجد بطله الطبيب ، يضيع الخيط الواهي بين عالم الجنون والعقل ، ويصير مثل الناس الذين في الداخل ، والذين نطلق عليهم اسم « مجانين » ، ولكن من العاقل ؟ ومن المجنون ؟ وبالنسبة الى اي مقياس ؟ . .

وهل المجانين هم حقاً ، كما يعتقد الدكتور لينغ ، رواد الكشف عن اعماق النفس البشرية وأهم بكثير من رواد الفضاء ؟ إنهم الضحايا الاولون على مذبح معرفة الذات الانسانية ، وحينما تنضج البشرية ستقوم ببناء انصاب تذكارية لهن ؟

ترى هل يأتي يوم نجد فيه نصباً « للمجنون المجهول » اسوة بـ « الجندي المجهول » ؟ !

لا ادري ! . .

ادبنا العربي . . . الفقير

كل ما أدريه ، هو أن أدبنا العربي يفتقر تماماً الى هذا النوع من الكتابات التي يخطها

الاطباء (الأجانب) . . . وأعني بذلك « الكتابات ـ المذكرات » التي تطرح في أسلوب روائي شيق قضايا جديدة علمية وانسانية في قالب حي من النماذج البشرية التي لا تنسى .

والملاحظ أنّ اطباءنا ، حين يكتبون ، يصرون على كتابة « أدب » بالمعنى السائد. يصرون على كتابة القصة القصيرة او الرواية او الشعر او الحكمة الدينية . (الدكتوران يوسف ادريس ومصطفى محمود،مثلاً ، ينقطعان شبه انقطاع عن عالمهما الطبي . اما الدكتور شريف حتاته ـ وهو لا يزال يمارس مهنة الطب ـ فقد كتب رواية ناجحةيؤ رخ فيها حكايته مع السجن لا مع الطب) .

والسؤال هو لماذا لا يبدأ اطباؤنا فتحاً جديداً في عالم « الكتابة الابداعية » دونما مبالاة بالقوالب الادبية والالقاب ؛ (قاص ـ شاعر) ؟

ومتى يغتني أدبنا العربي بهذا النوع الفذ من المذكرات الابداعية العلمية ؟

أم أن هنالك نماذج عربية معاصرة من هذا النوع فاتني الاطلاع عليها ؟

١٥/٧/١٩٧٤

خذوا الشعر من أفواه . . . المجانين

إذا كنت مثلي ، تحس بأن الشعر هو صرخة القلب العـاري من الأقنعـة ، والنفس العارية من الزيف . . .

اذا كنت مثلي ، تلحظ أن أكثر الشعر حولنـا صار مكتوبـاً بلغـة المصالـح لا بلغـة القلب ، فيه الحكمة والنظريات السياسية والشعارات وحتى الوصفات الطبية والجيولوجيا أيضاً (!) لكنه يخلو من صرخة الاعماق ، صرخة الطفل لحظة الولادة ، صرخة الفجر لحظة الحب ، وكل الصرخات العفوية الاخرى . . .

إذا كنت مثلي تشعر بأن أكثر شعراءنا الكبار صاروا عقلاء جداً ، وشعرهم يفتقر الى لمسة جنون وومضة عبقرية . . .

اذا كنت مثلي تتـوق إلى قراءة كلمات نابعـة من الأعماق بكل عفويتهـا وفجاجتهـا وجراحها العارية من الأربطة ، فليس أمامك إلا أن تفعل مثلي ، وأن تباشر قراءة أشعار المجانين* . . .

لقد أفسد عصرنا الشعراء . افسدتهم السياسـة . افسدتهـم المصالـح . أفسدهـم الآخرون . أفسدهم النقاد . أفسدهم التصاقهم بكل ما هو عابر . . . ولكن المجنـون يظل خارج السياسة والمصالح والنقـاد والآخـرين . . . وتظـل لاشعـاره نكهـة البـراءة الأولى ، والصدق بلا حدود . فالمجنون إنسان غادر نهائيا عالم الآخرين ليمارس سقوطه البطيء الى قاع ذاته ، وربما ليلمح بين آن وآخر شطآن الحقائق الإنسـانية ، وأسرارهـا النائية ، يقرأ أبجديتها المشوشة عبر ضباب تمزّقه « أليس الجنون ، كما يقول إريك فروم ، هو « العودة الى الداخل » ؟ . .

أليس الإبداع لحظة جنون صغيرة أو ، كما يقول جان كوكتو : « ان يكون الفنان فصامياً صغيراً ، أشبه بالطفل أو بالمجنون ، وليس أمامه سوى العبقرية » ؟ ! .

الشاعر العظيم ـ والناقد أيضا ـ ت . س . إليوت كان يرى أن الشعر الحقيقي هو

* اخترت لكم هذه القصائد من كتاب « الانسان والجنون » تأليف الدكتور استيفان بنديك

خلاصة المعرفة الانسانية ، وأنه بذلك يتجاوز المعارف الأخرى كلها ، ليضيء بالحقائق الأزلية في لحظات نبوءة والتصاق بالمطلق . . .

ولكن أكثر الشعر حولنا بدأ يتحول إلى أداة إصلاحية أو سياسية أو اجتماعية ، ولكونه أصبح أداة ، أخذ يفقد سحر الاعماق ، ولم يبق على عشاق الصوت الداخلي غير المزيف إلا العودة الى الشعر الكلاسيكي . . . أو إلى شعر المجانين !

شعراء . . وليسوا مجانين

والى جولة معي بين أشعار المجانين . . . لنقرأ معا :

هل انا الصياد العجوز
أم تراني البحر ؟
أو لعلني سوار قديم
وجد في خزانة
مفتاحها قد ضاع ؟ . .
يا للظلام ، والحلم الغريب !
هل أنا حزن كئيب ،
هل أنا تساؤ ل كامن ومرعب
يظن أنه يرقد في أعماق حمأة الوحل البارد ؟
أم تراني بئراً مهجورة في الحديقة ؟ . .
يوماً إثر يوم ،
أنا ،
أمير الحزن المسكين
أكتفي بالتمرغ في النواح القاسي الناعم
بينما الدقائق الفارغة
تشكل جسراً يعبر فوقي . .
يا أيها الشفق الاحمر الدموي
والفجر العاصف الموحش
لقد جعلتني أعول وأئن ،
فأنا رهينة
في قبضات اليأس .

هذه القصيدة كتبها مجنون في مصح « الجرانج » في هنغاريا ، وهـو شاب من أسرة ايجليت ، والده كاتب مشهور ، وشقيقه الاصغر أيضا كاتب معروف ، أما هو فقد أصيب برغم موهبته (أو بسببها !) بالفصام ، وأدخل مصحاً عقلياً . كان وسيماً كأمير في رسوم العصور الوسطى ، حالماً ورقيقاً ويلقب نفسه بـ « أمير الحزن » . ولكنه كان يشكو مما يسميه « مرض التقلص الشيطاني » الذي يوجعه ويدنس كل ما حولـه . والى جانـب الكتابة كان يقضي وقته في مسح كل ما حوله بورق التواليت ، وكان يغتسل طوال الوقت ، ثم يرتدي ثيابه ، ثم يعود الى الاغتسال بثيابه كلها صيفاً وبمعطفه شتـاء ، ثم ينهمـك بتنظيف فراشه ، فيظل ينثر عليه الماء ويمسحه حتى يسقط اعياء (أليس العالم حولنا قذراً الى هذا الحد ، وكل ذنب « أمير الحزن » أن يلحظ ذلك أكثر منا ، ويحس بمطاردة الموت الاكيدة له ولا يفاجأ بذلك مثلنا ؟)

« أشعر انني سأموت هنا ،
سوف أرقد على الحشائش
وببساطة ،
أموت !
أيتها الحياة ،
يا شعلة الدماء والاشواق
والمثل والاحزان وأطياف الاحلام
أنا أدير لك ظهري
وأغادرك !

*

الطيور تجثم حزينة فوق الاشجار
وتمر الساعات البليدة
خلال ثقوب ساعة الحياة الرملية ! . .
آوه !
ما أشد شوقي الى أن أكون بعيداً . . .
أن أتلاشى بعيداً . . . هذه هي النهاية . »

* * *

سيزار لمبروزو طبيب عقلي ايطالي من القرن الماضي ، كتب مؤلفاً عن العلاقة بين

العبقرية والجنون والجريمة ، وأكد في كتابه « الرجال العباقرة » ، ان جميع الرجال العظام في التاريخ قد عانوا من أحد أنواع الجنون . وأحصى لمبروزو حشداً من عظماء الرجال المصابين بالصرع : دستويفسكي ، يوليوس قيصر ، شارل الخامس ، القيصر بطرس الاكبر ، ريشيليو ، موليير ، فلوبير ، موسيه ، الفيري ، باسكال ، هاندل ، باجانيني ، وغيرهم كثير . . . وحتى لو صح ذلك ، فان هذا لا يعني أن كل مجنون هو حتماً شاعر أو عبقري . . . ومع ذلك ، تظل هنالك رابطة ما ، وقد وعى هذه الرابطة كبار الفنانين أنفسهم . فنظرتهم الى الفصام والمجانين تلفت النظر . . . واليكم هذه الامثلة :

في رواية « الابله » يسوق دستويفسكي ، على لسان هيبوليت مثلاً نموذجياً على التفكير الفصامي « أنا أكرهك يا جافريل لسبب واحد ، وهو أنك تعتبر نموذجاً ، تجسيداً تشخيصاً وجوهراً للعادية الانانية الحقيرة الغادرة الوقحة . أنت تمثل العادية محفوظة حفظاً . أنت العادية الاولمبية التي لا يأتيها الشك . أنت روتين الروتين . لقد قدر عليك ألا يخطر بفؤادك فكرة جديدة » . هل يوجد ما هو أبغض الى المصاب بالفصام من روتين الروتين ؟!

وهذه الابيات تلخص أيضاً رؤ ية الفصامي للاشياء :

« انا مع نفسي
مقياس . . .
كلماتي المنحوتة من الذهب الخالص ،
هي كلمات السرور . . .
على كل قطعة ذهب ،
تتبدى صورتي كصورة ملك . . . .
وفي الأعالي ،
ترى نقش كلمتي المشحونة بالزهر :
انا !! »

وهكذا فالمجنون يريد أن يكون قانوناً في ذاته . جوهر الجنون والفصام ، كما يقول الدكتور « استيفان بنديك » ، هو الحنين الى الحرية . الحرية بمعنى أن يعيش المرء وفقاً لقوانينه الفردية . وقوانين المجتمع تقوم على قوانين الاكثرية ، والقادرون على التكيف معها يلقبون بـ « الاسوياء » ، وهم أكثرية . فالامتثال سهل بالنسبة الى الكثيرين (وتلك ليست بالضرورة شهادة في صالحهم !) وبعض الناس يجدون صعوبة في التكيف ،

وتنتابهم نوبات الكآبة والقلق والرفض لكنهم بالنتيجة يتكيفون على مضض .

بعض الناس يرفض قانون الاكثرية ، ويتمرد ، يصير من الثوار أو من العلماء أو المجددين أو الفنانين . . . أو المجانين !

أما البروفسور لينغ ، في كتابه عن الشيزوفرانيا فيقول : « الجنون هو ثورة الاقلية العاقلة ضد الاكثرية المجنونة في عالم مجنون يمضي الى الدمار » .

وهذا العالم المجنون ، السائر الى الدمار ، قد يكون سر آهات « أمير الحزن » وغيره من الشعراء المجانين . . . وها هو يصرخ باحساس لا بد انه مر في قلوبنا ولو مرة في العمر :

« انفراجة في السماء
حيث السحب الداكنة الغريبة
تتدلى من السموات المحمومة .
زهور الحزن الدموية ، الحمراء العملاقة
ترقبها العيون
الطافحة بالاسرار .
الظباء الصغيرة تعدو
في صمت
وقلوبها تغني أغاني مشرقة للنهار
عن احلامها الصغيرة
بينما الارض الزرقاء
لا تتوعدها الا بالموت والفناء . »

وكان « أمير الحزن » ، « صاحب الدموع الماسية » ، يعتز بألقابه التي يغدقها على نفسه ، ويعتبر نفسه شاعراً عظيماً جداً ـ ومن من الشعراء ؛ حتى العقلاء منهم ، لا يعتبر نفسه شاعراً عظيماً ؟

« قطرات المطر المتساقطة
تقرع الليلة كطبول زنجية .
وفتاة حزينة ،
تختلس النظر عبر المدخل الزجاجي ،
لم تختف في الظلام . . .

سوف يحل الحزن غداً هنا .
الكلمات البالية
لا تستطيع أن تعبر
عن هذا الحزن الغريب الجارف .
الحديقة تبكي
الاكمات والاشجار تبكي .
السلم ، وعتبات الابواب
مغطاة بالدموع
وتتنهد
محاطة ببحر عميق من الاوحال .
أصيخوا السمع ،
تبكيان
الفتاة ، والحديقة ! »

جوهر العذاب الانساني

من منا لم يحس احياناً بأن العالم كله يبكي ، وأن الحزن هو الضيف الثقيل الذي لا سبيل الى طرده والتخلص منه ؟ . .

ولكن اشعار المجانين ليست كلها بكاء على بشاعة العالم ، فبعضها يلخص المأساة الانسانية بفلسفة شاملة ويكشف لنا ان جوهر العذاب الانساني هو توق الفرد للالتصاق بالوجود الواحد ، الكل ، السامي (وهي النظرية التي بنى عليها اريك فروم فلسفته في الحب في كتابه « فن الحب » (The Art of Loving)

وهذه مصابة بالفصام اسمها هيلغا ، تكتب في المصح نفسه « الجرانج » أبياتاً رقيقة كلها جوع للعودة الى الكل الواحد ، الى النبع ، الى الحب والجمال والخير بالمعنى الاغريقي . تقول (المجنونة) هيلغا :

« لم الواحد ؟
اليس الواحد هو الجوهر ؟
لا شيء باقياً مما تراه عيون البشر
الماضي قد توقف
والمستقبل قد مضى .

والسر الآن ـ تكون أو لا تكون .
لم نعيش ؟
الحياة لا تهتم
هل يهم اذا وقفت
أو جلست ؟
فتحت أو اقفلت ؟
من الافضل ألا تحلل
وجودك الخاص . . .
هكذا تقول النكتة الشائعة ! »

وهيلغا تعي جيداً انها مسجونة في مصح للامراض العقلية كالقفص . ولفرط عناية الطبيب بالمرضى ، فالقفص ذهبي لكنه قفص . انهم يطلونه من الداخل بالذهب لكنه يظل قفصاً بلا نوافذ . والقفص ليس الآخرين وحدهم . إنها هي ، بجنونها ، قد تحولت الى قفص مغلق أيضاً . والقفص مزدوج ، والشوق الى الحبيب كبير . . .

تصرخ هيلغا :
« انا احمل قلبك
في راحتي .
انه احمر ودافىء
حين ينقبض ويتمدد . . .
يا طفلي أنا العزيز ، العزيز
لماذا علينا أن نفترق
طفلي ، طفلي ـ يا صاحب القلب الارجواني الجميل !
ذراعاي القويتان ترعيانك :
يا حب أمك . . .
هل يمكن أن تسمع صرخاتي ؟
امك ترقص وتغني وتصرخ
بينما القفص الذهبي والبحر صامتان
أمك والمعاناة ـ نحن الاثنين ـ
وضعونا في القفص الذهبي

والقوا بنا في الدوامة .
وقلبك الارجواني يا طفلي
يمكن أن يرقب ذلك من الخارج ،
وتصرخ أنت ،
أنت ايضا تصرخ ،
ولكن عبثاً تذهب صرخاتك ،
فأنت لا يمكن ان تدخل
فالقفص الذهبي بلا أبواب
أو نوافذ ،
بلا عيون أو آذان ،
جامد .
استحال جامداً .
يا زهرتي المحطمة
يا ظلال ربيعي
يا حبي العذري ،
المحتجزون خلف هذه الجدران
استمع اليهم ، فأصرخ
ويجلجل صوتي :
استرخي ! استرخي !
وحلي عقد عذابك العقلي
وانتظري .
فلننتظر . وننتظر . وننتظر !
الا ترين فراش العرس الجميل
مرتفعاً نحو السماء ؟
المصحة المغلقة هي موت الجمال
لأن الجمال يموت
ويظل ميتاً
حين نكف عن أن نرويه

بالدموع وبفيض الحب .
دعنا نفك القيود
ونتحرر من الاربطة
ولنصهر بالنار
كل شيء . . .
فلا يعود هناك هو
ويظل الغريب فقط . . . أنا . »

وبعض أشعار المجانين ترسم صورة مذهلة لمرض الشيزوفرانيا (انفصـام الشـخصية وتعددها) . وقد كتب احدهم :

« أنت لا تعرف إلا غريزة واحدة
فحذار
ان تلقى الأخرى على الاطلاق !
ثمة روحان في صدري
واحداهما سوف تطلق الأخرى . . . »

وكتب آخر :

« هل اصبحت شبحاً
يزور مملكته ؟
أنا أرقب في ضعف
وصبر وهدوء
واسأل في دهش :
أما زلت أنا نفسي ،
أم احتل ذلك الآخر مكاني ؟ »

صرخـات . . . صرخـات

وكتب مجنون قرأ في احد الكتب أن الجنون يمكن أن يكون وراثياً ـ وكان له فيما يبدو جد مجنون :

« تعلمت في المساء ،
في احدى القرى
في حجرة صغيرة ، مع التنهدات ،

ان جدي هو السيد
سلفي السكير ، لا أنا . . .
أعرف الآن
ان جدي يضطهدني ،
رغم انه مات .
ويحدق فيَّ بعينين زجاجيتين
ويرقص على قمة رأسي . . .
وحين الوحش المفترس ،
ذو الصرخة الطويلة الحادة ،
يجعلني انطلق في وهدة الليل
فإنه جدي ، وليس . . . أنا
والآن ، سأقول ما أعرفه أنا بمفردي
اذا هاجمني مرة اخرى معولاً
فلن أستطيع أن أصارع ،
من هو أنا !
لذلك ،
فانا أكتب أشعاري على الماء . »

ولكن هل هو وحده الذي يكتب أشعاره فوق الماء ؟ أليست الحياة كلها سطوراً فوق الماء أو رسوماً على رمل الشاطىء ؟!.

لقد كتب أحد الشعراء المجانين هذه الصرخة :
« واضحة وضوح النهار ،
ـ وعباءة الليل السوداء ،
هي حالتي .
فجنياتي تتهددني بالفناء
« لاذاتي » تعذبني في الليل والنهار
ولا استطيع دفع المعاناة
ما دامت قدري
ثمة ذات ثانية في داخلي ،

تقتل ذاتي الحقيقية ،
وهي في الواقع
قد قتلتها تقريباً .
وما افظع أن أشهد ذلك !
إنني أحبس أنفاسي
وأشهد صيحة المنتصر !
تحتدم المعركة
بيني وبين « لاذاتي » :
واحدة من الاثنتين
يجب أن تمّحي ، يا للمحاولة !
فالصراع سيدمر روحي
ولذا أفكر في الموت كثيراً .
وحين تستسلم إحدى الذاتين أخيراً
فمن المؤكد أنني
سأكون قد مت .
وحتى ينتهي قلق تحطم الاعصاب
أريد أن أعرف جواب السؤ ال ـ
من أنا ؟ ! . »

ويعلق الدكتور استيفان بنديك على هذه القصيدة بقوله : « إن المرء هنا يساوره الاحساس بأنه لا توجد ذاتان فحسب وانما ثلاث ، والثالثة هي تلك التي يرعبها مراقبة ما إذا كانت الذات الاولى ستنتصر ام الذات الثانية . فالفصامي لا يعذبه الصراع المحكوم عليه بالفشل فحسب ، وانما يتعذب ايضا لعجزه عن معرفة أي الشخصيتين هي ذاته الحقيقية . والشك يسلمه لليأس . »

الغيبوبة الشعرية

المجنون ، « أمير الحزن » و «صاحب الدموع الماسية » ، كان يسمي مرضه « الغيبوبة الشاعرية » مثل إدغار ألن بو (مات في احد المصحات ، وكافكا ايضا) وفرلين وهوفمان الذين عبروا هذه الغيبوبة . ولعل كبار الفنانين كانوا في لحظات العبقرية يجتازون ذلك الخيط الواهي الفاصل ما بين الوعي واللاوعي ، وابداعهم هو حصيلة رحلتهم الى

الداخل ، التي هي مصدر كل إبداع . ولكن المجنون هو نازح الى الداخل ، وربما لان العودة الى الداخل وحدها لا تكفي ، تظل اصواتهم خافتة ، وربما كان الابداع هو القدرة على الغوص الى رحلة المتاهة في الداخل دون الدمار الكلي النهائي ، والقدرة على ذلك مع القدرة على وعي الخارج في آن واحد !

ربما ! . . ولكن يظل بارمينيدس على حق حين قال : « ليس خفيا ان الشعراء والمجانين مرتبطون بعضهم مع بعض بطريقة ما ، فكل من الشاعر والمجنون غير راض ، وكل منهما يستريح على وسادة عبادة الذات ، وكل منهما يوقن أننا لا نساوي إلا ما نساويه أمام أنفسنا . . . »

اعطنــا جنونــا

إن أي دارس حيادي لشعرنا العربي المعاصر ، سيجد فيه كل شيء إلا الجنون . سيجد فيه الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والفيزياء والهندسة وعلم المحاسبة ، وحتى الطب والتشريع والاقتصاد ، ولكنه لن يجد فيه لمسة جنون ملتهبة . وتلك شهادة ليست في صالح شعرائنا الكبار الذين اتقنوا تدجين أنفسهم وفقدوا لمسة الجنون : أي الشعر ! . . .

السحـــــــر

« كذب المنجمون ولو صدقوا . . . »

ـ حديث شريف ـ

« ما نزال حتى اليوم على عتبة اكتشاف الطاقـــات اللامتنـــاهية لدمـــاغ الانسان . . . »

ـ جيروم برونر ـ

١٩٧١/١٢/٣١

السحر عندنا : هرب من المسؤلية الى الغيبيات

هنالك عالم عجيب غريب ، مسكون بالدهشة والاسرار ، تفوح منه رائحة البخور واللوعة والتوق الانساني الى المجهول ، وتلفه شرنقة الظلمات التي تحيط بأسرار الوجود ، بينما أيدي ملايين البشر تمتد نحوها بشراسة راعشة ضارعة ، محاولة عبثاً تمزيق الشرنقة ، وكشف خفايا الماضي والمستقبل . . .

عالم عجيب غريب يحيط بنا جميعا ، وجدتني أصطدم به فجأة ، وصدفة ، وبلا سابق انذار . . . عالم لا ادري اذا كنتم مثلي منفيين عنه ، لاهين عن وجوده ، ام انكم من بعضه ، وانني وحدي آخر من يعلم . . . ولكن . . . لولا ذلك الاعلان الذي قرأته مصادفةً منذ اسبوعين في احدى الصحف المحلية لظللت - لا ادري حتام - اجهل كل شيء عن بيروت الأخرى . . . بيروت المسكونة بالدهشة والغرابة (أم بالشعوذة ؟) . . . . لا أدري ! . . .

التكنولوجيا في خدمة السحر !

كان إعلاناً غير عادي ، يحتل مساحة عادية الى جانب بقية الاعلانات عن تأجير شقة ، وبيع قطعة ارض ، واستثمار بار ، ولدينا سيارات ومربيات وخادمات ، وغيرها من شؤون الحياة اليومية العادية . . . كان الاعلان يقول ببساطة : الفلكي . . . . ، يرد على جميع أسئلتكم ويشفيكم من كل عقدة أو مشكلة . . . إلى آخره . . .

وجدت الاعلان طريفاً . . . إعلان يريد ان يبيعك اسرار الغيب ، الى جانب اولئك الذين يريدون بيعك السيارة والمكنسة الكهربائية . . . إعلان يريد ان يجري حسابات لحياتك وحظك ومماتك ، الى جانب اعلانات عن الآلات الالكترونية الحاسبة ! . . .

احببت طرافة هذا الجوار بين العلم والخرافة ، ودفعني فضولي الفكري للذهاب الى (الفلكي) والتفرج على نموذج انساني لم يسبق لي الاحتكاك به من قبل لأسباب كثيرة ، اولها انني لا اؤمن بالعرافين والمنجمين . . .

والواقع انني ذهبت اليه نصف ساخرة ونصف مشفقة لامارس هوايتي الشخصية : رصد النماذج الانسانية العجيبة . ولم يخطر ببالي انني سأصطدم بظاهرة تستحق التأمل والدراسة . . . ظاهرة الفلكيين والسحرة والمنجمين وضاربي المندل ومحضري الارواح الذين يملأون كل حي في اكثر مدننا العربية ، والذين لا يخطر ببال أحد مدى انتشارهم في بيروت بالذات !

دائرة قضائية وغرامية وعلاجية

وهكذا وجدتني اقوم بجولة في بيروت كنت اجهلها طيلة ٨ سنوات ـ سنوات اقامتي فيها ـ ، بيروت السحر ، بيروت العيون التي تومض بالدمع وترسم النجمة السحرية الخماسية ، وتتمتم برقية غامضة الألفاظ وتحرق البخور والزيوت ، وتمارس طقوساً غامضة مختلفة ، وتنادي ملوك الظلمات وأمراء الغرابة ، وتدق جدران رحم الغيب لتطّلع على ما يحويه من أسرار . . .

وقمت بزيارة أكثر من ٣٠ منجمة ومنجماً ، يحملون مختلف الاسماء من (الشيخ) فلان الى (الطبيب الروحاني) كذا . . . وفوجئت بأن بيروت تلجأ لحل اكثر مشاكلها الى غرف المنجمين : السرقات . . . المشاكل العاطفية . . . الأمراض . . . وحتى أمور النجاح في المدارس أو الرسوب . . . كلها تطرح وتحل في دور المنجمين التي تعمل أكثر من دائرة قضائية ، ومحكمة شرعية ، ومركز طبي ، وصيدلية تصرف علاجاً ينتمي الى عصور ما قبل « البنسلين » بأجيال طويلة . . . واذا كان لكل محلة في بيروت مختارها ، فان لكل محلة ايضا منجمها الذي يمثل مركزاً من مراكز القوة الحقيقية ـ للاسف ـ فيها .

وفي جولتي في «بيروت ـ السحر» التقيت بنماذج كثيرة من المشعوذين . . . بينهم الاغبياء والاذكياء ، المكشوفون جداً ، والمكشوفون بصعوبة ، والتقيت بامرأة واحدة لفتت نظري الى ما تملكه من موهبة معينة وظاهرة لا يرفضها العلم وإن كانت غير عادية وخارقة ، ولكن لا علاقة لها (بالسحر) في نظري .

رافقتني في جولتي مجموعة من الصديقات اللواتي يمثلن الطبقة العربية المتعلمة والمثقفة . . . ولم تجرؤ واحدة منهن على الاقرار امامي علناً بايمانها بمثل هذه الامور ، لكنني لاحظت خلال زياراتنا المتكررة، أنّ بعضهن يؤمن إيماناً كاملاً بما يدور ولكنه يخفي هذا الشعور ، وبعضهن مثلي يدفعه فضوله الى اكتشاف عالم لم (يحتك) به من قبل . . .

العالم مسطح ، والنسر متعب

بدأت الجولة بالفلكي صاحب الاعلان . ذهبنا اليه وكنا ثلاثاً بيننا صديقة تصادف انها حامل ، واخرى صحافية معروفة ومثقفة . . .

وصلنا الى حي رأس النبع حيث بيته و (مكتبه) . . . سألنا أول عابر سبيل ودلنا عليه فوراً . كان واضحاً انه معروف جداً في الحي ، وان عدداً كبيراً من الناس يطرح السؤ ال نفسه كل يوم . . . وهاجت في رأسي مشاعر غاضبة ، فقريباً من داره يقع مكتب حزبي تقدمي ، ومكتب فدائي سري سابق . . . الحزب والفداء وكل ما يرمزان اليه من عمل منظم واع ، مخطط واضح وعصري ، واعتماد على الطاقة الذاتية ، والعمل والمبادرة الشخصية ، وكل ما يجسد ذلك من تحمل كامل للمسؤ ولية ، ودار (الفلكي) بكل ما ترمز إليه من رمي للمسؤ ولية ، على عاتق القضاء والقدر والنجوم وحسابات الولادة وقوى ما وراء الطبيعة والجان . . . .

ولا ادري لماذا قفز الى رأسي اسم فلسطين بحدة وشراسة (وفلسطين لا تمثل في نفسي الارض التي ضاعت ، بل وبقية الاقطار العربية التي لا مفر من ان تضيع ومن ان يصير اسمها «فلسطين » اذا استمر كل ما في وطننا العربي من تخلف في كل المجالات متابعاً مسيرة التفاهة والخطابية الفارغة واللاتخطيط وايثار المصالح الذاتية المعجلة) . . . أجل ! قفز الى رأسي اسم فلسطين ، وحزنت اكثر فيما بعد حينما اكتشفت ان مكاتب المنجمين تكاثرت بعد هزيمة حزيران وأنها تجاور احياناً مكاتب التطوع للعمل الفدائي .

وهكذا دخلت الى دار الفلكي واسم فلسطين خنجر مدفون في احشائي وكنت شبه عدائية ولكنني جهدت ان اكون حيادية حينما سألنا الفلكي ماذا نريد .

وكان يحدق في وجه صديقتي الحامل ولم تجب وذهلت ، فالمسكينة جاءت بعد إلحاحي ولا علاقة لها بما يدور ، وكان علي ان أجيب عنها ، انا التي زججت بها في هذا المأزق ، وتأملتها ، وكان أبرز ما فيها هو (بطنها) ، لذا وجدتني اسأل : تريد ان تعرف هل ستنجب بنتاً ام ولداً ؟ ! . . . وتوقعت ان يضحك الجميع للنكتة . لكن احداً لم يضحك ، وسألها المنجم عن اسمها . اسم امها ووالدها وتاريخ ولادتها . وادهشني انها اجابته جادة ولم تكذب . . . ولم ألمها . . . كان في الغرفة جو من التهديد السري بقوى خفية . . .

وتلفت حولي بحثاً عن تبرير منطقي لشعوري هذا . . . كانت رائحة البخور تملأ المكان . . . وسحبه تتصاعد كأشباح قادمة من الغيب ، وتملأ الجو بنوع من الرهبة

الغامضة . . . كتب عتيقة تملأ رفوف مكتبة ، وتوحي بانها كتب من السحر ، لو قرأها لاستنفر جيشاً يخترع لك فنوناً من التعذيب الجحيمي لا تخطر ببال . . . وهناك نسر محنط كبير وجهه متعب كوجه الفلكي ، ومع ذلك تحس بانه قد يمتلىء بالحياة والحركة فجأة ويهب عليك غارساً منقاره الطويل المعقوف في عينيك . . . وسط هذه الايحاءات الخانقة ، وصوت (الفلكي) الهادىء الواثق من نفسه ، نصف الآمر ، الشبيه بصوت منوم مغناطيسي ، كانت صديقتاي تردان بصدق على كل سؤ ال يطرحه عليهما ، وحتى تاريخ ولادتهما اجابتا عليه بصدق دون تردد . . . ولما كنت من تركيبة عاطفية معينة يمكن للاجواء أن تسيطر عليها ، ولما أحسست بأن عدوى السقوط في فخ (الامبيانس) تكاد تصيبني ، تنفست بشدة لاطرد من صدري البخور والاشباح ، ونهضت الى المكتبة لاتأمل كتبها ، فوجدت بينها موسوعة المعارف البريطانية (انسايكلوبيديا بريتانيكا)التي تضم خلاصة المعرفة البشرية العلمية والفنية حتى اليوم . . . والى جانبها على المنضدة كرة ارضية كبيرة مددت إصبعي اليها فدارت دورة كاملة وركضت أمام عيني ملايين المدن . . . الموسوعة البريطانية ، ، والكرة الارضية ـ الارض مستديرة وتدور ـ وها نحن هنا في عصور ما قبل كولومبس وغاليله ونيوتن ، في عصور الارض المسطحة والسحرة الذين يقررون لملوكهم وقت الحروب . . . وكدت انفجر ضاحكة وانا اتأمل الكرة الارضية أمامي ومع ذلك أمارس طقوس ما قبل اكتشاف كروية الارض . . . وانكسر جو الرهبة ، وعدت اتأمل الرجل الفلكي . . . وشاهدت اكثر من أية لحظة أخرى تجاعيد وجهه المتعب ، وحالته الصحية المتوعكة . . . ووجدتني اواجهه بالاسئلة دونما حرج . . . كيف تستطيع أن تعرف الرد على اسئلتنا ؟ وعلى أي اساس ؟ وكيف تعالج الامراض وبينها السكري كما تدعي ؟ كيف كيف كيف ؟ انا من جيل لن يصدق اذا لم يفهم ، أي اذا لم تمر المعرفة بطريق رأسه ، انا من جيل صار يرفض كل ما يأتيه عن طريق القلب وحده دون أن يمر بمراكز مراقبة الرأس . كيف كيف كيف قل لي !! . . .

وقال لي كلاماً كثيراً لم يقنعني أنا شخصياً ، لكن يبدو أنه يقنع الكثيرين سواي لا في بلدنا الحزين النامي فحسب بل في اوروبا واميركا الذرية المعاصرة ايضا ! . . .

يزعم أن تاريخ ولادة الشخص واسمه واسم والديه تحدد حياته كلها . . . إن سير الكواكب وموضعها في افلاكها لحظة مولده امور تحدد مصيره وشخصيته . . . والتقاء شخصين في الحياة ونجاحهما او فشلهما رهن بالتناغم الكواكبي ، وبايقاع النجوم وابعاد مداراتها ومساراتها . . . وهو لهذا لن يستطيع أن يعطينا الجواب فوراً ، وانما هو بحاجة

الى وقت يقضيه في العودة الى كتبه ودراسة أبراجنا ومدى ملائمة توقيت مداراتها لما نرغب القيام به . . . وهو لذلك لن يعطينا الردود قبل يومين والدفع مقدماً ! . . .

فلكي لرواد الفضاء

بعد أن أعلن بانني منكرةٌ تماماً لحكاية الأبراج التي تقرر مصيرنا ، وقواها وتناغماتها التي ترسم خطانا، بحياد الشاكّين الشرفاء، أحب أن أذكر لقارئي بعض الحقائق المعاصرة عن علم الفلك والأبراج والناس، وهي حقائق أعرف أنها ستسر عدداً كبيراً جداً من المؤمنين المحليين بقضايا الابراج (لي صديقة حينما يعرفونها الى شخص جديد ، تسأله عن برجه قبل أن تسأله عن اسمه أو عمله . واذا أعجبها برجه ، تابعت الحوار والا تجنبته فوراً !) . . . اما في اوروبا واميركا فان حكاية الابراج وعلم الفلك عادت لتعيش عصر بعث (رينيسانس) جديداً. . . هنالك في باريس محام مشهور يختلف اسلوب مرافعته أمام القضاء ، وفقاً للبرج المولود فيه القاضي ، وبناء على تقرير يعده له فلكيه الخاص . . . وهنالك طبيب كبير يشخص المرض بناء على نصيحة فلكي يشاركه عيادته ، ويقوم بدراسة حول أبراج المرضى ! بعض رؤساء المصانع والشركات بدأوا بدعة جديدة هي مراجعة فلكيهم ، قبل توقيع أي عقد عمل جديد أو الاقدام على صفقة تجارية كبيرة وهي بدعة ليست جديدة . في الماضي كان الملوك يستشيرون عرافيهم في كل أمور الدولة من حروب ومجاعات وأحكام . . . وكانوا يؤمنون بتحذير عرافيهم . . . يوليوس قيصر الذي لم يستجب لتحذيرات عرافه مات كما تنبأ له العراف (مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير) والعراف نفسهُ بُعثَ حياً في عصرنا وتنبأ لكنيدي بمصرعه على طريقة مصرع يوليوس قيصر ، « أنا شخصياً أعتقد أنها مُصادفة » .

وفي فرنسا يلجأ كثير من الوزراء والنواب الى المنجمين لتحديد موعد المعارضة ، وتوقيت عرض القضايا والمشاريع على المجلس أو تأخير ذلك . . . (يبدو أن نوابنا ووزراءنا سبقوهم الى ذلك . . . فكل ما يدور عندنا هو أقرب الى أن يكون تخطيط عراف عابث ، منه الى تخطيط دارس واع ومسؤول) . . . أما في اميركا ، فان (النازا) ـ وهي الوكالة الاميركية التي تتولى شؤون غزو الفضاء ـ تستخدم سراً بعض المنجمين الفلكيين لرسم خريطة حول أفضل موعد لتوقيت هبوط أبولو على سطح القمر بالنسبة لابراج الرواد الذين تحملهم العربة الفضائية ! . . . والعالم الالماني الكبير « وورنر فان براون » الأب الأول لغزو الفضاء ، هو الذي يستخدم اولئك المنجمين في هيوستن حيث قمة الرقي

العلمي البشري (وهذه المعلومات كلها ليست من اختراعي وانما أنقلها اليكم عن العدد قبل الاخير من مجلة نوفيل اوبسرفاتور الفرنسية) . . . وبومبيدو سألوه مرة في التلفزيون سؤالاً حول التكهن بأمور سياسية ، فرد عليهم : لست « مدام سولاي » لأعرف الجواب .

من هي المدام سولاي

ومدام سولاي هي عرافة فرنسية شهيرة ، لها برنامج اذاعي في راديو (اوروبا ١) ينتظره الملايين ، ويقبل الناس عليها لاستشارتها بكثير من الخشوع ، ويحدثونها عن شؤون حياتهم بصدق ، كما لو كانوا على كرسي الاعتراف . . . وتقول الاحصاءات أن هنالك ٢٠ مليون فرنسي يواظبون يومياً على قراءة ما تقوله لهم أبراجهم في الصحف ، تلك الزاوية الفلكية التي صارت على رأي البحاثة الاجتماعي (ماكلوهان) - وفي مقال له بمجلة (نيو فيلاج) - تحل محل الكاهن والحكيم والطبيب . . .

وفي تجمعات « الهيبيز » بكاليفورنيا تُخطط الحياة اليومية صباحاً بواسطة احد المنجمين . وفي مسارح نيويورك ولندن وباريس وطوكيو وبرلين يردد الناس منشدين مقطعاً (فلكياً) من مسرحية « هير » يقول :

« عندما يصبح القمر في السماء السابعة وجوبيتر يعانق الزهرة ،

سيكون السلام الطريق المنيرة للكواكب ، والحب طريق النجوم .

ها قد اتى فجر عصر اكواريوس » . . . (أما فجر العصر الجديد أكواريوس فالمقصود به عصر الدلو) . . .

هذا الاجتياح الاوروبي والاميركي لعلم الفلك والعودة الى الغيبيات والمنجمين والعرافين له ما يبرره ويفسره هناك . . . إنه ببساطة احتجاج على مسيرة العلم المجنونة ، الهادفة الى تحويل الإنسان الى كومبيوتر ، والغافلة تماماً عن راحته الداخلية وسلامه النفسي الذي تعجز المجتمعات الاستهلاكية عن تأمينه للانسان ، واستخدام « هيوستن » للمنجمين إقرار بأن أسرار السموات ما تزال تحكم الانسان رغم غزوه لها . . . وهو إعلان عن رأي بسيط للناس هو أن العلم عاجز - حتى الآن على الاقل - عن الوصول الى جميع أسرار الوجود ومعضلاته ومنح الطمأنينة للناس خلال حياتهم . (الحياة ، تلك البرهة القصيرة التي تمتد بين لحظتي الولادة والوفاة) . . .

وعلماء المجتمع المشاهير : إدغار مورغان ، فيليب دي فرانس ، لينا بيتروسيان وغيرهم قدموا دراسة عن عودة السحر قالوا فيها : قبل ١٢ سنة كان السحر ذكرى أشياء

قديمة . . . وهو اليوم ردة على تسلط العلم والامبراطورية العلمية الكاسحة لإنسانية الانسان ، وردة على العقلانية المنطقية الذهنية ، التي تحاول تفسير كل ما في الوجود وفقاً لها . . .

ويرى الدارسون ايضا أن موجة العودة الى السحر في الغرب والتنجيم واجتياحها ، هو تعبير عن احساس الفرد العادي بأن (الحقيقة) لا يمكن الوصول اليها بالآلة والعلم فقط ، وإنما تجب العودة الى اعماق اللاوعي البشري والكون وتفجير المعرفة الانسانية الغامضة الكامنة في ذات كل فرد . . .

هذا عندهم .

أما عندنا . . . فما هو تفسير التهاب موجة الإبحار الى السحر والتنجيم والفلكيين ؟ . . . وهل هي امتداد للموجة العالمية واصداء لها ؟ . . . لا اعتقد . فإن ظروفنا الموضوعية مختلفة . . . وقبل أن أبدي وجهة نظري حول المدلول (غير المشرف) لما يدور عندنا أُتابع الجولة معكم في أقبية السحر في بيروت . . .

الكاباريه . . . والمنجّم

القبو فقير يقع في شارع الحمراء وهو ملاصق لكاباريه على واجهته ملصقات عن راقصات عاريات . تخدير للعقل . تخدير بالجنس . وفي القبو الملاصق تخدير آخر للعقل . تخدير بالسحر .

والمفروض أن بعض الصديقات اعددن المكان لحضور جلسة تحضير أرواح تلتقي فيها إحداهن بروح حبيبها الذي قتل في حرب ١٩٦٧ . رغم الظلام ، ورائحة البخور ، والوسائل التقليدية لتحضير الأرواح ، ظللت أشم رائحة العفن والبرد تنبعث من القبو ، ولمحت وأنا أدخل امرأة تخرج بسرعة وتجر خمسة أطفال صغار تتراوح أعمارهم بين السبعة أعوام والاشهر وكانت تسعل بشدة وكنت واثقة من أنها زوجة الساحر وأحسستها واولادها لافتة متحركة مكتوباً عليها : فقر . . . مرض . . . جوع . . . ظلم اجتماعي .

وأحسست برفيقتي القادمة للقاء روح حبيبها لافتة متحركة مكتوباً عليها :جهل . كسل . اتكالية . هرب من الحقيقة .

أما الساحر فلم يكن حتى ذكياً . . . كان يعتمد اعتماداً كلياً على غبائنا . كان الفقر بادياً عليه (يبدو أنه ما زال جديداً في الصنعة ولم يغتن بعد) . . . شيء ما في حركاته المرتبكة وهو يعد أدوات الجلسة ، جعلني أشعر بأنه كان من قبل جرسوناً طرده صاحب المقهى . . . ووجدتني أبتسم للفكرة . لاحظ ابتسامتي ، ونظراتي المتفرسة الحرة غير

الواقعة تحت هيمنته ، اللامبالية بكل مؤثراته الضوئية والصوتية ،وهنا قطع الجلسة فجأة مشيراً اليَّ (وكنت ساعتها أتلصص خلف الستائر لأرى هل أخفى وسيطاً أو آلة تسجيل) ، وقال بصوت يرتجف غضباً : أنت . نعم أنت . الروح ترفض أن تحضر وتقول انك غير مؤمنة . نرجو أن تخرجي لتدخل الروح .

وخرجت لتدخل روح الدجل التي تهرب من أمثالي ، وغادرت الباب العتيق ذا القفل الصدىء وكلمة فقر مزروعة في الدهان المتآكل وسعال المرأة ما يزال يملأ الدرج وأحسست أنني أغفر (للجرسون المتقاعد) شعوذته . . . فالفقر في نظري كلمة تغفر لحاملها كثيراً من التجاوزات ، والفقر في مجتمعات استغلالية استهلاكية كمجتمعاتنا يبرر حتى وجود المجرمين اذا لم تأت حركة منظمة تخطط لغضبهم وتحولهم الى ثوار واعين . . . ومع ذلك قررت أن أنتظر رفيقتي على الرصيف ، لأقول لها أنها تستطيع أن تلقى حبيبها القتيل لا في اقبية الدجالين ، وإنما في ضوء النهار اذا حملت سلاحها وانتسبت الى حركة تتابع ما قتل ذات يوم بسببه . . . وأنا أنتظر وقفت أتأمل واجهة مجاورة فيها معاطف فخمة لا يقل ثمن واحدها عن ٨٥٠ ليرة لبنانية ، وكانت تلك الواجهة تمثل القهر الطبقي في هذا البلد ، ومر بي شحاذ صغير عيناه ذكيتان ويبيع الشيكلتس وتمنيت لو كان في مدرسة حتى ولو اضطر والده الى أن يعمل منجماً ومحضراً للارواح . . . ثم مرت بي عربة اسعاف تنوح وتركض مسعورة في المدينة . . . كم نحن بحاجة الى آلاف من عربات الاسعاف تكنس من شوارعنا وأقبيتنا ، أحياءنا الموتى الذين صرعهم الجهل !

فنجان القهوة والورق والزيت

ودخلت أقبية كثيرة في مختلف الاحياء البيروتية ، بل وفي ضواحي بيروت والجبل . . لاحظت أن الاحياء الفقيرة تعج بالمنجمين أكثر من الاحياء الغنية . . . وبيوتهم تغلي بالناس اكثر من عيادات الاطباء ومخافر الشرطة وتكايا الاولياء وساحات الجوامع وقاعات الكنائس . . . منجمين من كل صنف ونوع . . . بالورق . . . بفنجان القهوة . . . بضرب المندل . . . بالودع . . . بالكتب . . . عيون تتعلق بهم بضراعة ، تنتظر كلمتهم كأنها كلمة قاض يتلو عليهم حكماً مبرماً لا سبيل لنقضه أو الهرب منه . . . نماذج لا حد لها من الشعوذة المكشوفة أو الذكية . . . وسمعت حكايا لا تصدق . . . ذهبت الى أحياء ملاصقة للمخيات الفدائية التي تمثل في نظري تصميم الانسان على صنع قدره وحمل مسؤ وليته ، ولكنها كانت محاصرة بأحياء مزروعة بالمنجمين . . . في برج حمود ، سرت بسيارتي عكس اتجاه السير ، لكثرة ما فوجئت وذهلت . . . وحينها اوقفني شرطي

السير بادرته بالسؤال : اين بيت المنجم ؟ فتهللت اساريره ، وأرشدني اليه بكل فخر وكأنه شارة سير الى بيت المنجم لا شرطي يمثل سلطة الدولة والقانون ! . . . كأن الولاء لشريعة السحر وعشائريتها ، هو فوق الولاء لشريعة الدولة . . . ودلني بعض النسوة على منجم آخر . . .

وتابعت الرحلة ترافقني صديقة تتقد بروح المرح . . . وسرنا نسأل عن بيت المنجم « جميل » . . . ووجدتني فجأة في (الريف) أركض في شوارع غير معبدة داخل بساتين الخس والكرنب وأشجار كثيفة . . .وسألت شاباً عن الطريق ففتح باب السيارة ، ورمى بنفسه على المقعد الخلفي قائلاً إنه سيدلني بنفسه . شيء ما في وجهه ملأني بقشعريرة الخوف . بعد برهة طلب منا التوقف أمام فرن ، ولا ادري لماذا هجمت الى رأسي كل الحكايا البوليسية التي قرأتها وكل افلام جيمس بوند وتخيلت نفسي ورفيقتي نشوى في الفرن ونحترق وغداً يأكل الناس خبزهم دون أن يدروا أنه كان مخبوزاً على (نارنا) بالمعنى الحرفي للكلمة . . . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وإنما خرج الفران ليدلنا بحماس على بيت قرب شجرة صنوبر شامخة . . . وذهبنا وأعصابنا ترقص مذبوحة ، وربما لذلك فتحت صديقتي أمل نافذة السيارة صارخة : هل هنا بيت المنجم جميل ؟ . . .

وركضت نحونا جارة شمطاء لها عين واحدة كنساء الاساطير وصرخت برفيقتي معنفة : لا تقولي المنجم جميل لا تكفري . قولي الشيخ جميل ! الشيخ جميل ! . . .

عند هذه النقطة أحب أن أتوقف ، وهي أن أكثر المشعوذين يتأبط القاباً دينية ، ويربط ربطاً مجرماً بين الدين والسحر . . . كأن يتلو آيات قرآنية يتمتم بعدها بقراءات سحرية أو يبدأ جلسة السحر أو المندل بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، والذي أعرفه أن الدين الاسلامي لا يشجع السحر ولا العرافين و(كذب المنجمون ولو صدقوا) . . .

والمهم أننا وجدنا أن (الشيخ جميل) شاب صغير في العشرين ، وأنه عزف عن الغيبيات وانتسب الى الجامعة فبلادنا بحاجة الى حملة الشهادات من الانس لا الى العفاريت والجان . . . وأمه لم تقل ذلك بالضبط وإنما قالت بحسرة إنه في الجامعة . . .

وهربنا من الدار المنعزلة يلاحقنا صياح الديكة وشبح بئر عتيقة الى جانب الدار . رسمت لي افكاري « الهيتشكوكية » نفسي وصديقتي مخنوقتين مرميتين في قعر البئر والمطر ينهمر علينا والجارة المفترسة العجوز تنادي شمشريخ . . . ارتميس . . . يا ملوك الجان . . . هنا الملحدتان ! . . .

السحر والجنس

واذا كان اكثر المنجمين عندنا يصر على توكيد العلاقة بين الدين والسحر فيحوقل ويُبَسْمِل ويتمشيخ ، فان قلائل هم الذين يعلنون عن العلاقة بين السحر والجنس رغم الرابطة التاريخية الوثيقة بينهما . . . وقد استطعت أن أشهد تجربة سحرية جنسية فريدة أجدني عاجزة تماماً عن ذكر أسماء أصحابها ، كما أجدني عاجزة عن التكتم عليها تماماً رغم أنني وعدت نفسي وأصحابها بذلك .

امرأة هي الوسيط (تركبها) الروح وتنطق بصوت رجل لا بصوتها الطبيعي وذلك أثر اتحاد جسدي مع الساحر يتم على نجمة كبيرة خماسية مرسومة على الارض بمادة دموية . . . ويرتدي الساحر ثوباً اسود وقناع حيوان ويبدو مثل الوطواط الكبير الذي حط على ضحيته المرتدية ثوباً ابيض عريضاً معلقاً من كتفيها على طريقة الذبائح البشرية الاغريقية التي كانت تقدم للالهة . . .

وقد خرجت من هذه التجربة الوثنية المجنونة ، بكثير من الذهول ، أمام تحايلات الانسان المختلفة وطقوسه وتمثيلياته لممارسة الجنس ، والاتخاذ من سطوته سلاحاً يخلق وهم السحر لدى الوسيطة والحضور . . . إنه نفسه الجنس الذي تمارسه حيوانات الطبيعة دونما ادعاءات ولا مسرحيات ولا طقوس ولا زيف . . . وهنالك ايضا في بيروت (شيخ)تقصده الارامل ، ويقابلن خلاله روح المرحوم خلال عملية جنسية يمارسها معهن ويقنعهن اثناءها أن روح المرحوم تحل في جسده !

وهذه الطقوس الجنس ـ سحرية ، هي نوع من (السحر) الشائع والذي لم يعد سراً ، وقد كتب الاديب السوري زكريا تامر قصة رائعة حول هذا النوع من الشعوذة الذي ينطلق من مرتكزات تاريخية وديانات خاصة . . . ففي الهند ديانة تقوم على عبادة الاعضاء (إياها) ولها معبد ضخم فيه تماثيل منحوتة في الصخر تمثل العضوين اللذين يبدعان الحياة عبر لقائهما . . . هذه كلها انتقلت الى بعض أقبية بيروت السرية ، واتخذت من (السحر)قناعاً يغطي الكبت والجهل . . . ولكن . . . ربما كانوا يصدقون حقاً ما يمارسون . . . لا ادري . . . كل ما أدريه هو أنني أنا لم أُصدق .

فاطمة موهبة خارقة

بين العشرات الذين شاهدتهم في جولتي هذه ، هنالك امرأة واحدة تتمتع في رأيي بقوة خارقة للقوى البشرية العادية اسمها فاطمة .

فاطمة امرأة جميلة سمراء جذابة الوجه جداً ، مشهورة جداً في بيروت ، وتروى عنها حكايا كالاساطير .

ذهبت اليها . دارها تعج بالناس . كل يروي عنها معجزات وقصصاً خرافية عن قواها . إن (عيادتها) تضم من الناس المنتظرين المتقاطرين عليها نساء ورجالا اكثر مما يضم مجلس الشكاوى الرسمي (لو وجد !) . تحيط بها مناظر غير محببة من هستيريا بعض السيدات في تبجيلها وهجومهن عليها لتقبيل يديها وقدميها ، شاهدت بعيني سيدة نذرت أن تأتي كل يوم لتقبل قدميها . وهي تأتي كل يوم . . .

والحق يقال أن فاطمة تمقت كل ذلك وترفضه وترجوهن تركها بسلام . . . واخيراً رحمتها المتزاحمات من هذا الحب المروع وتركننا نتحدث في سلام . لن أروي تفاصيل المقابلة حرفياً غير أنني خرجت بنتيجة ميدئية بعد الساعة التي قضيتها مع هذه المرأة المذهلة الآسرة وهو أنها قادرة على قراءة الافكار .

إنها قادرة على قراءة أي اسم يجول في خاطرك . إن أي شيء تركز عليه باخلاص ، تستطيع فاطمة بواسطة حاسة إنسانية مرهفة ونادرة ، تستطيع التقاط كهاربه وتعيه وتنقله اليك . إن هذه المرأة بنظري تملك موهبة مدهشة ، ومن الضروري أن تقبل الخروج من عزلتها ، وأن تسمح للعلم بدراسة حاستها غير العادية ، لان في ذلك ما يساعد على إلقاء مزيد من الاضواء على اسرار وخفايا النفس البشرية . إن موهبة فاطمة لا ينكرها العلم ، وهي موجودة لدى جميع الناس بشكل خفيف جلي وضئيل وشبه أعشى ـ وكل منا يدرك عن طريق الحدس اموراً كثيرة ويدله احساسه على حقائق يتأكد منها داخلياً دون أن يكون هنالك منطقياً ما يبررها . . . إن موهبة الحدس نامية لدى هذه المرأة الى درجة نادرة ، والى حد يثير التساؤ ل : ترى هل كان جميع الناس في عصر من العصور مالكين لهذه الموهبة ، ثم انقرضت فيهم لسبب ما ، كما تنقرض وتذبل كل الاعضاء والحواس التي يكف انسان عن استعمالها ؟ .

إن تجربتي مع فاطمة كانت تجربة قراءة أفكار . وأقر بأنها كانت تلتقط كل الكهارب التي كنت أبثها اليها . وأقر بأنها تملك راداراً فكرياً مدهشاً لا يمكن لاي كمبيوتر أن يحاكيه . . . إن موهبة فاطمة من بعض الادلة القليلة الباقية على عظمة الطاقات الانسانية ، إذ إن العلم عاجز تماماً عن صنع أي كمبيوتر يستطيع أن يلتقط أفكاري ويقرأ ما يدور في نفسي وأنا صامتة تماماً . . . أقر بهذا كله انا المرأة الواقعية التي لا تطالني الشعوذات ولا تهزني الخرافات ولا اؤ من الا بما أعيشه . . .

ولكن هذه السيدة لفتت نظري بموهبة قد لا تأتي سوى مرة بين كل مليون شخص . في كتب العلوم وصف لحالات نادرة مشابهة كحالتها .

الهرب الى الغيبيات ترف

في دراسة لا ادري أين قرأتها وقد تكون هي أفكاري الشخصية يمكنني القول : إن انتشار السحر ظاهرة تعبر عن أشياء مختلفة وفقاً للمجتمع الذي تنتشر فيه وظروفه الموضوعية من مادية وسياسية وتاريخية . . . وإنها تزداد انتشاراً لا في حالات الترف العلمي والفكري وحسب ، وانما ايضاً في حالات الاملاق العلمي والانحطاط الفكري وفي المجتمعات المتخلفة فتزيد في تخلفها . . . وان هذا هو الحال في بلادنا . . .

واعتقد أن ازدياد موجة الهرب الى السحرة والمنجمين ، هو مظهر من مظاهر اتكالية الفرد العربي ، واعتماده على الغيبيات وتهربه من المسؤولية . . . ها هو يتجه تارة الى عبادة الفرد وقبول الديكتاتورية وتأليه الحاكم كي يحمّله وحده مسؤولية استعادة فلسطين وحل مشاكله القومية كلها . . .

وها هو تارة اخرى يستأجر عقل المنجمين ليحلوا له متاعبه الشخصية ، وليشاركوه مهمة القاء مصائبه على سير النجوم والافلاك والابراج . . . وليحملوا الجان مهمة القتال والبحث عن السرقات واستعادة الحبيب الضائع والارض الضائعة . . .

اغلقوا مكاتب السحرة والمنجمين وحولوها الى مكتبات علمية والى مكاتب تدريب على حمل السلاح . . . ذلك هو السحر الحقيقي في مرحلتنا الراهنة . . . إن أمانينا لن تحققها رائحة البخور وإنما رائحة البارود . . .

أسرار طاقة الدماغ

« وراء الحياة والحلم يوجد ما هو أكثر أهمية : اليقظة ! »

ـ انطونيو ماتشادو ـ

« ان إمكانيات التطور الخلاق في الدماغ الإنساني لا متناهية الابعاد » .

ـ ويليام جيمس ـ

طالما تساءلت : أليست الكرة الارضية « منظمة » واحدة ، ما دام كل ما فيها ومن فيها شديد الترابط مع الآخر؟ . . وفجأة ، وعيت أن الأمر هو أكثر بساطة ، والعلاقات أكثر التحاماً ، والكرة الارضية بكل ما فيها ومن فيها : خلية واحدة ! . . .

ـ لويس توماس ـ

١٩٧٥/١٠/٦

ثورة الدماغ

تستطيع حمله في كفك ، ومع ذلك فهو أكثر وحدات الكون تعقيداً ! . . .

وزنه لا يزيد على ١٥٠٠ غرام ، ومع ذلك فيه من الخلايا ما يفوق عدد سكان الارض كلها بثلاث مرات ! .

إنه الدماغ ، الذي تخاف عليه عادة من الرصاص الطائش ، وتغسل صندوقه (بالشامبو) ، وتحمله معك أينما ذهبت ، وتحاول التخلص منه احياناً بالنوم او المخدرات أو الكحول . . . دونما جدوى . . .

إنه الدماغ ، أقدم اكتشافات الإنسان ، وأحدثها . . . وها هو عصرنا يعيد اكتشاف الدماغ ، وأسراره ، لاجئاً إليه من أمراض العصر وتعقيدات مجتمعات التكنولوجيا . . .

وها هو العلم يلجأ أخيراً الى « ثورة الدماغ » ، بعد إفلاس ثورات أخرى متعددة ـ كثورة الجنس الاميركية مثلاً ـ في منح الفرد المعذب المعاصر والمستقبلي ، درباً للخلاص الانساني .

« ثورة الدماغ » في مواجهة « صدمة المستقبل » !

منذ خمسة أعوام ، حين أطلق ألفين توفلر ، العالم الاجتماعي الاميركي ، صرخة تحذيره لإنسان العصر في كتابه « صدمة المستقبل* ـ FUTURE SHOCK» لم يكن يبالغ . . .

كانت صرخته حادة وعالية ، كالشهقة الاخيرة في حنجرة مذبوح . . . وكان موجز هذه الصرخة يقول : كلنا مقبل على انهيارات نفسية وروحية وعصابية خلال ربع القرن المقبل ، وذلك نتيجة لمواجهة المستقبل الذي يتبدل بسرعة مروعة لم يعتدها أحد ، وقد لا تقوى على مواجهة التواترات والضغوط الشرسة التي تسببها إلا قلة . . . فالمجتمعات ذات

---

* كتاب صدمة المستقبل FUTURE SHOCK تاليف ألفين توفلر ALVIN TOFFLER .

المستوى التقني العالي مصابة كلها بخطر الانهيار النفسي لأنها تواجه تسارعاً في التغيير يتجاوز كل ما عرفه الانسان في تاريخه من قبل » .

وحتى في بلادنا العربية التي ما تزال تنعم نسبياً (ببركات) التخلف و (البلدان النامية) ، فكلنا يشعر بأن العالم حولنا يتحرك بسرعة ، القيم التي نشأنا عليها تنزلق من بين أصابعنا كالزئبق ، العلاقات مع الآخرين على صعيد العمل أو الصداقة أو الحب بحاجة الى قواعد جديدة ومعادلات جديدة وتوازنات جديدة وتعبيرات جديدة . . . كلنا نتغير ، ونعي من وقت إلى آخر ذلك ، ونعي أننا أيضا نلاحق عالماً يتطور ويتغير بسرعة هائلة دونما رحمة ، ودونما (انضباط) بالنسبة لبعض القيم والمفاهيم التي سبق لنا أن انطلقنا منها بكل ثقة ويقين . . .

كل ذلك يخلق ضغوطاً وتوترات نفسية مروعة ، وبعضنا يهرب من مواجهتها برفض عالم العصر ، ونفيه ، ونعت كل ما حولنا ومن حولنا بالجحود (والقذارة) ، وبعضنا يجد في ذاته القوة والصلابة النفسية لاستيعاب ما يدور ، محاولاً اكتشاف المعادلات والتوازنات الجديدة بحيث تتابع غواصة عمره دربها في أعماق الحياة مع أقل قدر ممكن من (الخضات) ، والافتقار الى أوكسجين الحنان والمشاركة ، في ظل العلاقات الرخامية الشمعية الثلجية الجديدة . . .

ولكن ، الى أي مدى يستطيع الانسان احتمال زلزال القيم (البيسكاديليك) التسارع ، قبل أن تنفجر أعصابه ؟ وحتام تقوى أسلاك الاعصاب على الشد ، كأسلاك عود جُنّ عازفه ، قبل أن تنقطع ؟ . . أما من قوة جديدة إضافية يستلهمها الإنسان من داخله ؟ . .

رداً على هذا السؤال، تأتي باحثة اجتماعية اميركية هي ماريلين فرجسون باقتراح عتيق قدم الاغريق ، وحديث حداثة الأبحاث التي تسوقها إلينا في كتابها . . . الحل هو بثورة الدماغ . . تلك الثورة التي تغذي ثورات الانسان الصحية الاخرى ولا تتنافى معها وإنما تغنيها وتكسبها مزيداً من العمق والأبعاد الجديدة .

وفي كتابها « ثورة الدماغ »*، وعلى طول ٤١٥ صفحة من (الحرف الصغير) والقطع المتوسط ، تسوق الينا المؤلفة أهم الاكتشافات الحديثة في مجال دراسة الدماغ البشري ، داعمة بذلك نظريتها (ألخصها لكم موفرة عليكم قراءة ٤١٥ صفحة) : إن في دماغ

---

* كتاب ثورة الدماغ THE BRAIN REVOLUTION
تأليف ماريلين فرجسون MARILYN FERGUSON

الانسان طاقات مذهلة ما زال إنسان العصر يجهلها، وإن العلم الحديث قد صور سطح القمر وكشف أسراره لكنه ما يزال قاصراً في مجال أسرار الدماغ . . . وأن هذه الدراسات يجب أن تنشط ، لنعرف المزيد من كيفية التحكم بذلك الكومبيوتر العظيم المجاني الذي يملكه كل واحد منا ويستحيل تأميمه أو سرقته ! . . . وتجد المؤلفة أن في تعليم الانسان المزيد عن أسرار دماغه ، وكيفية التحكم به ، إمكانية عظيمة لانقاذه من العذاب والتوتر ، والسطحية وكل مآسي إنسان العصر ، بالإضافة الى امكانية تحقيق حلم الانسانية العتيق بكشف أسرار الوجود والحياة والموت ، والتواصل مع الوجود الكوني العظيم بحيث يكف الموت البيولوجي عن أن يكون نهاية ، ويصير فاتحة للانتقال من حالة إلى أخرى . . .

كيف ؟ بتذكيرنا أولاً بدماغنا المنسي ، وبطاقاته المبدعة الخلاقة التي تختلف عن صورتنا التقليدية عنه ، تماماً كالفرق بين أشعة الشمس ، وأشعة مصباح قوته ١٠٠ شمعة !! . . . وهي لا تكتفي بما يؤكده العلماء في هذا الشان ، بل تستلهم أيضاً أقوال الشعراء والفلاسفة الذين سبقوا العلماء بعصور إلى وعي طاقات الدماغ .

العلم المعاصر يتحدث ببساطة عن زرع الدماغ (على طريقة زرع القلوب) ، وعن تزويد النطف بمواد كياوية معينة تساهم في خلق أجنة ذات دماغ متطور (سوبر دماغ) ، وعن استبدال العلاقات الزوجية المتعارف عليها منذ أيام آدم وحواء بشحنات كهربائية موجهة الى مراكز اللذة في الدماغ ، وكفى الله الناس شر الزواج والطلاق وغيره من العلاقات البشرية الموجعة . . . (وهكذا ، وبدلا من أن يذهب الرجال الى الكاباريهات وبيوت اللذة ، سيكتفون بالذهاب الى المختبر العلمي ، وقد يضعون في ثقب الآلة الكهربائية قطعة نقدية تمنحهم الصدمة الكهربائية المطلوبة والرعشة المطلوبة ، وينتهي الامر !) . . . كل هذه التصورات المستقبلية تجدها المؤلفة أمراً عادياً وبسيطاً أمام ما يمكن للدماغ الإنساني ابتداعه واكتشافه ، وآفاق السلام النفسي التي سينقلنا اليها بسفينته الفضائية الخارقة . . . دونما أدوات علمية ولا تكنولوجيا . . . كل ما هو مطلوب هو العودة الى الدماغ الموجود منذ أقدم العصور والمنسي منذ أقدم العصور . . .

وإعادة اكتشافه . . .

وهي دعوة ليست بالجديدة على صعيد الكتاب والشعراء ، ولكنها فيما يبدو جديدة على صعيد أهل العلم والتكنولوجيا . . .

واذا كان ألفين توفلر مؤلف « صدمة المستقبل » يرى في عصر التقنية الحديث تهديداً

بدمار الانسان ، فإن المؤلفة ترد عليه في فصول كتابها الأخيرة ، وترى أن التكنولوجيا ليست ضد ثورة الدماغ بل انها عنصر هام ضروري لها ، وعن طريق العلم يجب إعادة اكتشاف الدماغ ، وبالتالي اطلاق طاقاته الجبارة الى أبعد مداها بحيث يكف الانسان عن أن يصير أصغر من الآلة التي تتهدده ، ويصير أكبر من الآلة والتكنولوجيا والادمغة الألكترونية . . يصير بحجمه الحقيقي ، وتنشط لا حاسته السادسة فحسب ، بل حواسه التي لا تحصى . . . وثورة الدماغ هي بالتالي عناق بين وعي الشعراء والفنانين وبين الانتصارات العلمية ولقاء بين روحانيات العصور الغابرة ومعتقداتها عن الإنسان وبين التكنولوجيا للعصر الحديث . . .

الدماغ . . الغامض

يقول سير جون ايكلز ، الفائز بجائزة نوبل لعام ١٩٦٣ : « اكتشاف الدماغ هو عمل لا متناه ، على الأقل لقرون عديدة مقبلة » . . .

فنحن حتى اليوم لا نعرف عن حقيقة عمل الدماغ وطاقاته أكثر مما كان المكتشفون القدامى يعرفون عن خارطة الارض والقارات وأعماق البحار . . .

المرضى الذين يخدرون تخديراً كلياً ، يسمعون الحوار الذي يدور بين الاطباء أثناء إجراء العملية . هنالك جزء غامض من مراكز الذاكرة يسجل ذلك . وقد استطاع بعض المتطوعين لاجراء تجارب علمية ، استرجاع كل ما قيل خلال تخديرهم تخديراً كلياً ، واستطاعوا بعد تنويمهم مغناطيسياً تذكر كل ما دار من حوار أثناء غيبوبتهم ! . . .

والدماغ شديد الحساسية للحقول المغناطيسية مهما كانت ضئيلة ، وقادر على (سماع) الموجات الضوئية والكهرطيسية والتقاطها والتأثر بها . . . بل ان الدماغ قادر بصورة خاصة على التقاط الموجات التي يبثها آخرون تربطه بهم علاقات عميقة .

وفي أحد مختبرات نيويورك للباراسيكولوجي ، أجريت هذه التجربة المثيرة . جيء بشاب وأمه ، وعزلا تماماً ، كل منهما في غرفة مستقلة . . . كان الشاب في حالة استرخاء وكذلك الام . . . ثم جيء بمسألة حسابية عويصة إلى الشاب لحلها ، ووضعت أمامه ، وبدأ يجري الحسابات في دماغه ، وبينما هو غارق في حمى العملية الدماغية الصعبة سجلت الآلات في غرفة الأم ارتفاعاً مفاجئاً في ضغط الدم ، متوافقاً مع عمل الابن الذي لا تعرف عنه شيئاً !

ويعدد الكتاب عشرات من التجارب المماثلة في مختبرات العالم أجمع ، وما كان يدعوه الناس « الحاسة السادسة » ، لم يعد أسطورة خرافية بل حقيقة علمية ، وحاسة من

عشرات الحواس الأخرى التي يملكها الدماغ ، والتي أثبت العلم بالدليل القاطع وجودها وقام بقياسها ورصدها . . .

ومن الخطأ أن يتوهم الفرد انه معزول عن الكون ، والأفضل رؤية الأمر على الوجه التالي : كل منا قطرة في بحر لا متناه من الاشعاعات الكهرطيسية والفضائية والكونية والألكترو مغناطيسية والصوتية. . .كل قطرة منا هي في كل لحظة في تواصل مع الوجود الكلي ، وتجدد ، وتبدل وتطور . . ويقول العالم جون بغايفر : ليس في جسدك خلية واحدة كانت فيه منذ سبع سنوات . . .

بعبارة أخرى ، إذا كانت الافعى تبدل جلدها كل عام ،فان الانسان يبدل جسده كل سبعة أعوام ! . . ويظل الدماغ مركز الاعجاز الاساسي في الجسد البشري : انه يتأثر بتعاقب الظلمة والنور ، ويتأثر بحركات المد والجزر ، (تبين ان مركز ذلك في الغدة الصنوبرية) ، بل ان بعض العلماء توصل الى منع الحمل عن طريق الضوء وتسليطه ليلا بطاقة معينة على المرأة مما يؤثر في عمل المبيض . .

وقام العلماء الروس بتجارب جميلة أثبتوا بها علاقة الدماغ بكافة الظواهر الطبيعية ، وكيف أن ظاهرة « التخاطر TELEPATHY» تتزايد مع تزايد الحقل المغناطيسي الارضي (فقد اجروا تجارب زادوا فيها المغناطيسية بصورة اصطناعية ولاحظوا أن ذلك زاد من ظاهرة التخاطر لدى الذين عرضوهم لتلك الجاذبية) كما ثبت أن البقع الشمسية والعواصف الرعدية تشوش موجات التخاطر تماماً كما تشوش بعض الموجات الإذاعية على موجات أخرى ، وتفسد القدرة على التقاطها . وطاقة الدماغ الانساني لا متناهية . . . وقد كشفت وزارة الحربية الاميركية النقاب عام ١٩٧٢ عن تجارب مذهلة قامت بها لتدريب الجنود على كشف الالغام دونما آلات أو أدوات وانما بواسطة دماغهم وثبت نجاح ذلك بشكل منقطع النظير . . . كما تم تدريب المدنيين في فيتنام على كشف الماء والمعادن في باطن الارض دونما استعانة بأية أدوات غير الموجات التي يتدرب الدماغ على التقاطها . . ونجحت تلك التجارب وكانت توفر كثيراً من الجهد والمال الذي يتطلبه شراء الآلات الخاصة بذلك ! . . .

وثبت أيضاً أن للعواصف المغناطيسية أثراً كبيراً في ارتفاع نسبة الانتحار أو الجنون أو انفصام الشخصية (شيزوفرانيا) . . وأن كل ما يحدث حولنا للطبيعة أو لكائناتها ، يؤثر فينا على نحو ما ، وحتى تركيب أجسادنا مشابه لتركيب أرضنا (٨٠ في المئة ماء و ٢٠ في المائة معادن !) ، واقترح بعض العلماء نظرية تقول بأن لكل إنسان مده الخاص وجزره ،

تماماً كالارض ! . . .

وقام عالم يدعى بيكر باثبات العلاقة بين الطاقة الكهربائية وتجدد الجسد . . . فقد استطاعت بعض الحيوانات أن تعيد بناء أعضاء قطعت منها ، واستطاع حلزون أن يجدد ساقاً قطعوها له ، اذ عادت ونمت بفعل الطاقة الكهربائية التي شحنوه بها . . . ويشير ذلك الى أن عصر اعادة بناء الانسان لاي عضو يفقده من أعضاء جسده لم يعد بعيداً ، ولن تكون هنالك يومئذ حاجة لزرع الاعضاء ما دام لا عضو يعوض (ولكن ، ترى هل يستطيع العلم وكهرباء الكون تعويضنا عن انسان غال فقدناه وكان عندنا أثمن من جسدنا كله ؟) . . .

التـداوي . . . بالدمـاغ

بعد التـداوي بالاعشـاب . . والتـداوي بالعقاقـير الـكيماوية ، والتـداوي بالرقـي والتعاويذ ، والتمسح بجدران الاولياء والعتبات ، يجيء التداوي . . . بالدماغ . . .

تصور أنك تركب طائرة ، يسيرها دماغ الكتروني ، وفجأة ، وجدت نفسك أنـت قادراً على قيادتهـا ، وهـا أنـت تلغـي الجهـاز الآلي الميكانيكي وتتـولى السيطـرة عليهـا بنفسك . . .

هذا ما يحدث حين يصحو الانسان على طاقات دماغه ويقرر أن يمسك بنفسه قياد جسده ـ الطائرة . . .

فالمعـروف أن أكثـر وظـائف الجسـد لا إرادية ، كالتنفس والهضـم وضغـط الـدم وغيرها . . . ولكن ، ماذا يحدث اذا استطاع الانسـان التحـكم حقـاً بكل ما يدور في جسده ؟ . . . تحدث أشياء تشبه المعجزة لكن التجارب تثبت امكانية وقوعها . . .

ففي عصرنا ، عصر أمـراض « صدمـة المستقبـل » من شيخوخـة مبـكرة ، وانهيار عصبي ، وقرحة ، وسرطان ، وتصلب الشرايين ، والضغط ، والسكتة وغيرها ، تأتـي المؤلفة لتشير الى علاج من صيدلية عتيقة منسية هي صيدلية الانسان وطبيب هجرناه اسمه الدماغ . . .

وتتحدث المؤلفة عن اليوغا ومهارة الشرقيين منذ أقدم العصور في السيطرة على أعضاء أجسادهم ، والتحكم بالألم الى حد لا يصدق . . وتقتـرح علينـا الاحتماء داخـل درع الدماغ من صدمة المستقبل . . . كيف ؟ اثبتت التجارب أن ذلك ممكن بتدريب الدماغ تدريباً علمياً . . . وفي بالتيمور ، استطاع العالم « برنارد انجل » تدريب المصابين بمرض القلب على السيطرة على ضغط دمهم ودقات قلبهم ، فقد زود كلاً منهم بجهاز يرصـد

حالتهم ، وحين يضيء الضوء الاصفر فهذا معناه (حافظ على سرعة قلبك الحالية) وحين يضيء الأحمر فهذا معناه (اخفض سرعة ضربات القلب) ونجحت التجارب كما نجحت تجارب مماثلة في مركز مستشفى كورنل بنيويورك واستطاع العلماء ايقاظ نقطة صغيرة في الدماغ النائم منذ عصور ، والكسول بسبب عدم استخدامه كما ينبغي ! . . والشيء ذاته نجح حتى في مداواة السرطان ، حيث سجل أصحاب الإرادة والمتجاوبين مع دعوة الاطباء للسيطرة على مرضهم ذاتياً ، سجل المرض عندهم تراجعاً بل وتوقفاً وأحياناً شفاء مذهلاً ، وحتى في حالات الموت ، كان موتهم أقل ايلاماً جسدياً ونفسياً ! . . وقد تم تطبيق المبدأ نفسه في مداواة الإدمان على الكحول ، حيث يعرف المدمن نسبة الكحول في دمه تلقائياً ويعرف متى عليه أن يتوقف (يُدرب على ذلك في البداية بلسعة كهربائية تصيبه بها آلة تلقائياً متى بلغت نسبة الكحول في دمه حداً معيناً) وبعد ذلك يصير قادراً على قياس ذلك تلقائياً . . .

إلغاء الحس بالألم !

في جامعتي أوكسفورد وشفيلد يدرس العلماء قدرة الدماغ على الغاء الحس . . بالألم .

والمبدأ بسيط . . .

انك لا تستطيع أن تدغدغ نفسك في أخمص قدميك . بينما يستطيع ذلك الآخرون . لماذا ؟ لأن دماغك يعرف المناطق ذات الحساسية (للدغدغة) عندك ، ولحظة تمسها يدك يقوم الدماغ بإلغاء الحس بالدغدغة ! . . . وإذا استطاع الدماغ تطبيق المبدأ نفسه على أحاسيس الألم ، واستطاع العلماء تدريبه على ذلك ، يكون الانسان قد انتصر على مشكلة الألم الجسدي . . .

وأثبتت التجارب في هذا المجال نجاحاً مذهلاً ، واستطاع بعض الناس التوصل الى حالة من التخدير الذاتي عن طريق الدماغ بحيث تمكن العلماء من اجراء العمليات لهم دون الاستعانة بأي مخدر وكانوا يفسرون ذلك بأنهم « يفصلون أنفسهم عن العضو الذي تجري العملية فيه !» . . . ويستلهم العلم أيضاً الطريقة الصينية للتخدير (أكابانكتشر) لغرس الابر والتخدير . . . فلأسباب مجهولة ، هنالك مواضع في الجسد البشري عرفها الصينيون منذ أقدم العصور ، إذا غرست فيها إبر على عمق معين ، يتم تخدير عضو آخر قد يكون بعيداً عن موضع غرس الابرة . . . ويهتم العلماء اهتماماً كبيراً بهذه الطريقة ، خصوصاً بعد أن اكتشفوا انه لا يمكن تعطيل مركز الألم في الدماغ دون تعطيل الذاكرة

(كأن الذاكرة والألم توأمان ، لا تستطيع قتل الألم دون سحق الذاكرة !) . . .

الأكا بانكتشر أو التخدير بالابر

منذ ٢٣٠٠ سنة على الاقل ، عرف الصينيون أسلوب التخدير بالإبر ، وعرفه اليابانيون منذ ٣٠٠ سنة ، ولم ينتقل الى أوروبا وأميركا إلا في نصف القرن الاخير . . وفي عام ١٩٦٠ اعتمده الأطباء الصينيون كوسيلة هامة للتخدير ، واعترفوا به علمياً ، لا على صعيد (الطب الشعبي) فقط .

وفي أوائل السبعينات فقط ، اكتشف العلماء الروس والاميركان فعالياته الحقيقية . . . وعلق الدكتور « والتر تاخ » طبيب البيت الابيض على التخدير بالإبر بقوله : إنه أكثر تفوقاً على أسلوبنا في التخدير .

وترى المؤلفة أن استعمال الكلوروفورم كبنج عام ١٨٤٧ كان أمراً أضرّ بالانسانية ولم يفدها ، عكس الوهم الشائع بأنه خفف آلام الكثيرين ، فلولا استعمال البنج لتم - في نظرها - التركيز على مزيد من الابحاث حول التخدير الذاتي ، وسيطرة الدماغ على الالم تلقائياً كما لو أن المريض ينوم نفسه مغناطيسياً من تلقاء نفسه . . .

وهكذا ، فالعصر يقزمنا ، ونجاتنا هي في العودة الى الجذور الانسانية داخل الفرد ذاته . . « صدمة العصر » تصيبنا بالأمراض ، والعودة الى طب العصور الحجرية يمنحنا الشفاء ! المرض عصري مستقبلي ، والعلاج من صيدلية الماضي السحيق . . .

وبالتالي ، فالتكنولوجيا التي تصيبنا بالامراض عاجزة عن شفائنا ، الشفاء الوحيد هو في امتلاك الدماغ وامتلاك الذات وسط قوى الاستلاب كلها المحيطة بنا . . .

فهل نستطيع ؟ . . .

ثم ان الهدف من ثورة الدماغ ليس تجنب الألم فحسب ، بل الطيران الى مستوى جديد من الوعي للذات ولما حولنا من رموز كونية ، والوعي بالوجود الواحد الكامل الشامل ، وبأجزائه المتعاونة المتكاتفة التي ينبثق بعضها عن بعض ويتحد القريب منها بالبعيد ، والقديم بالجديد بحيث لا يبدو لنا الموت أكثر من انتقال من حالة الى اخرى ، وتصير للحياة غاية نبيلة ضمن اطار وحدة هذا الكون الذي تهدف عناصره كلها للارتقاء ، والاتحاد بالذات الالهية الواحدة الكلية البهاء . . .

التقمـــــص

« مـن قال اننـي انتهيت ؟ من قال ان
هنالك فناء ؟ لا ريب في أنني توفيت عشرة
آلاف مرة من قبل . . .

أسمعــك تهمســين بذلك ، أيتهــا
السماء . . . أيتها النجوم . . . ويا حشائش
القبور . .

أعي ذلك بغموض لا يدرك . . فكيف
أثبت أنا هذه الحقيقة بوضوح ؟ . . »

. . . .

« ماذا تظنين حدث للذين مضوا ،
الشبان منهم والكهول ؟
إنهم أحياء ، في مكان ما . . .
كل ذرة في الوجود تصرخ :
ما نسميه الموت ،
باطل ، وغير موجود . . . . .
واذا ما وجد ،
فانه يقود الى حياة جديدة . . . » .

ـ والت ويتمان ـ

٩/ ٣/ ٧٣

ظاهرة التقمص عندنا تجتذب العلماء

لم يكن هنالك ما يوحي بأن سراً مذهلاً سينفجر تلك الامسية . كان كل شيء يوحي بأنهم سيقضون وقتاً ممتعاً . . . فـ « زيزي » الطفلة الحلوة الصغيرة ، كانت ترافق والدها اللبناني الدكتور ر . ع وزوجته الاميركية في زيارة الى قرية عين عنوب قضاء عاليه ، وتملأ السيارة ضحكاً وحيوية .

كانوا مدعوين لقضاء أمسية جميلة في بيت طيار لبناني من اسرة (ا . غ) . لقد اشترى الطيار تلك الدار التي كانت فيما مضى مقراً لمدرسة إرسالية انكليزية . . . وتولت زوجته الاميركية تجديد شباب البيت العتيق ، ولما انتهت من ذلك دعت الاصدقاء لقضاء أمسية في القرية الجميلة عندهم . . . وتصادف أن كان بين المدعوين الدكتور (ر . ع) واسرته . . . ولم تكد سيارته تتوقف أمام الباب ، وعينا الطفلة (زيزي) تقعان على الدار العتيقة المهيبة حتى اعتصمت بالسيارة ورفضت النزول منها . . . وأصر والداها وقد ضايقتهما المشاكسة الطفولية ـ كما ظنا في البداية ـ وأرغماها على النزول .

وأمام باب البيت ، ازداد اضطـراب « زيزي » . . . كانت تجيل نظراتها المذعورة فيما حولها ، وانفجرت صارخة : لن أدخل الى هذا البيت . لو أنكم ترون مطبخه ! كم هو رهيب ومعتم . وسألها والدها غاضباً : وما علاقتك بالمطبخ ؟ قالت : لقد قضيت حياتي في هذا المطبخ . كنت أطبخ للتلاميذ . أنظف الأرض . تحترق أصابعي . لقد قضيت حياتي في مطبخ هذا البيت ! . . .

وتفتحت ذاكرة الطفلة التي ولدت في اميركا والتي لم تطأ قدمها « عين عنوب » من قبل ولم تر هذه الدار قبل ذلك اليوم . . . ومع ذلك تصر على أنها قضت حياتها وشيخوختها في مطبخه .

وبدأت تروي تفاصيل مذهلة عن حياتها السابقة وبؤسها . . . وعن شخص عجوز كانت تحمل له الطعام الى غرفته . . . وكانت تعرف مداخل ومخارج الدار ، وتميز التجديدات التي أدخلت عليها . . .

ودار تحقيق في القرية ، وتبين أن امرأة كانت تدعى أم توفيق عاشت فعلاً حياتها كلها في مطبخ الارسالية ، وماتت هناك ، وكانت بائسة وتعيسة . . . وكانت تحمل الطعام إلى استاذ عجوز كان اسمه مستر « تشيرش » . وتبين ان ام توفيق عملت خادمة إثر وفاة أمها .

والغريب ان « زيزي » قبل هذه الحادثة كانت تروي لأمها باستمرار الحكايات عن أشخاص عرفتهم من قبل في حياة أخرى ، وعن أحداث عاشتها . . . بل انها كانت تصاب دائماً بهلع شديد اذا مرضت أمها ولو برشح بسيط (ربما لان موت امها في حياتها السابقة هو الذي أسلمها للبؤس كخادمة) . ثم انها كانت تخاف من أواني المطبخ خصوصاً النحاسية . وذات مرة ، جاءت جدتها (ام الدكتور ر . ع) بطناجر نحاسية لتعطيها لأم « زيزي » ، ولم تكد الطفلة ترى الطناجر النحاسية القديمة (الشبيهة بالتي كانت تستعملها ام توفيق ـ أو هي ؟ ـ في الطبخ) حتى أصيبت بنوبة ذعر وبكاء . . .

كانت الطفلة تصر ببساطة على أنه سبق لها ان عاشت في « عين عنوب » ، وكانت قادرة على إقامة الدليل وتذكر أكثر تفاصيل حياتها الماضية .

وروى لي الدكتور سامي مكارم ـ الاستاذ في الجامعة الاميركية ـ هذه الحادثة وصمت كأنه كان يعرف سلفاً انني سأحتج . ولكنني ظللت صامتة .

كنت قد ذهبت إليه لأن عوالم ما وراء الطبيعة تسحرني . لدي إيمان غامض بأن الانسان الذي ارتاد الفضاء ما يزال يجهل اشياء كثيرة عن أعماقه هو نفسه ، وعن طاقاته ، وعن حواسه غير الحواس الخمس ، عن عالم ما وراء الحاسة السادسة والسابعة واللانهائية ، وعن اسرار الروح والكون . . . ولكنني ظللت صامتة .

وانتقل هو الى حكاية أخرى (سأذكر لقارئي الاسماء الكاملة هذه المرة لأنني ذهبت فيما بعد وقابلت أبطالها وتحدثت اليهم . كل الاسماء متوفرة لدي ، لكنني لن اذكر إلا اسماء الذين قابلتهم بنفسي وصورتهم) .

قال الدكتور سامي مكارم : في قرية قرنايل ، هنالك صبي صغير يدعى عماد الاعور (١٢ سنة) . . . عماد الأعور ، منذ تعلم النطق في الثانية من عمره ، يروي لوالديه حكايا عن اخوة له . . . وعن أسرة اخرى كان يعيش بينها . . . وعن قرية كان يحيا فيها اسمها « الخريبة » . . ويروي بعض حكايا حياته السابقة . . . سيارات الشحن والاوتوبيس . . الذهاب الى العيد . . كلبه . . . حبيبته (س . . ولنسمها سعاد) .

وحين تعلم المشي أبدى فرحاً شديداً ودهشة لقدرته على المشي . . . وكان يروي

حكاية سيارة دهست رجلاً حين مشت دواليبها على قدميه . . . وظن أبواه في البداية انه تقمص روح انسان قتل مدهوساً بسيارة .

وعام ١٩٦٤ سمع بحكايته عالم هو البروفسور « ايان ستيفنسون » الاستاذ في كلية الطب بجامعةفرجينيا، وكان في البرازيل يحقق في بعض حالات التقمص. تصادف أن كان مترجمه من اصل لبناني ومن آل الاعور . . وطار الدكتور « ستيفنسون » الى لبنان عام ١٩٦٤ وذهب خصيصاً لمقابلة الصبي واسرته . واصطحب عماد الاعور للمرة الاولى الى قرية « الخريبة » .

والمذهل ان عماد تعرف على بيته السابق ، وعلى أفراد اسرته . . وعلى شقيقته هدى التي بادرها بمد لسانه لها كما كان يفعل ايام كانا صغيرين فانفجرت بالبكاء . . كذلك تعرف على بندقيته . . واستطاع ان يحدد بدقة الفراش الذي مات فيه وأشار الى انهم قد غيروا وضعه في الغرفة بعد موته ، لانه اثناء احتضاره يذكر جيداً انه كان يحاور اصدقاءه من النافذة (لم يسمح لهم بالدخول لانه مات بالسل !) بل انه تذكر أن اصبع امه قد (هرسها) الباب وبالفعل كانت اصبعها ما تزال تحمل آثار الحادث . . .

لقد استطاع اقامة الدليل على ان روحه كانت تقطن جسد شاب يدعى ابراهيم بشير ابو حمزة المتوفى عام ١٩٤٩ . وبنتيجة تحقيقات البروفسور « ستيفنسون » تبين ان خوف عماد الاعور من العجز عن المشي يعود الى انه كان مصاباً بسل النخاع الشوكي مما جعله في أواخر حياته شبه مقعد (مات شاباً في الخامسة والعشرين من عمره) . . . وان حكاية دهس ساقي الرجل حدثت فعلاً لابن عمه وصديقه وأنه شاهد الحادث ولم يقع له ! وتبين انه كان حقاً يقود السيارات ويملك باصاً ثم سيارة شحن (هو واسرته) وكل الوقائع التي رواها عن حوادث سير اصيبت بها سياراته أيدها شيوخ القرية ومعارف أسرة ابو حمزة . . . بل إنه ميز اشقاءه وناداهم باسمائهم . . . وحتى في صغره حين كان في الثالثة من عمره ، تصادف ان جاء احد جيران آل ابو حمزة من قرية « الخريبة » الى قرنايل . . وشاهده عماد في الطريق وكان يرافق جدته ، فركض اليه وقد عرفه وضمه اليه وقال له : انت جاري !

وبالفعل كان هذا الجار من اهم الشهود في « الخريبة » حين ذهب عماد ليتعرف على اسرته السابقة ، وليشير الى حيث كان يصف السيارات وحيث كانوا يخفون مفتاح البيت (تحت اي حجر) وموضع بندقيته وغير ذلك من التفاصيل بالغة الدقة . . بل انه تحدث عن ولعه بالنساء ايام كان يتقمص جسد ابراهيم ابو حمزة ، وعن علاقته بجميلة وحزنه البالغ لعدم زواجه منها (وهي اليوم متزوجة ولذا لم اذكر اسمها الكامل) ، وتروي ام

عماد للدكتور ستيفنسون انه مرة حين كان في الثانية والنصف من عمره كان ممدداً الى جانبها في السرير وطلب منها فجأة ان تتصرف كما كانت تتصرف جميلة في السرير !! ، وانه كان يقول لها ان جميلة اجمل منها ، وترتدي اللون الاحمر . . . وغير ذلك من التفاصيل . . .

ويبدو ان عماد الاعور استطاع إقامة الدليل المادي على انه كان ابراهيم ابو حمزة (او انه بطريقة روحية نجهلها مطلع تماماً على كل خفايا ومشاعر وتفاصيل ايام ابراهيم ابو حمزة طيلة حياته !) وبلغ من عجائب الحكاية ان الدكتور ستيفنسون أفرد لحكاية عماد الاعور صفحة كاملة في كتابه (٢٠ حالة موحية بالتقمص)* وهو كتاب تحدث فيه عن ٧ حالات مماثلة في الهند وثلاث حالات تقمص في سيلان وحالتين في البرازيل وسبع حالات في جنوب ألاسكا بين هنود « التلينجيت » .

روى لي الدكتور سامي مكارم هذه الحكاية ومد الي يده بكتاب الدكتور ستيفنسون ، الدليل المادي على هذه الحكاية المذهلة . . . وغيرها .

آثار من الحياة السابقة

في بداية حواري مع الدكتور سامي مكارم حاورته بشكل عام وغيبي عن الروح (قال : لا اعتقد انه يمكن ان توجد روح دون ان تنسكب في جسد كما انه لا يمكن ان يكون هنالك معنى دون ان ينسكب في حيز الكلمة) .

قلت له : لماذا لا ؟ لنقل ان الروح هي الطاقة الكهربائية و (مصباح) الكهرباء هو الجسد ، وحلول الكهرباء في المصباح يقيم الدليل على وجود طاقة كهربائية ، لكن عدم وجود مصباح لا ينفي إمكانية وجود طاقة شاردة بلا سلك موصل .

رد الدكتور مكارم : إن عدم تقمص الروح فوراً في شخص نعرفه ليس دليلاً على ان الروح تظل شاردة في الجو دون ان تتقمص . . . هنالك انظمة شمسية أخرى غير نظامنا الشمسي ، وأكوان أخرى لا متناهية ، ومئات الملايين من المجرات ، ومن الممكن أن يكون في بعضها أرض فيها حياة . . ومن يدري ، لعل الأرواح لا تتقمص بالضرورة في كوننا فقط . . .

قلت له : ان التجربة الانسانية المتناقلة في اللاوعي والصفات الوراثية الموجودة في الخلية الحية (الكروموزونات) يتوارثها البشر أباً عن جد . . . فلماذا نسميها الروح ولا نسميها الوعي الانساني المتكامل جيلاً بعد جيل ؟ ولماذا نتحدث عن تقمص الأرواح ولا نتحدث عن تكامل المعرفة الانسانية جيلاً بعد جيل ؟ . . .

قال لي : كلمة روح لا نعنيها بالمعنى العتيق والتقليدي ، ولذا تجدين أننا نحن الدروز لدينا ميل لتسمية الروح بعبارة (المعنى) . . فالمهم في الروح هو « حقيقة الشيء » أي (معناه) ، أما الجسد فهو « عَرَض » متبدل .

مثل هذا الحوار وغيره دار بيننا في بداية اللقاء ، قبل أن يروي لي الحكاية السابقة واللاحقة . كانت زوجته الاميركية جولي تقوم بالضيافة العربية وفوجئت بأنها لا تتصرف فقط كعربية بل وتتحدث بالعربية بلكنة درزية وتبرز حرف (القاف) في كلماتها . . . ها هي جولي تروي : طفلة في ايطاليا ، قالت لأسرتها أنها كانت حية ، وحددت اسمها السابق ومكان وفاتها ، بل انها ذكرت لأهلها انها لما دفنت لم تكن ميتة كما ظنوا ، وانما كانت في غيبوبة فقط ، وانها صحت في القبر ووجدت نفسها سجينة التابوت وانها صرخت ولم يسمعها احد وماتت اختناقاً . . . ولما كانت الفتاة قد روت تفاصيل واقعية مذهلة عن حياتها السابقة ، فقد تشكلت لجنة طبية وتقرر نبش قبرها والتحقق من صحة أقوالها ، ونبش القبر وفتح التابوت ، وتبين ان المرأة التي دفنت فيه قد صحت فعلاً بعد دفنها وأنها قد مزقت وجهها وشعرها وكفنها ، وماتت اختناقاً في التابوت تماماً كما قالت الطفلة التي حلت روح الميتة فيها فيما بعد ! . . .

وتصمت جولي وأنا صامتة ، وزميلي في ملاحقة الوقائع الحية لحكايا التقمص التي يزخر بها لبنان واسمه غسان مكارم لم ينطق بحرف . . . ويلتقط (كرة) الحوار الدكتور سامي ويروي لي : أحياناً تظهر على جسد الانسان علامات ولادية تكون لها علاقة بحياته السابقة . ان لهذه العلامات اهمية كبيرة في مجال تذكر الحياة السابقة .

في قرية صغيرة اسمها « التبيات » صبي يدعى طليع سويد ، هذا الصبي يشكو من صعوبة في النطق . وهو منذ صغره يقول ان اسمه سعيد ابو الحسن من قرية « بتخنيه » وان قريبه رامز ابو الحسن قتله في نوبة غضب عصبية . يقول انه كان واقفاً على الشرفة حين مر به رامز ودعاه الى فنجان قهوة ثم اطلق عليه رامز الرصاص فاصابه في خده . والغريب ان في خد طليع سويد الايمن أثر رصاصة ولد وهو يحملها ، وان الصعوبة في النطق التي يعاني منها ترجع الى موضع الرصاصة اي الى ضربة من (الجيل الماضي) .

سألت الدكتور مكارم : هل شاهدت الطفل ؟ قال : « اكثر من مرة . وقد تحسن نطقه بعد ان كشف عن سره . تصوري انني حين سألته ما اسمه قال لي سعيد ابو الحسن وهو يفضل هذا الاسم على اسمه طليع ! » .

عدت أكرر سؤالي شبه منومة : رأيته انت عملياً ام سمعت عنه . ومتى ؟

رد بهدوء : رأيته البارحة الخميس ٢٢ شباط ، فبراير ، ١٩٧٣ . ما رأيك ؟ انه يعاني من صعوبة في نطق بعض الحروف التي تتطلب شد الفم . الشين يلفظها جيم . . . والسين يلفظها زين . وهكذا . . .

وتابع الدكتور مكارم : إن وجود علامات فارقة ولادية هي من آثار الحياة السابقة ، امر نجده يرافق حالات الوفاة بطريقة عنيفة . . اي قتلاً . . . ثم التقمص . . .

هنالك مثلاً في فالوغا شاب يدعى سالم العنداري . انه يتذكر منذ طفولته انه كان يحيا في جبل الدروز ، وانه قتل على يد البدو بسبب الثأر . ضربه احدهم بعصا على رأسه . . . وحققوا مع اسرة الشخص القتيل في جبل الدروز فتبين ان ذلك صحيح وأنه قتل بهذه الطريقة ورمي به في بئر ، واهالوا عليه الاحجار كما ذكر سالم العنداري تماماً . والغريب ان في رأس سالم العنداري منذ ولادته أثر ضربة في رأسه !

وسألت الدكتور مكارم : ولكن ، هل ولد سالم العنداري لحظة القتل في جبل الدروز ؟

ـ لا . كان هنالك فارق زمني .

ـ ما التفسير ؟

ـ مرت الروح بحياة اخرى ، ثم انتقلت الى سالم العنداري . ربما كانت تلك الحياة غير هامة فلم تترك بصماتها ولا ذكراها .

ـ هل كل من يموت يتقمص ؟ ام فقط الذين قتلوا والذين لم يثأر لهم ؟

ـ كل من يموت يتقمص . ولكن حوادث القتل والعنف محرضة على التذكر اكثر من غيرها . في حالة عماد الاعور مثلاً ، كان يخاف من السيارات منذ طفولته والسبب العنف الذي رافق السيارات في حياته السابقة أيام كان اسمه ابراهيم بشير ابو حمزة .

ـ هل حوادث التقمص لا تقع الا للدروز ؟

ـ طبعا لا . ولكن الدروز يلحظون كلام أطفالهم بسبب ايمانهم بهذه القضية ، هنالك ظاهرة معروفة وهي ان جميع الاطفال يتحدثون عن أشخاص « وهميين » ويسمونهم كأولادهم ، او رفاقهم ، ويروون حكايا وقصصاً ننسبها عادة الى خيال الاطفال الواسع ، ونتهم الأطفال دائماً بالكذب والتخيل . . ما يدرينا ؟ ربما كانوا يروون لنا ذكريات حياتهم السابقة . . . ومع الزمن تتلاشى وتنسى اذا لم يتصادف ان يقع حادث ينبهها (كما حدث لزيزي . ع) .

ـ هل هنالك حالات اخرى . . .

قالت جولي : نستطيع ان نروي لك القصص الى ما لا نهاية . . كشهرزاد . . . في « العبادية » شخص كان اسمه ج . ع . ز ، وكان يتشاجر دوماً مع احدى بنات الضيعة لانها كانت تعتدي على حقه في الماء والري ، كانا يتشاكسان باستمرار ، ثم تزوجت الفتاة من اسرة (ش) في « عيناب » ومات الشخص الذي كانت تتشاجر معه . . وولد لها صبي اسمته « زهير .ش »وكم اذهلها انه حين نطق بدأ يعاتبها على تصرفاتها معه بخصوص حق الري والاعتداء على الماء . . . وحين كبر ابنها اصر على الذهاب الى العبادية ومقابلة اسرته السابقة . . . (ربما كان بوسع التقمص ان يفسر عملياً حبنا لشخص من اول نظرة ، اطمئناننا اليه او نفورنا منه دونما سبب منطقي وانما بدافع قوة داخلية غامضة . . . من يدري ؟)

وتروي جولي : في التقمص حكمة عجيبة . هنالك في المتن شخص كانت زوجته تضع طفلاً ، وارتكب هو في تلك اللحظة جريمة قتل . . . ولما صار ابنه قادراً على الكلام اذهله الكره والاحتقار الذي كان يكنه له لأنه قاتل ولأنه قتله هو في حياة سابقة !!

ان عزت .ش، في عاليه يروي تماماً كيف قتل لما كان اسمه وجيه . ت ورمي به في برميل ماء ، ويعرف قاتله ، وقد ذهب وزار اسرته (في الحياة السابقة) ، لقد قرع باب الدار قرعته الخاصة ، وقالت امه هذه (دقة) فلان . . . وبكت ابنها . . . وفوجئت بالقادم الذي تعرف على أفراد الاسرة كل باسمه . . وعلى اشيائه . . . وأسراره الصغيرة .

قالت جولي : هنالك دكتور رياضيات هو الدكتور فؤاد خوري . ابنه الصغير يتذكر بوضوح انه كان طياراً في حياة سابقة ، وانه كان بريطانياً . والمذهل انه يتقن الانكليزية كما لو كانت لغته مما يدهش اساتذته . وهذا ايضا من بعض آثار الحياة السابقة في الحياة الحالية . عماد الاعور مثلاً يتقن قيادة السيارات دون ان يتعلم ذلك . إنه ما يزال يتذكرها من حياته السابقة أيام كان يدعى ابراهيم بشير ابو حمزة ! . . .

قلت لجولي : الا ترين ان فكرة التقمص قد تلغي القوميات ، كما انها قد تفيد الانسان وتحوله الى « سوبرمان » اذا استطاع في كل حياة ان يتذكر كل ما تعلمه في حياته السابقة من مهارات علمية وتقنية ؟ إنه يصير قادراً على التمتع بمزايا الكومبيوتر بالاضافة الى مشاعر القلب الانساني وخبراته . . . تصوري لو أن كل انسان استطاع أن يكوِّن مرة واحدة في حياة واحدة الخبرة المقطرة لعشرات الرجال ولتاريخهم ومعارفهم . . .

قالت جولي : الأجمل من ذلك كله أن فكرة التقمص تحمي الانسان المعاصر من السقوط في فخ العبثية السارترية واليأس على طريقة البير كامو ، ولذا فان افكار التقمص

بدأت تسري في الجيل الجديد باميركا وأوروبا . . .

واطلعتني على رسالة وصلتها من رفيقة لها في اميركا « فريدا كوكس » من ميتشيغان وتقول فيها ان والدها يحتضر ، ولكنها ليست حزينة كثيراً لانها تعرف أن الموت هو مجرد تجربة انتقال الروح من جسد الى آخر وانتهاء تجربة حياتية للبدء بتجربة اخرى .

والجدير بالذكر أن هذه السيدة هي من أعضاء ناد كبير في اميركا يؤمن بالتقمص ويتزايد افراده يوماً بعد آخر . . . .

غادرت منزل آل مكارم وفي عيني صورة سرير الاطفال الخشبي الذي زرعت فيه مدادة خضراء تتسلق الجدار كأن السرير والمدادة رمز لتجدد الحياة الازلية عبر التقمص . . . وفي رأسي تفور عشرات الحكايا التي كان لا يمكن الا أن احقق بمدى صحتها . . . او اتأكد من أن أبطالها احياء فعلاً لا كأبطال القصص . . لا يلمسون . .

الذين ينطقون . . ونحن

غادرت بيروت بحثاً عن أطفال هذه الحكايا ، بعد أن قضيت أياماً اقرأ في بعض كتب التقمص وفي كتاب البروفسور ستيفنسون ، نهاراً ، وتهاجمني الكوابيس ليلاً . . . أحلم أنني في مدن غريبة . . . . أحلم انني امرأة أخرى . . .

كان لا مفر من أن أذهب اليهم بحثاً عن المزيد من الوقائع . . . .

رافقني الزميل غسان سليمان مكارم وكاميرا حسن حوماني .

وصلنا الى قرنايل . سألنا عن بيت اسرة عماد الاعور . قالت السيدة الدرزية بثيابها السود والغطاء الابيض التقليدي على رأسها : هذا اللي نطق ؟ . . . (نطق أي تحدث عن حياته السابقة باعتبار أن للجميع حياة سابقة ولكن البعض ينطق بأخبارها والبعض ينساها) .

وذهبنا الى البيت .

واعترف بأنني حتى وصلت اليه وشاهدته كنت عاجزة عن استيعاب أنه شخصية حقيقية موجودة . كنت احسه ـ بعد أن قرأت عنه في كتاب ستيفنسون ـ مثل أبطال الحكايا الخرافية ، نعيش معهم حين نقرأ عنهم ، لكن اللقاء بهم مستحيل .

ها هو عماد الاعور . لطيف وذكي وعيناه شفافتان . أكد لي الحكاية التي رواها الدكتور مكارم وستيفنسون . تقول امه : انها سمعته مرات عديدة يتحدث مع نفسه ويقول انا ابراهيم . وانه يركب على (الديوان) ويصف اخوته خلفه ليلعبوا لعبة الباص (فقد كان في حياته السابقة يملك باصاً ويحسن قيادته) .

سألته : هل تعرف الآن قيادة السيارة ؟ .

قال : اجل . انني اقود احياناً سيارة (فولكز فاجن) يملكها ابن عمي عفيف .

ـ هو علمك قيادة السيارة ؟

ـ لا . لا احد علمني . ما زلت اذكر كيف كنت اقود السيارة .

حدثني عماد بأنه حزين لان أمه الثانية (ام ابراهيم بشير ابو حمزة) توفيت ولم يعلم بذلك إلا مؤخراً . من الواضح أنه متعلق عاطفياً باسرتة (الأولى) ! . وقد أصر على تسمية اخته الصغيرة هدى ، أي كاسم اخته في حياته السابقة .

دار بيننا حوار طويل . . هنالك شيء ما . . هنالك سر ما . . . هل هو التقمص ؟ ام أن هنالك سراً آخر ما يزال الانسان يجهله ؟ . . . المهم أن اللقاء بعماد يؤكد أن كل حرف قرأته عنه كان صادقاً ، خصوصاً أن الدكتور ستيفنسون سبق وأجرى له تحقيقاً اين منه التحقيقات الجنائية . . . وتأكد من أنه لم تكن هنالك أية علاقة أو أية معرفة بين اسرة عماد الاعور الحالية واسرته السابقة اسرة ابو حمزة قبل زيارة عماد للخريبة .

الروح الراكضة في الغابات

ها نحن في فالوغا ، وغيمة من الذهول نصف المصدق تلفنا ونحن نقرع باب اسرة سالم العنداري .

فتح الباب رجل درزي الوجه والملامح ، وسيم وصلب العود ويتمتع بكهولة جميلة في ستيناته . انه ابو عجاج العنداري والد سالم . . . واستقبلتنا والدته بالترحاب ، وجلسنا الى جانب نار الموقد الذي تغذيه اكواز الصنوبر ، فتفوح رائحة عطره كرائحة الذكرى ، وعلى الجدار جلد ثعلب اصطادوه . . تخيلته حياً يركض كالشبح في الغابات ، يركض سريعاً لا يدرك لا يلمس كالروح . . . وكحقائق الروح . . . ترى هل يأتي يوم نقبض فيه على حقائق الروح ؛ نثبتها أمامنا على الجدار كجلد الثعلب ونستريح ؟ . . . الروح ، الخالدة ، المراوغة ، الساحرة المسحورة . . الثعلب ، ورائحة اكواز الصنوبر المحترق رميا بي الى غابات الغموض والغربة والمجهول . . .

ولكن نجم والد سالم العنداري كان واثقاً من كل ما يرويه لنا عن ابنه سالم . لقد أكد لنا القصة التي رواها الدكتور مكارم . . رواها لنا ثانية بمزيد من التفاصيل . قال إن ابنه سالم العنداري كان يدعى قبلاً حسن حامد ، وكان يعيش في جبل الدروز ثم قتل بسبب الثأر بضربة عصا على رأسه . . . . وانه قبل أن يموت انتشله الامير زيد الاطرش ابن الامير حسن من البئر واحتضر بين يديه . والغريب أن ابنه تعرف على الامير زيد

الاطرش ، وعرف فيه الشخص الذي انتشله من البئر وآخر وجه رآه في حياته السابقة كحامد حسن . . .

وأخبرنا ايضا بأن له حفيداً اسمه سليمان عمره الآن ١٨ سنة . وأنه (نطق) باسم مختار غريفة في الشوف . أي أنه كان في حياته السابقة مختاراً (لقرية غريفة في الشوف) . وأنك اذا ناديته « مختار » يرد ويلتفت دون أن يعي لماذا ، وأنه كان يذكر وجود معصرة زيت لديه في حياته السابقة ، وقد ذهب الى « غريفة » وتعرف بأسرته السابقة ولاحظ أن معصرة الزيت قد تغيرت ملامحها وبالفعل كانوا قد أدخلوا عليها تعديلات .

وعدت أسأل الشيخ نجم عن ابنه سالم : هل في رأسه أية اثار ؟

ـ اجل ! في رأسه منذ ولادته اثر ضربة عصا . . . واثار الاحجار التي اهيلت عليه !

ـ وهل لاحظت في طفولته تصرفات مطابقة لأقواله ؟

ـ اجل . كان يفرح بمجيء أي شخص من حوران أو جبل الدروز (للعمار) قربنا . . ويهرب من البيت ليتحدث اليهم . . .

لا احد يموت هنا . .

ها نحن في قرية « التبيات » نبحث عن طليع سويد ، متقمص روح سعيد ابو الحسن .

وجدنا اخته وفاء التي أرسلت من يحضر والدها وشقيقها من الحقل . الغابات جميلة ، والحقول مدهشة الخضرة وكل ما حولنا يذكر بالخلود . . . بالربيع الذي يعود دائماً ، والروح التي هي شجرة دائمة الخضرة . . .

وريثما يصل طليع ووالده ، فوجئنا بعشرات من حكايا التقمص . . . يبدو أنه لا يموت احد في هذا الوادي . . . فكل شخص ميت هنالك من تقمصه . . . وفي دقائق الانتظار القليلة روت لنا وفاء النشرة الاخبارية الروحية التالية : هنالك صبي في قريتها اسمه مجدي شعبان (نطق) أي تقمصته روح المرحوم سليم الاعور الذي قتل بحادث سيارة (شقيق وزير العدل الاستاذ بشير الاعور) .

وان مزيد حاطوم نطق في منزل عادل هلال بقرنايل .

وأن شقيقها الأصغر مزيد سويد (٥ سنوات) ناطق باسم المرحوم عفيف حاطوم من كفرسلوان .

ولم تكد تنتهي من كلماتها حتى دخل السيد حمد فرحات من « نيحا الشوف » وظنناه والد طليع سويد ، وقلنا له اننا جئنا بخصوص حكاية التقمص واذا به يحدثنا عن حكايته

الشخصية . . . يقول إن اسمه في الحياة السابقة كان يوسف . . . وانه كان (مكاري) وقتل بالرصاص من اجل حفنة من القمح - كان يهرب « أكياساً » من القمح - ودارت معركة اصيب فيها اولاً برصاصة في رجله . . . وكشف عن ساقه واذا فيها علامة ولادية يعتقد أنه حملها معه من حياته السابقة !

وأخيراً وصل طليع قبل أن يصل موكب جديد من الأرواح المتقمصة ، وتراودني نفسي الرحيل من جديد بحثاً عن أصل الحكايا ، وكل حكاية تقود الى حكاية أخرى ، والانسان يتوه ، والحقيقة كالسراب ، عبثاً يلقي الانسان القبض عليها كلياً . . .

ها هو طليع . نحيل . رقيق . في وجهه قلق حقيقي . عينان زائغتان . في خده الأيمن علامة ولادية تشبه الاثر الذي تخلفه رصاصة عتيقة . . .

سألته : هل تحلم بحياتك السابقة ؟

- اجل : أحلم باستمرار بصفتي سعيد ابو الحسن .

روي لي حلماً سيريالياً عجيباً . في وجهه الم حقيقي . والواقع أنه يرغب بشدة في الذهاب باستمرار لرؤية زوجته السابقة كمال واولاده (رجاء ، ندا ، رمزي ، وفاء ، رياض) . . في وجهه حزن إنسان فارق اسرته واولاده . انه رقيق حتى أنني اشفقت عليه من اسئلتي ، وربما اشفقت على نفسي المليئة بالشكوك ، الجائعة الى تحقيق طويل حول أدق التفاصيل . . شعرت بانني قضيت يومي كله اركض على خيط رفيع هو الخيط الفاصل بين الشك واليقين واتأرجح . . ولا أهوي نهائياً الى مهاوي الشك ، ولا أحلق نهائياً في سماء الايمان . . فقط أتأرجح كرقاص ساعة محكوم بالحيرة . .

هل الحياد ممكن

ها انا اكتب في مبنى المجلة ، يأتيني من الخارج صوت آلة كاتبة ورنين أجراس الهاتف والسيارات وكلها يذكرني بالعصر الذي انا فيه . . .

وأحاول ضمن هذا الاطار العملي الواقعي الكومبيوتري الايقاع ، أن استعيد هذه التجربة المذهلة في عوالم الروح ، وأعيد تقييمها بعيداً عن المؤثرات الآنية . .

يبدو لي ، بكل حياد ، أنه لا بد لكل منا من الاعتراف بأن هنالك احداثاً كثيرة تقع حولنا ونمر بها أنفسنا أحياناً ، أحداثاً غريبة غامضة ، نعزوها الى قوى مجهولة نطلق عليها أسماء مختلفة كالحاسة السادسة أو التنويم المغناطيسي أو السحر أو امتلاك روح لجسد آخر ، أو نختار لبعضها تسميات علمية « كالشيزوفرانيا » والهستيريا . . . أياً كانت التفسيرات ، ورغم اختلاف مدى صدق بعض الأحداث أو كذبها أو امكانية وجود

تفسيرات علمية لها ، تظل هنالك حقيقة لا يملك أي حيادي إلا الاعتراف بها : وهي أن احداثاً كثيرة تجري في هذا الكون ما نزال عاجزين تماماً عن تفسيرها . .

ولا بد لي من الاعتراف بانني لا أملك أي يقين معين حول تفسير من هذه التفسيرات . . انني لا اؤمن بشكل نهائي بالسحر أو التقمص أو بامتلاك روح شريرة لجسد ما . . . ولكنني اؤمن بوجود أشياء غامضة في هذا الكون ، ولدي رغبة في ملاحقة مختلف التفسيرات .

تقمص او لا تقمص ؟

لا ادري .

لقد رميت بكلماتي مثل حجر في مياه الذاكرة الراكدة . ومن لديه فضول فليلاحق الامر . ومن ترضيه التفسيرات القائمة فليقرأ هذه السطور كما يقرأ أية قصة تصادف أنها واقعية وأن أسماء أبطالها حقيقية .

تقمص أو لا تقمص ؟

لا ادري .

كل ما ادريه أن الاطباء والعلماء الاميركان والانكليز يأتون من آخر الارض سعياً وراء تفسيرات الدروز لعقيدة التقمص . . . وأن « التقمص » كان اصلاً عقيدة هامة في أول دين معروف للانسان على هذه الأرض (الديانة الهندوسية) في الهند ، (وحتى البوذية تؤمن بالتقمص) . وكثير من الادباء والشعراء العالميين آمنوا بالتقمص (ما يسميه الدروز انتقال « لطيف » فلان الى « كثيف » آخر ، أي هنالك « اللطافة والكثافة » ، الروح والجسد ، وحلول روح شخص في جسد شخص آخر) ولدى كثير من شعراء انكلترا الرومانتيكيين ايمان بوحدانية الكون ، اي ما يعبر عنه الدروز كما قال لي الدكتور مكارم (الله هو الواحد الذي يضم كل شيء . وكما جاء في القرآن : وسع كرسيه السموات والأرض) . . .

اذن تفسير بعض الظواهر الانسانية الخارقة بالتقمص ليس أمراً جديداً وانما عرفه الانسان منذ أقدم العصور ، وليس أمراً يختص به الدروز فقط وإنما نجده لدى كثير من الشعوب والفرق الدينية . . .

وفي اميركا مؤخراً تسري هذه العقيدة بين الشباب بشكل سريع وصادق . . . ونجدهم يحتمون بها من خواء حياة المجتمعات الاستهلاكية .

والانسان الذي سحقته الآلة ، ودمرته الحرب وفرّغت حياته من الحب واليقين ، يجد

في عقيدة التقمص املاً بولادة جديدة ، في جسد جديد . . . ويكف (الموت) الذي دفع بجيل كامو وسارتر الى ذروة العبثية ، يكف الموت عن أن يكون نهاية كل شيء ، ليصير مجرد تجربة انتقال الروح من جسد الى جسد آخر ، وانتهاء تجربة حياتية والبدء بتجربة حياتية جديدة في جسد جديد . . .

تقمص او لا تقمص ؟

لا ادري .

كل ما ادريه هو أن لدى الدروز كنزاً انسانياً من المعرفة الروحية تجب دراسته بجدية ، ونفض الغبار عنه ، فقد يكون فيه الدرب الى اكتشافات انسانية جديدة حول سراديب النفس الغامضة . . فالانسان الذي صار يعرف القمر جيداً ما يزال يجهل صحارى نفسه .

١٦/ ٣/ ٧٣

« ٢٠ حالة توحي بالتقمص » : كتاب مذهل* !

نيرمال صبي عاش في قرية (كوزي كالان) بالهند ومات بالجدري في « ابريل » عام ١٩٥٠ ، ودفنه أبوه (بولاناه) بالدموع والزفرات . حتى هنا والخبر عادي . فآلاف الاطفال يموتون كل يوم في قرى العالم بالجدري وبغيره . . .

ولكن « نيرمال » ، بينما كان يحتضر ، قال لأمه الباكية قرب فراشه : لا تبكي . . . انني لا أموت ولكنني ذاهب إلى أمي . انك لم تعودي أمي . . .

وفي اغسطس (آب) عام ١٩٥١ ، (أي بعد وفاة نيرمال بأشهر) ولد في قرية (شاتا) المجاورة صبي أسموه « براكش » .

وكان براكش منذ ولادته صبياً صعباً كثير البكاء . وحين صار في الرابعة من عمره ، بدأ يمشي وهو نائم . كان ينهض من فراشه ، ويسير في نومه الى الشارع باتجاه قرية (كوزي كالان) ، وحين يوقظه أبوه ويعود به الى البيت يبكي ويقول انه كان عائداً الى بيته في (كوزي كالان) . . وحينما صار في الرابعة والنصف من عمره اتضحت في رأسه رؤيا حياته الماضية في قرية (كوزي كالان) . قال لأمه وأبيه (الحاليين) انه قبل أن يولد لهما ، كان يعيش هناك ويدعى (نيرمال) لا (براكش) . . . وتذكر اسم والده وأمه السابقين وأسماء اخوته ورفاقه . وصار يبدي إصراراً شديداً على الذهاب وزيارة تلك القرية . وتخلصاً من إلحاحه ، تظاهرت أسرته بالقبول ، ورافقه عمه في الباص إلى قرية اخرى ، إلا أن (براكش) أصر على أن هذه ليست قرية (كوزي كالان) ، وهذه الطريق ليست الطريق اليها . وأصر على الذهاب الى (قريته) - التي لم يطأها قط ، هو ، أو أي من افراد اسرته بصفته الحالية براكش - . وهناك ، قاد عمه الى دكان قال انها دكان أبيه . وتصادف أن كانت الدكان مغلقة ، لذا عاد وعمه الى قريتها « شاتا » .

وظل براكش على حاله رغم العقاب الشديد الذي لقيه من أسرته جزاء أقواله عن

---

* كتاب : « ٢٠ حالة توحي بالتقمص » TWENTY CASES SUGGESTIVE OF REINCARNATION
تأليف البروفسور ايان ستيفنسون Dr. IAN STEVENSON

حياته السابقة . فقد ربطا به الى دولاب أداراه عكس اتجاه عقارب الساعة والزمن ، فالقرويون هناك يعتقدون أنهم بذلك يمسحون الماضي عن الذاكرة . . . ولكن يبدو أن رؤ يا الحياة السابقة هي مثل الوشم في الدماغ . . . لا تمحى . . .

وأخيراً ذهلت اسرة « براكش » حين تحققت من صدق دعواه . . .

فقد ثبت أن في قرية (كوزي كالان) اسرة لها الاسم الذي ينتحله . وأن لهم أبناً مات في العاشرة ـ أي قبل أن يولد براكش ـ وكان اسمه (نيرمال) فعلاً ! . . .

وحين التقى بتلك الاسرة ، قدم لهم البرهان على أنه فعلاً « نيرمال » ! . . .

فقد عرف والده فور رؤ يته له ، وسألهم عن صديقه الحميم فتبين أنه مات أيضاً (ولا يدرون في أي جسد يحيا حالياً) ، ثم انه عرف دكاكين والده (السابق) الثري ، كما أنه بكى حين شاهد والدته (السابقة) للمرة الاولى ، وجلس في حضنها ، وذكرها بما قاله لها اثناء احتضاره من أنه ذاهب لأم أخرى . . . كما أنه ميز أخته الكبرى ، وجيء اليه بأخيه في زحام من الناس فعرفه فوراً وناداه باسمه ، كما ميز جارهم واقتادهم الى دكانه . وفي داره السابقة أرشدهم الى السرير الذي مات فيه ، والذي نقل اليه من غرفته الخاصة حين اشتد عليه المرض . ورأى سلسلة معلقة فقال لهم إنها سلسلة جده ، ولم يكد يدخل الى البيت شخص غريب حتى صرخ قائلاً : وهذا طبيب العائلة . . . ثم مر بالدار آخر فقال : هذا هو الرجل الذي كان يأتي الى الدكان ليأخذ الضرائب . . .

وطبعاً اقتنعت أسرته السابقة بأنه هو فعلاً ابنهم الميت . . وبدأت المنازعات بين أسرتيه السابقة والحالية ، إذ ان اسرته السابقة الثرية ، أبدت رغبتها بتبنيه ، مما أثار جنون أمه وأبيه .

وكاد الدكتور ستيفنسون (بروفسور اميركي واستاذ جامعي وبحاثة في عالم الروح) يذهب ضحية هذا الشجار الذي تحول من خصام بين أسرتين الى نزاع بين أهل القريتين كلهم . . . فقد تصادف أن كان الدكتور ستيفنسون هناك يحقق في صحة أقوال الصبي ، وظن أهله أنه هو الذي أقنع العائلة الثانية بتبني ولدهما السابق (القاطن) حالياً في جسد جديد . . .

والدكتور « ستيفنسون » هو الذي يروي لنا هذه القصة الواقعية ، كما يروي ١٩ قصة غيرها في كتابه المثير (٢٠ حالة توحي بالتقمص) والذي يذكر فيه حالة تقمص اللبناني عماد الاعور لروح ابراهيم ابو حمزه والتي حقق فيها بنفسه ، ويذكر في الكتاب أن نسبة حوادث التقمص المعروفة في لبنان أعلى من نسبتها في أي مكان آخر في العالم .

وبقية قصص الكتاب مثيرة ، تلقي كثيراً من الأضواء على ظاهرة التقمص ، وعلى ما توصل إليه الانسان حتى اليوم من كشف لبعض مظاهرها . . .

فمثلا ، قبل أن يحدث تقمص ، أي حينما تكون الأم حاملاً بوليدها وقبل أن يلد وتحل فيه الروح ، تحلم الأم أحياناً بالشخص الذي سيتقمص جنينها روحه .

وقد روى لنا احد معاوني البروفسور ستيفنسون في لبنان الاستاذ عصام أبو الحسن (شاعر ، وطالب في الجامعة الاميركية بقسم الهندسة) قصة أم طليع سويد (المتقمص لروح سعيد ابو الحسن) . لدى هذه السيدة طفل آخر اسمه مزيد (٦ سنوات) قدم الادلة على أن روح المرحوم عفيف حاطوم قد تقمصته . وتقول الأم انها أثناء حملها بمزيد ، حلمت بعفيف حاطوم وبأنه يجري وراءها ليقبلها بينما هي تهرب منه .

وعندما ولد ابنها مزيد وكبر قليلاً بادرها بالقول : أنا عفيف حاطوم . . . وتذكرت حلمها . . .

كما حدثنا الاستاذ عصام أبو الحسن عن ظاهرة أخرى ، هي ظاهرة وراثة العاهات أو الامراض ، حيث تورثها الروح للجسد الذي تحل فيه ، وبالاحرى تورثها بعضاً من علاماته ودلالاته أو حتى من الاعراض دون وجود المرض .

ففي حالة طليع سويد مثلاً الذي تقمصته روح سعيد ابو الحسن(وكان سعيد ابو الحسن قد قتل برصاصة اصابته في خده) ، نجد طليع سويد(٧سنوات): ما يزال يعاني من صعوبة في النطق. والغريب أنهم حين استفسروا من الدكتور سليمان ابو الحسن عن أسباب وفاة سعيد ابو الحسن ، قال لهم أن الرصاصة دخلت خده الأيمن وقطعت لسانه بعد أن سببت له نزيفاً داخلياً . . . وها هو طليع سويد الذي تقمصته روحه يعاني من صعوبة في النطق دون أي سبب مرضي ، لا لشيء سوى أثر رصاصة في خده الايمن ، تماماً في الموضع الذي اخترقت فيه الرصاصة خد المرحوم سعيد أبو الحسن ! . . .

وسالم العنداري ما يزال رأسه يحمل أثر ضربة عصا ، هي الضربة التي تلقاها جسد « حسن حامد » وقتل بعدها ، وتقمصت الروح جسد سالم العنداري ، كما أن سالم كان يعاني من آلام في رأسه . . . إلا أنه بعد بلوغه سن ١٥ ـ ١٨ لم يعد يشعر بهذه الآلام . . . وكذلك طليع سويد بدأت تفارقه صعوبات النطق . . . ان هذه الحالات تكون شديدة في الصغر (حين تكون الذاكرة للحياة الماضية متأججة ، كأن هذا الوجع هو

من صنع الذاكرة ولذا لا يجد له الاطباء تشخيصاً مرضياً) ثم يتلاشى من تلقاء نفسه فيما بعد ربما مع تلاشي ذاكرة الانسان لحياته السابقة . . .

وحدثنا عصام أبو الحسن أيضا عن رجل توفي يوم ١٣ آب ١٩٣٥ وكان يدعى وجيه التياني ، وولد في اليوم نفسه والساعة نفسها عزت شهيب . وكبر عزت شهيب ، و (نطق) باسم وجيه التياني (أي أن روحه تقمصته) . وعاد إلى أسرته السابقة ليعيش مع أخيه واخته من الجيل السابق من آن الى آخر . . . وكان المرحوم وجيه التياني يعاني من امراض آلام في المعدة . والغريب أن عزت شهيب يعاني من الأوجاع نفسها والأعراض نفسها دون أن يكون مصاباً بأي مرض عضوي فقد أثبت الفحص الشعاعي أنه سليم تماماً . . .

وقبل أن يسرقنا حديث عصام ابو الحسن وحكاياه التي تثير آلاف الاسئلة ، وتطلق إشارات الاستفهام في رؤوسنا كخلية من نحل ، نعود الى كتاب الدكتور ستيفنسون .

التقمص يحدث في العالم كله

في هذا الكتاب ، يدرس ظاهرة التقمص بنفسه في البرازيل والهند وسيلان و « التلينجيت » في ألاسكا بالاضافة الى لبنان .

وكل قصص الكتاب تستحق التأمل والدراسة ، وقد انتقيت لكم منها بعض الحالات المتنوعة وغير المتكررة في مظاهرها . . .

والجدير بالذكر أن الدكتور ستيفنسون ، الاستاذ بكلية الطب في جامعة فرجينيا يؤكد أن التقمص يحدث في كل مكان على الكرة الارضية ، انه موجود حيث يوجد الانسان ، إلا أن الاقوام التي تؤمن بالتقمص تلحظ وجوده أكثر من سواها ، ولذا فقد ركز دراساته في مناخها الانساني المهيأ .

وصلت الروح متأخرة

هذه الحالة في التقمص تثير تساؤلات اضافية . فالتقمص لم يحدث إلا بعد ٣ سنوات ونصف من ولادة الجسد الثاني . . . وكي لا أزيد الغموض غموضاً أسارع فأروي لكم هذه الحكاية العجيبة . . .

في ربيع عام ١٩٥٤ أصيب طفل يدعى جاسبر بمرض الجدري وبدأ يحتضر ، وظن أهله أنه مات . ولما كان الصبي من الهندوس ، وطقوسهم تقضي باحراق أجساد الاموات ـ ما عدا الذين دون الخامسة من أعمارهم ، أو الذين يقضون بأمراض سارية

حيث كانوا يدفنون أو يرمى بهم الى الانهار . فقد ذهب والد الطفل الى شقيقه كي يساعده في دفن طفله . ولما كان الليل قد انتصف ، فقد اقترح عليه شقيقه الانتظار ريثما يطلع الفجر . . . وعاد الاب الى الدار بانتظار الفجر لدفن ابنه . . . ومع الفجر لاحظ أن جسد ابنه لم يكن هامداً تماماً ، وأن بصيصاً من الحياة قد دب فيه . . . ومرت أيام قبل أن يقوى الطفل على الكلام ، ومرت اسابيع قبل أن يمشي . . . لكنه شفي . . . وبعد شفائه كانت المفاجأة . . .

فقد انقلب ابنهم جاسبر الى شخص آخر . كان واضحاً أن روحاً جديدة قد حلت فيه . . .

فقد رفض أن يأكل من طعامهم . قال لهم انه من (البراهما) وانه يريد أن يأكل طعاماً مطبوخاً وفقاً لتقاليده الدينية . . . وتبدلت لهجته في الكلام ، وأسلوبه في الحوار وحتى ألفاظه ! . . . وصرح لهم أنه (خلال فترة غيبوبته) كان حياً في قرية (قاهدي) وأنه ابن شيخ القرية وأنه يرغب في العودة الى هناك . . . وروى لهم أنه كان شاباً متزوجاً وأنه مات مقتولا ، فقد سممه رفيق له في حفلة عرس ، وذلك تخلصاً منه ومن دين له عليه . وأصيب بالدوار وسقط عن عربته ومات ، وأن السم هو سبب موته لا السقطة ! . . . وأن اسمه كان (صبح رام) وعمره حين مات ٢٢ سنة واسم ابيه (شكنكر لال تايجي) . .

وطبعاً شاعت القصة ، وجيء بالصبي الى قرية (صبح رام) ليثبت أنه هو . والغريب أن حكايته صحيحة كما يقول كتاب البروفسور ستيفنسون الذي حقق في الحادثة بنفسه .

. . . وأن كل الاشخاص الذين ذكرهم حقيقيون . وأن (صبح رام) مات فعلاً عام ١٩٥٤ خلال فترة غيبوبة الطفل واشتداد المرض عليه . وقد حقق البروفسور ستيفنسون في القضية ، ودوّن ملاحظات خطيرة في عالم الروح . . . فقد تعرف الصبي جاسبر على زوجته (حين كان صبح رام) وكان أهله يعلمون بحكاية سقوطه عن عربته ولا يعرفون بقصة دينه مع الصديق القاتل وقد تعرف على افراد اسرته واصدقائه وحتى حماته وشجرة « التاماري » أمام البيت وابنه كان اسمه فعلاً كما ذكر وتعرف على عمته واخته . بل انه ذكر لهم أنه حين مات كان في جيبه عشر روبيات (في معطفه الاسود) وأكد هذه الحقيقة أهل (الفقيد !) . وروى لهم بعض أحداث حياته . كيف عضه كلب ذات مرة بينما كان ذاهباً الى احدى السهرات . . . بل انه تعرف على أعداء الاسرة والذين لم يكونوا يكونون

لهم الود ولم ينس أنه كان يمتلك ثورين ، الابيض منهما طويل القرون والاسود قصير القرون ! . . .

الروح تتكلم بلغات سابقة

« سوارتلانا » طفلة في الثالثة والنصف من عمرها وابنة المفتش المعاون لمدارس منطقة برادش .

تؤكد أنها عاشت قبل ذلك في مدينة تبعد مئات الاميال عنهم . . . اعطت اسمها السابق وصفات حياتها الماضية وتحقق والدها من أن روحها كانت تحيا قبل في جسد فتاة اسمها (بيبا) ماتت عام ١٩٣٩ أي قبل ولادة أبنته بتسعة اعوام . . . وقد تعرفت سوارتلانا على جميع افراد أسرتها السابقة أيام كان اسمها « بيبا » وقدمت الدليل على صدقها . والطريف ان « سوارتلانا » كانت تتحدث بلغة يجهلها أهلها كما تقدم رقصات واغاني غريبة عنهم تبين انها (بنغالية) وان (بيبا) كانت تعرفها . . : فقد قام البروفسور « بال » بدراسة نطقها وأغانيها وتأكد أنها البنغالية لغة (بيبا) التي حملتها معها الروح حين حلت في « سوارتلانا » أو بالتعبير الدرزي حين (نطقت) سوارتلانا .

الروح تشهد في المحكمة

لعل من أخطر القضايا التي تطرحها ظاهرة التقمص في هذا الكتاب هي كشف الجرائم والقتلة . فحين يحدث التقمص ، لا يوجد في الدنيا ما يسمى « بالجريمة الكاملة » ، ما دام القتيل يمكن أن يعود الى هذه الدنيا في جسد آخر ليحدثنا عن قاتله ، وليروي لنا تفاصيل لا يعرفها سواه عن قاتله ، وليجره من جديد أمام المحكمة .

ففي ليلة ١٩ كانون الثاني « يناير » ١٩٥١ قتل صبي يدعى (مونا) في السابعة من عمره بطريقة وحشية وكان وحيد أبويه . . وحامت الشبهات حول اثنين من الجيران شوهدا ينفردان به قبل مصرعه ، وكان أحدهما حلاقاً ، خصوصاً أن الجريمة تمت بأداة قاطعة تشبه الشفرة ، أو موسى الحلاقة ، جزت بها عنقه وأعضاؤه . وقد القي القبض على المشتبه بهما وحوكما ، ولكن اطلق سراحهما لعدم كفاية الادلة ، رغم أن كل من في القرية كان مقتنعاً بجرمهما .

وبعد ستة أشهر من الجريمة ، اي في صيف ١٩٥١ ولد طفل في مقاطعة مجاورة ، واسموه « رافي » .

ومنذ تعلم « رافي » الكلام صرح بأن اسمه هو (مونا) لا (رافي) ، وأنه مات

مقتولاً . . . وحدث أبويه عن ظروف قتله ، وسمى قاتليه ، وقال انهما انتزعاه من لعبه واختليا به في حقل منعزل وأن احد قاتليه حلاق اجهز عليه بالشفرة . . . ووصف ثيابه وثيابهما بالتفصيل ويسمى أباه السابق . . .

ووصلت الانباء الى والد القتيل مونا . . . قيل له إن روح ابنـه قد (نطقـت) في المقاطعة المجاورة ، وانها تقمصت روح طفل هو « رافي » .

والواقع أن رافي كان يبدي باستمرار خوفاً شديداً من الحلاقين ، ومن مشهد الشفرات أو السكاكين (التي قتل بها في حياته السابقة) ، وكان باستمرار يطلب بالحاح لعبه (التي كان يمتلكها في حياته السابقة) ويرغب بشدة في رؤية أسرته السابقة ورفاقه . . .

وأخيرا ذهب رافي الى قريته السابقة ، وتعرف على كل الاشخاص الذين كان يعرفهم وعلى منزله واسرته . . وحينما شاهـد (قـاتليه) ارتعـد وارتجف ، واصيب بنوبـة خوف عصبية دون أن يقول له أحد أن هذين الرجلين هما قاتلا (مونا) . . .

والأغرب من ذلك كله ، أنه منذ ولادته كان يحمل في رقبته أثر جرح طويل شبيه تماماً بالجرح الذي خلفته الشفرة في جسد مونا حين جزت رقبته ! . . .

وانتابت رافي ـ وهو الطفل ابن السادسة ـ رغبة مجنونـة في الانتقـام من قاتليه . . . وانتقلت العدوى الى والده في حياته السابقة ، والى أهل القرية جميعاً ، وتقدم الوالد الى السلطات طالباً إعادة محاكمة قاتلي ابنه وفتح الدعوى الجنائية من جديد ، وذلك على ضوء (الشاهد الروحي) الجديد (رافي) الذي تقمصته روح القتيل . . .

ورغم اللغط الذي أثارته هذه الدعوى ، فقد رفضت السلطات القضائية قبول شهادة « رافي » بصفته المتقمص لروح القتيل . . .

ولكن ، من يدري ، ربما تنقلب العلوم الجنائية بأكملهـا ، والقوانـين كلهـا ، يوم يكشف الانسان المزيد عن اسرار التقمص ، ويصير الشخص المتقمص لروح آخر مقبول الشهادة ! . . ويومها قد لا يغامر مجرم بارتكاب جريمة ، اذا كان قتيله سينفض عنه غبار القبر وينهض ليلاحقه من جديد في جسد جديد ! . . .

تبديل الجنس في التقمص

أكثر ما يثير الفضول من حالات التقمص في سيلان التي ذكرها الكتاب هي حالـة الفتاة التي تقمصتها روح صبي !

(جنانا تيليكا) فتاة ولدت في اواسط سيلان عام ١٩٥٦ . وكما في حالات التقمص الاخرى ، بدأت منذ تعلمت الكلام تحدث أسرتها عن أن لها أماً أخرى وأباً آخر وشقيقين

ذكرين وعدداً كبيراً من الاخوات البنات . وأنها كانت تعيش في منطقة اخرى بعيدة هي قرية (تالاواكيلي) . واضافتوسطدهشة الجميع أنها يومئذ لم تكن فتاة ، وانما كانت صبياً ! . . .

وطبعاً أثارت تصريحاتها وتأكيداتها اهتمامرجـل الدين الاب بياداسي ثيرا ، الذي قام ببعض التحريات في قرية (تالاواكيلي) ، وذهل حين اكتشف أن في القرية أسرة تحمل الاسماء التي سمتها الفتاة لأسرتها . . . وأن هذه الاسرة قد فقدت صبياً عام ١٩٥٤ أي قبل ولادة الفتاة بعامين ! . . .

وكانت الفتاة جنانا تيليكا تحدثهم باستمرار عن استاذها أيام كانت صبياً ، وعن ولعها بهذا الاستاذ وشوقها العظيم الى رؤيته .

وتحققت رغبة الفتاة الصغيرة ، وذهبوا بها الى قريتها السابقة حيث تعرفت الى جميع افراد اسرتها فور رؤيتهم . وكان من الثابت عدم وجود أية معرفة سابقة بين الاسرتين أو أي صديق مشترك بينهما . . . بل إن الفتاة تحدثت عن المدارس التي تعلمت فيها أيام كانت صبياً ، ولم تكد ترى استاذها القديم حتى ركضت إليه باكية . . .

وكانت تتحدث عن تفاصيل كثيرة عاشتها لما كانت صبياً . . . تحدثت كيف لمحت (بالاحرى لمح فقد كانت صبياً في حياتها السابقة) الملكة تمر في القطار في قريتها (تالا واكيلي) . . وكيف كانت أمها (أو امه) تشتري الحطب (لأنهم يقطنون في المرتفعات حيث يباع الحطب ، لا كما في قريتها الثانية الواقعة على كتف غابة حيث الوقود متوفر مجاناً) . . .

وذكرت أنها في طريقها الى المدرسة بالقطار كان القطار يمر بنفق . بل وتذكرت أسطورة كان قد علمها إياها استاذها المفضل ، وأكدت أسرتها أنها لم تتعلمها في مدرستها لانها ما تزال صغيرة ولا أحد من أفراد أسرتها يعرفها ! . . وذكرت أنها لما كانت صبياً ، تسلقت قمة آدم في الجبل في رحلة مدرسية . وحين شاهدت استاذين آخرين في مدرستها السابقة لم تعرفهما ، وتبين فيما بعد أنهما انتميا الى المدرسة بعد وفاتها كصبي ! . . . وحينما شاهدت أمها السابقة للمرة الاولى ، أصرت على اخراج امها الحالية من الغرفة ثم ركضت الى حضن الاولى تنتحب وتقبلها والام تردد اسم طفلها الميت . . .

وكان لها شقيق لم يكن على علاقة طيبة بها خلال حياتها ، فالتقته ببرود شديد وتحفظ ، وقالت انه شقيقها الذي لا تحب ، وقد كان تجاوبها مع أسرتها الماضية ومعارفها السابقين منسجماً تماماً وعواطف الصبي الميت نحوهم (الذي تقمصتها روحه) كما يذكر

الكتاب .

والواقع ان الصبي لم يكن سعيداً مع اسرته الماضية ، ولذا لم تبد الفتاة أية رغبة بالعودة الى اسرتها السابقة ، وانما اكتفت بفرحة لقائهم ولقاء استاذها . . .

أما تفسير البروفسور ستيفنسون لتغير جنس الجسد اثناء التقمص من جسد صبي الى جسد بنت ، فانه يرى بعد أن درس ظروف الحالة جيداً ، أن الصبي لم يكن سعيداً بكونه صبياً .

كان على خصام دائم مع أخويه الصبيين ، وكان والده كثير الترحال ،وهكذا كانت امه وشقيقاته يحطن به باستمرار . . . وتربى في جو نسائي ، ومال الى التخنث وشهدت أمه بذلك ، وبأنه صار يفضل عشرة الجنس اللطيف واجواء النساء . . وكان مولعاً بالخياطة ، وبطلاء اظافره بالاحمر ، وكان يهوى التنانير الحريرية !! . . . وهكذا فقد تقمصت روحه جسد فتاة في حياته التالية ! . . كما شهد أهل الفتاة (التي تقمصتها روح الصبي) انها مسترجلة بعض الشيء إذا قورنت بأختها . فهي لا تخاف الظلام ولا الحشرات ، ثم انها تستعمل ألفاظاً وتراكيب لغوية صعبة ، كان الصبي (أو كانت) قد تعلمتها في المدرسة في حياتها السابقة ، وكانت مثله تفضل اللون الازرق . . شيء واحد كانت تخافه الفتاة هو السقوط ، وقد ثبت أن الصبي مات إثر سقوطه على رأسه ! . . .

في سيلان أيضا ، عام ١٩٤٧ رزق رجل يدعى (تيليراتني هامي) بصبي . ولاحظت أسرته فور مولده وجود تشويه في ذراعه الايمن وصدره من الجهة اليمنى . ثم ان الصبي كان شديد السمرة (كعمه الميت) ولم يكن يشبه بقية اخوته الصغار . . . وقال والده فور مشاهدته له : ها هو شقيقي قد عاد الى الحياة . . .

وكان شقيق الاب (أي عم الطفل) قد مات قبل مولد الطفل بأعوام ، اذ حكم عليه بالاعدام لانه قتل زوجته ونفذ فيه الحكم .

وحين صار الصبي في الثانية والنصف من عمره ، كان يدور في أرض الدار بشكل متوحد حزين ويتحدث وحده . . وحين اتضح كلامه ، فهموا منه أنه يتحدث عن جريمة اقترفها في حياته السابقة . . . ويقول إن يده مشوهة لأنها اليد التي قتل بها زوجته !

وقد سمع بالحكاية الأب (الديني) أناندا ميتريا بروفسور الفلسفة البوذية في كولومبو ، وحقق في هذا الموضوع ، وتأكد من أن الطفل يعرف عن الجريمة تفاصيل لا يمكن أن يعرفها إلا مقترفها ! . .

سـواء آمنت أم لا . . .

وبعد . . .

فإن قصص هذا الكتاب النادر مذهلة . . . وتفاصيلها تدعو الى التوقف طويلاً عند ظاهرة التقمص بدلاً من المرور بها بلا مبالاة شخص يقرأ نشرة الاحوال الجوية في كوكب آخر مثلاً ! . . .

فقضايا الروح والجسد ، واسرار الموت والحياة تخص كل انسان على وجه الارض ، والتفكير بها ليس واجباً أو احتكاراً لفئة معينة أو أخرى . . .

وسواء كنت مثل أفلاطون وفيثاغورث وكانط وهيوم وفيخته وشوبنهاور ورنوار وخليل تقي الدين وميخائيل نعيمة ولويس عوض وجبران خليل جبـران (وغيرهـم لا يحصى) تؤمن بالتقمص ، أو كنت لا تؤمن به كالكثيرين أيضاً . . يظل هذا الموضوع يخصك ما دمت إنساناً ولد وسيموت وربمـا سيتقمص . . . أو تقمص . . . من يدري ؟ . . . قد نهتدي الى حقائق نجهلها . . . ونعرف سكينة اليقين .

٢٧/ ٤/ ٧٣

لقاء مع البروفسور ستيفنسون مؤلف « كتاب التقمص »

منذ كتبت حول رحلتي الى بلدة فالوغا والمتن وحمانا ، ولقائي ببعض الاطفال الذين تقمصتهم أرواح أشخاص ماتوا ، والظاهرة العجيبة في إقامة اولئك الاطفال الدليل على اطلاعهم الكامل لادق جزئيات تفاصيل حياتهم السابقة ، وحتى كلماتهم وهم على فراش الموت ، منذ ذلك والرسائل والمخابرات الهاتفية تنهال عليّ من القراء كما لو كنت « مستشارة أرواح » ، وكلهم يسألني رأيي في أمور روحية وظواهر لا أملك لها تفسيراً . . . كل ما أعرفه وكل ما فعلته ، هو مجرد تسجيل حرفي دقيق لما قاله المتقمصون (بفتح الميم) لي عن حكايتهم ، وحياتهم السابقة ، مع ذكر اسمائهم حالياً . واسمائهم في حياتهم السابقة ، مع صورهم . ولخصت كتاباً ضخماً يعدّ أحد المراجع الثمينة المعاصرة حول التقمص ، ألفه بروفسور أميركي هو الدكتور ايان ستيفنسون الاستاذ بكلية الطب في جامعة « فرجينيا » بأميركا ، واسم الكتاب (٢٠ حالة توحي بالتقمص ـ أصدرته الجمعية الاميركية للابحاث النفسانية) .

و في هذا الكتاب خلاصة ابحاث اجراها البروفسور ستيفنسون نفسه على الاطفال الذين يعلنون أنه كانت لهم حياة سابقة . ونجده في هذا الكتاب يرافقهم الى المكان الذي قالوا انه سبق لهم أن عاشوا فيه ، ويتأكد من صدق قولهم باستعماله ذكاء المحقق الجنائي ، الى جانب معرفة الطبيب النفساني . وهو يتنقل بنا في كتابه بين الهند وألاسكا وسيلان والبرازيل ولبنان ، ذاكراً بدقة علمية فائقة الاسماء والتواريخ والاحداث العجيبة المذهلة التي واجهها والتي وجد أن « التقمص » هو التفسير ـ الاكثر ترجيحاً ـ لها . . . وقد نقلت الى قرائي عددا من قصص كتابه ، ولخصت لهم حكاية اللبناني عماد الاعور الذي تقمصته روح ابراهيم بشير ابو حمزة كما ذهبت وقابلته . . .

وكنت أعتقد أن علاقتي بالارواح انتهت عند هذا الحد .

ولكن الاقدار كانت تخفي لي مفاجأة لم تخطر ببالي .

ذات مساء ، والريح تعول كأرواح ضحايا لم يثأر لها ، وهاتفي معطل ، وقلبي مملوء

باحساس غامض بالترقب ، فوجئت بقرع على الباب ولم أكن انتظر أي زائر .

كان القادم هو الزميل غسان مكارم مبللا بالمطر ، يقول بصوت راجف : البروفسور ستيفنسون موجود في بيروت .

***

غرفة شاحبة الاضاءة في فندق « الباسفيك » ، ونحن اربعة (اشباح) البروفسور ستيفنسون ، والشاعر عصام ابو الحسن (طالب الهندسة في الجامعة الاميركية واحد معاوني البروفسور في لبنان) ، والزميل غسان مكارم ، وانا .

البروفسور ستيفنسون لا يبدي شهية كبيرة للكلام . وسيم وشفاف في وجهه هدوء صاحب القلق . قلت له : قرأت كتابك واعجبت به .

قال : سيعاد طبعه بعد اجراء تعديلات عليه أو بالاحرى إضافات اليه . فقد صدر كتابي ، عام ١٩٦٦ ، وأنا ما زلت منذ ذلك التاريخ ، ألاحق واسجل تطورات الحالات الروحية التي سبق ورصدتها .

ـ منذ متى وانت تهتم بالتقمص ؟

ـ منذ كنت في الخامسة من عمري . كانت امي شديدة الاهتمام والايمان بالتقمص .

والبروفسور ستيفنسون ـ وعمره بين الاربعين والخمسين ـ متفرغ كلياً لابحاثه الروحية حول التقمص . فهو اعزب وبلا اولاد . . واذا سألته فيما اذا كان يؤمن بالتقمص ، التمعت عيناه ببريق الايمان واجاب لسانه بموضوعية علمية : اعتقد أن التقمص هو افضل جواب وتفسير للحالات التي درستها في كتابي وفي غير كتابي . حينما يأتيك طفل ، ليقول لك أنه عاش سابقاً في مكان وزمان اخر (مكان لم يسمع به قط من قبل بواسطة مجتمعه الحالي) ويقيم الدليل على صدقه ، فان التقمص هو التفسير . . .

ـ لاحظت انك درست التقمص في بلدان نامية (او متخلفة)، أفلا توجد حالات تقمص في بلاد راقية ؟

ـ نعم . التقمص يحدث في كل مكان . وانا الآن احضر كتاباً عن التقمص في اوروبا والولايات المتحدة ، وقد درست فيه ٣٠ حالة تقمص اوروبية ، كما درست بعض حالات التقمص في المانيا والولايات المتحدة واستراليا .

ـ حينما نقول كلمة « تقمص » هل تعنيها انت بمعناها التقليدي ؟ وهل يمكن ان يكون التقمص هو اللاوعي المتوارث جيلاً بعد جيل ؟

ـ لا يوجد شيء اسمه « التقمص التقليدي » . مفهوم التقمص يختلف بين قوم

وآخر ، فهو يختلف عند الهنود عنه عند الدروز عنه عند اليابان أو الاميركان أو الانكليز ، ولكن روح الفكرة تظل واحدة . وهنالك علاقة بين شكل الايمان ، وشكل التقمص . مثلا في لبنان (وهو اكثر بلدان العالم من حيث حوادث التقمص) لا توجد حالات تبادل جنسي في التقمص (أي أن تتقمص الروح جسد انثى بعد ان كانت في جسد ذكر ، وتصير الفتاة في حياتها الثانية رجلاً) ، اما عند الهندوس فاننا نجد كثيراً من حالات تبادل الجنس في التقمص . ويتابع الدكتوز ستيفنسون :

اما عن « اللاوعي المتوارث » فإنه قد يفسر بعض حالات التقمص لا كلها (تذكرت هنا حكاية عن صبي انكليزي ولد يتحدث اليابانية ويحمل عادات يابانية منها أكل السمك نيئاً وهو أمر يشمئز منه الانكليزي العادي ، وهذه الحادثة لا يمكن تفسيرها باللاوعي المتوارث والتقمص وحده يفسرها) .

سألت البروفسور « ستيفنسون » المار ببيروت في طريقه الى الهند لدراسة مزيد من حالات التقمص : هل انت وحدك في اميركا المهتم بهذا الحقل ، ام هناك اساتذة جامعيون سواك ؟

ـ في اميركا حوالي ١٢ بروفسوراً متفرغين لحقل (الباراسايكولوجي) . بينهم ثلاثة يهتمون بقضايا الروح . لي زميل يدرس رؤى المحتضرين ، أي لحظة انفصال الروح عن الجسد المشحونة بطاقات عجيبة من الرؤيا ويقظة ما بعد الحواس الست . ولدي زميل آخر يدرس حالات الناس الذين ينجون من الموت بأعجوبة وبالاحرى يموتون لثوان ثم يعيشون من جديد .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

« ـ مثلا درس حالة رجل كان راكباً دراجة نارية ، ثم ضربته سيارة اطاحت به في الهواء ، وسقط الى الارض ونقل الى المستشفى بين الموت والحياة . لقد قال فيما بعد حينما شفي أنه احس ساعة الاصطدام بأنه يطير في الهواء ، يحلّق عالياً ، وأنه يرى من الأعلى جسده ممدداً على الارض والدم ينزف منه ، ويرى الناس متجمعين حوله . . . بل انه أعطى وصفاً دقيقاً للمشهد ، ولما دار على الارض ، وصفاً لا يمكن لرجل في حالة اغماء كامل أن يعرفه ولا يمكن إلا لطائر محلق أن يصفه بهذه الدقة ! . . .

هنالك ايضا زملاء لي استطاعوا تصوير أفكار شخص بواسطة آلات في غاية الحساسية » . .

وصمت البروفسور . كما قلت هو قليل الشهية للكلام ، ولكنها ليلته الوحيدة في

بيروت وقد لا أراه قط بعدها . . . شعرت بحاجة الى المصارحة والاعتراف كما هي الحال في كل لقاء قد يكون الاخير : في كتابك حجر الاساس لمبادىء علم جديد . إنك في مناقشاتك لكافة الاحتمالات والتفسيرات ، وفي أسلوبك العلمي لدراسة حالات التقمص تخلق بداية علم جديد كما فعل ابن خلدون في علم الاجتماع . . .

قال بتواضع : ان أكثر ما يجلب انتباهي في حالات التقمص هو العلامات الولادية . آثار الجراح او العاهات التي يحملها الانسان بفعل أحداث وقعت لروحه اثناء حياتها السابقة في جسد آخر . . قلت له :

وانا ايضا اثارت فضولي هذه الظاهرة . فقد شاهدت بعيني أثر الرصاصة في الخد الايسر للصبي طليع سويد ـ الذي لم يصب برصاصة في حياته ـ كما علمت أن الشخص الذي تقمصته روحه (المرحوم سعيد ابو الحسن) كان قد مات مقتولاً برصاصة في خده الايسر وفي الموضع ذاته . . وقد ازدادت دهشتي حين علمت من الدكتور سامي مكارم بصعوبات النطق التي يعاني منها طليع سويد والتي ترجع اسبابها الى الاصابة التي صرعت الجسد السابق لروحه .

قال البروفسور بانزعاج : انت ذهبت وشاهدت طليع سويد ؟

قلت له : أجل . وذهبت الى الحالة التي درستها انت (عماد الاعور) وذهبت الى بيوت الكثيرين المتقمصين .

قال لي : أرجو أن تظل الصحافة بعيدة عن هذه الدراسات لئلا تفسدها ، فأهم شيء هو أن تتم دراسة الحالة بمعزل عن كل المؤثرات الخارجية . إذا ظهر في قرية ما صبي قال انه سبقت له الحياة في قرية أخرى ، ونشر ذلك في الصحافة قبل أن تقوم دراسة علمية حيادية لأقواله ، فقد تدور اتصالات بين الفتى وأهل قريته السابقة قبل وصول العالم مما يفسد المعلومات ويجعل كل التحقيقات ضعيفة الاثبات . أرجوك . لا تدعي حملة صحفية تقوم حول هذا الموضوع . أتركوه للعلم ولي . . .

وارتجف صوته ، وأدركت كم هو حريص على دراساته ، وكم هو مؤمن بها ، وكم هو بعيد عن أية اهتمامات دعائية . . .

قلت له : ألا تستطيع الصحافة أن تساعد في هذا المجال ؟ قال : بلى . أرجو أن تنشري عنواني وتطلبي الى قرائك أن يكتبوا الي بأية لغة ، بالعربية أو الفرنسية أو الانكليزية حول أية حالة تقمص يلحظونها على أولادهم أو يحسون بها هم أنفسهم وأرجو منك أن تحذريهم من إعلام الصحافة بذلك ، وأن يكتبوا إليّ مباشرة .

وها أنا باخلاص (الصحافي) الملتزم للحقيقة ، أنقل الى قرائي المتقمصين تحذير البروفسور لهم من (الصحافة) . . . وفي المرة المقبلة ، لا تهتفوا اليَّ ، بل اكتبوا اليه مباشرة ، الى عنوانه :

Dr. Ian Stevenson / School of Medicine/ University of Virginia/Charlottesville, Va 22901 U. S. A.

لا أنصحكم بكتابة الاسئلة اليه لانه لن يجيب. اكتبوا اليه فقط في حال وجود روح ترتدي جسدكم ، وحيئنذ تجدونه يطير اليكم .

١٩٧٣/٤/٢٧

التنويم المغناطيسي

« في التنويم المغناطيسي نرى مدى عمق سيطرة الدمـاغ على بقية أعضـاء الجسـد ، والوظائف الحيوية لها ، ومدى اتسـاع هذه السيطرة وهيمنتها » .

ـ د . جراي والترـ

« عيوننـا عمياء ، علينـا أن ننظـر بقلوبنا » . .

ـ انطوان دي سانت اكزوبري ـ

٧٥/٤/٢١

التنـويم : حقيقة علمية أسيء استعمالها ، فذبلت !

نهض الشاب من فراشه عند منتصف الليل تماماً ، وهو لا يدري ما الذي أيقظه . بدأ يرتدي ثيابه بسرعة . كانت قوة غامضة في أعماقه تملي عليه تصرفاته ، ولم يكن ليملك لها دفعاً . . .

دخل الى المطبخ . أحضر سكيناً كبيرة حادة . اخفاها في معطفه ثم غادر البيت . ركب سيارته . قادها بهدوء محموم . وأوقفها أمام دار جوزف الذي اعتاد العودة من سهراته الصاخبة حوالي منتصف الليل .

لم يطل به الانتظار . أطلت سيارة جوزف ، ونزل منها من دون أن يلحظ الشاب الكامن له في قلب الظلام .

وبينما هو يقفل أبوابها ، فوجىء بشخص لا يعرفه وقد شهر عليه سكيناً هائلة . ظنه لصاً عادياً . قال له بصوت جهد أن يكون هادئاً : « كان ربحي الليلة في القمار كبيراً . تستطيع أن تأخذ كل شيء دونما عنف » .

لكن الشاب لم يجب . وفي ضوء الشارع الشاحب ، لاحظ جوزف أن لمهاجمه ملامح انسان يسير في نومه : عيناه زجاجيتان غائمتان ، ولا يبدو عليه أنه يسمع ما يقال له ! ودب الذعر في قلبه ، وقبل أن يصرخ كانت السكينة قد اغمدت في صدره بسرعة وحذق ، وفي القلب تماماً . حدث كل ذلك بسرعة وهدوء .

ولو لم يتصادف مرور دورية شرطة في ذلك الوقت من الليل ، لاستطاع الشاب الهرب ولظلت الجريمة لغزاً !

ولكن الجريمة ظلت لغزاً بطريقة ما . فقد ثبت أن القاتل لا يعرف جوزف ، ولا دافع لديه لقتله ، فلماذا ؟

وكانت المفاجأة حين صرح القاتل بأنه ليس مسؤولاً عما اقترفته يده ، لأنه حين قتل ، كان في حالة نوم مغناطيسي ، وأن كل ما فعله هو أنه ـ من دون أن يدري ـ نفذ تعليمات رجل سبق له أن نومه مغناطيسياً ، وأصدر اليه الامر بقتل المستر جوزف ، بعد أن عرض

عليه صورته وعنوانه ومواعيد عودته ليلا وأوصاف سيارته !

وكانت المحاكمة حديث الناس والصحافة في أميركا طيلة شهور . وأصر الدفاع على ان الشاب بريء لأنه مسلوب الإرادة تماماً ، وان المجرم الحقيقي هو المنوِّم المغناطيسي ، الذي أراد التخلص من جوزف لخلاف على « ملكية » امرأة !

واضطر القاضي الى الاستعانة بلجنة من الاطباء ، وأساتذة الجامعة المختصين ، الذين أجمعوا كلهم على واقع مذهل ، وهو أنه يمكن للانسان أن يقترف جريمة قتل ، أو أي عمل اجرامي آخر ، اذا طلب اليه ذلك منوم مغناطيسي اثناء جلسة من جلسات التنويم .

وصدر الحكم ، وكان يقضي ببراءة الشاب القاتل ، وبإعدام الرجل الذي نومه مغناطيسياً وأصدر اليه الامر بالقتل .

(هذه الحادثة اوردها البروفسور ماركوز ، الاستاذ في « جامعة واشنطن » ، في كتابه « التنويم ، حقيقة وخيال ») .

القتـل بالكلمـات !

تقدمت امرأة الى سلطات البوليس بشكوى عجيبة . قالت انها على علاقة برجل ينومها مغناطيسياً ، وأن هذا الرجل حرضها على القتل بالكلمات ، اذ أصدر اليها الأمر بقتل زوجها وبالانتحار .

وارتبك البوليس والرأي العام .

وشاب اقتحم بنكاً بدافع السرقة ، وقتل اثنين من حراسه ثم أطلق سراحه ، اذ ثبت أنه كان في حالة نوم مغناطيسي ، وتم اعتقال الذي نومه ووجهت اليه التهمة . (عن كتاب الدكتور تيودور باربر : « التنويم المغناطيسي » ـ صدر عام ١٩٦٩) .

حكايا كثيرة مشابهة عجيبة غريبة ، تزخر بها سجلات الشرطة في بلادهم وفي بلادنا ايضا ، وتملأ مئات من صفحات الكتب العلمية والدراسات عن التنويم ، وتثير الفضول الى معرفة المزيد عن تلك الحالة من « النوم ـ الصحو » ، من « التنفيذ ـ واللا مسؤولية » ، تلك الحالة التي تسيطر فيها ارادة شخص ما على جسد شخص آخر ، والمدعوة بـ . . « التنويم المغناطيسي » . ما حقيقة هذه الظاهرة التي أذهلت الانسان منذ أقدم العصور ، فعرفها ومارسها ، وامتزجت ـ كأي ظاهرة غامضة خارقة ـ بالسحر والدجل والشعوذة ؟

التنويم ، جزء من موضة الروحانيات

تجتاح أوروبا وأميركا في السنوات الأخيرة موجة هرب إلى عالمْ الروحـانيات . إلى

تحضير الارواح وممارسة السحر وإقامة القداس الاسود والايمان بالتنجيم والابراج والتنويم المغناطيسي وكل وسائل اتصال الذات بعوالم ما وراء الطبيعة (تملأ واجهات المكتبات هناك الكتب التي تتحدث عن هذه الظواهر) ، وذلك في محاولة للهرب من خواء الحضارة الاستهلاكية ومدنية « الكومبيوتر » التي لا تبالي بإنسانية الفرد وجوعه الى الخبز الروحي والعدالة الاجتماعية والحرية الحقيقية .

وفي هذا « الكرنفال » الروحي تم استغلال حقيقة علمية ، هي التنويم المغناطيسي ، بأبشع السبل ، وتسخيرها لأغراض اللهو والتسلية والجنون والهذيان ، وتم تطعيم الجلسات التنويمية بالمخدرات القوية مثل « ال . أس . دي . » ، واختلط العلم بالوهم ، والواقع بالهذيان ، والهستيريا بالايحاء ! . .

ولكن ، هل التنويم المغناطيسي شعوذة لا أكثر ، أم أنه حقيقة مذهلة طالما شغلت العلماء ؟

قبل أن يشهد العالم عصر الذرة وعصر الفضاء ، شهد عصر التنويم المغناطيسي حين بلغ الاهتمام بتلك الظاهرة أبعد مدى . ثم عاد وتقلص أمام مشاغل علماء العصر ، واهتماماتهم التطبيقية العملية ، ولم يعد سبر أعماق الانسان وأسرار النفس البشرية موضة شائعة . .

ولكن ، هل نفض العلم يديه من التنويم المغناطيسي ، وترك تلك الظاهرة العجيبة ألعوبة في أيدي الدجالين والمشعوذين ؟ وهل التنويم مجرد نمرة ناجحة في ملهى ليلي ، أم أنه ظاهرة إنسانية فريدة تستحق التأمل والتفهم لا مجرد الدهشة والخوف ؟ لا بد لي من الاعتراف بأن ذلك كله يثير فضولي الجائع الى المعرفة . . . وهكذا كان علي أن اقضي اسبوعاً مغناطيسياً بدأ بقراءة مجموعة من الكتب (« مزمر » ، تأليف نورا ويرنبراغ - « التنويم » ، د . ماركوز - « التنويم المغناطيسي » ، تيودور باربر - « التنويم » ، اندريه وزنهوفر ، « الايحاء في حالات التنويم واليقظة » ، وليام جريفيس - « حالات التنويم » ، جيل ميرتون ومارغريت برغمان) وانتهى بي الى خضوعي للتنويم المغناطيسي على يدي و « عيني » الدكتور غسان يعقوب . ومارست التجربة بنفسي لأفهمها من الداخل ولأن غليلي الى المعرفة لا يرتوي بالكتب وحدها بل بالتجربة الحية أيضاً .

والآن من أين أبدأ ؟ من أين أبدأ ؟ . . هل أحدثكم أولاً عن تجربتي الخاصة مع التنويم ، منذ تمددت على الأريكة أمام الدكتور غسان يعقوب ، وتركت صوته يدخل الى جسدي ، ويكاد يشل إرادتي ؛ أم عن حكاية التنويم القديمة والتي تعود الى ٣٠٠٠ سنة

قبل الميلاد ؟ . .

فلأبدأ منذ البداية . . . المعروفة للعلماء على الاقل !

حقيقـة ولكــن . .

في اليونان ، وجدت ألواح حجرية أثرية ، عليها نقوش تدل على استعمال التنويم في التداوي منذ أقدم العصور . وتعود تلك الالواح بتاريخها الى ما قبل ٣٠٠٠ سنة . وفي مختلف حضارات أقوام العالم القديم ، نجد آثاراً ووثائق ، تؤكد أنهم عرفوا تلك الظاهرة الغامضة الخارقة المدعوة بالتنويم . وأصل كلمة التنويم (هيبنوسز) إغريقي ومعناها : النوم . ولكن التنويم ليس ببساطة « حالة نوم » ، وقد أدرك العالم « بريد » قصور تعبيره هذا وحاول تعديله لكن الاوان كان قد فات ، والخطأ قد شاع . وهنالك اسم آخر لحالة النوم المغناطيسي هو « المسمرية » نسبة الى الدكتور مسمر (١٧٣٣ - ١٨١٥) الذي يعتبر أول من عاد فالقى الضوء في أواخر القرن الثامن عشر على هذه الظاهرة . فقد كان يداوي مرضاه بوسائل جعلت البعض يعتبرونه قديساً والآخرون يرون فيه مجرماً خاطئاً . واهتم بريد وفرويد وليبيوتسن وكاركوت وغيرهم من العلماء الكبار بهذه الظاهرة ، وبعد أعوام طويلة من الأبحاث وتخوف الناس ، والمعجزات والكوارث ، أقر المجمع الطبي البريطاني عام ١٩٥٥ التنويم المغناطيسي كوسيلة هامة من وسائل العلاج النفسي . إذاً هنالك اليوم إجماع على وجود التنويم كظاهرة حقيقية ، ولكن الخلاف هو على تعريفه وعلى تحديد مفهوم له . الكل يعرف آثار التنويم ، لكن أحداً لا يعرف لماذا وكيف يحدث .

وكل الكتب التي طالعتها عن التنويم ، وضعت في رأس اهتماماتها ، تمييز الحقيقة عن الدجل في هذه القضية الغامضة ، التي لم يحط بها العلم بعد تمام الاحاطة ، وكلها يعترف بأن الانسان ما زال يجهل ماهية هذه الظاهرة وكنهها .

ولكن ثبت بالدليل القاطع ، أن للتنويم نتائج مذهلة . من الممكن مثلا تنويم شخص ما ، واصدار الأمر اليه بعدم الإحساس بالالم ، وهكذا يمكن أن تجري له عملية جراحية من دون تخدير ومن دون أن يشعر بالالم .

واذا أعطي النائم مغناطيسياً أمراً بأن يصاب بالصمم فلا يسمع ، فالغريب أنه فعلا يكف عن السمع ! وقد أجريت تجربة عجيبة في هذا المجال عندما نوموا شخصاً نوماً عميقاً ، وأمروه (بالطرش) ، وأطلقوا رصاصة ، فلم تتبدل دقات قلبه أو نبضه . وأطلقوا الرصاصة نفسها بعد ايقاظه ، وأذهلهم تبدل نبضه ، ودقات قلبه حين سمعها .

واذا أعطي النائم أمراً بأن لا يرى شخصاً معيناً موجوداً في الغرفة فانه ببساطة لا يراه !

واذا قيل له بأن كلباً شرساً يطارده ، فانه سيرى كلباً له المواصفات التي ذكرها منومه ، وسوف يركض ذعراً هارباً من الكلب الموهوم ! واذا قيل له أن قطة تجلس الى جانبه فسوف يربت على الفراغ بحنان ، كما لو كانت قطة فعلية تجلس الى جانبه ! واذا قيل له أمامك صديقك « فلان » مثلا فسوف يتوهم انه أمامه وسيراه وسيخاطبه ! واذا حقنوه بالماء وقال له المنوم انهم حقنوه بالمورفين ، فسوف تبدو على جسده كل الاعراض التي يسببها الحقن بالمورفين ! بل انه يمكن لمنوم مغناطيسي أن يقتل شخصاً مريضاً بالقلب إذا نومه ، ثم أوهمه أنه معلق بحبل على حافة جبل ، وأن قواه تخور ، وأن الحبل انقطع وها هو يسقط . . . إذ يصيب النائم الذعر ذاته كما لو أن ذلك قد حدث حقاً ، مما يمكن أن يسبب له نوبة قلبية تودي بحياته ! ويمكن عن طريق التنويم أمر شخص ما بالعودة الى طفولته ، وتذكر وقائع منسية تماماً لدى عقله الواعي ، ومحفوظة في دهاليز العقل الباطن السرية الغامضة . كما يمكن بواسطة التنويم دفع رجل مشلول الى تحريك عضوه المشلول (شرط أن يكون سبب الشلل نفسانياً) .

من يخاف من التنويم ؟

هل تنويم جميع الناس ممكن ؟ لا . أثبتت التجارب أن ثلث البشر أو ربعهم يمكن تنويمهم نوماً عميقاً ، أي أن شخصاً من ثلاثة أو أربعة أشخاص ينام جيداً .

من الذي ينام ؟ خلافاً للاعتقاد الشائع بأن الذين ينامون هم ذوو شخصية خضوعية ، أو أقل ذكاء من المتوسط ، ثبت أنه لا علاقة للنوم بالعمر أو الثقافة أو السن أو الجنس ، وحتى اليوم لا نعرف لماذا ينام شخص ولا ينام آخر ! ومن الممكن تنويم شخص من دون أن يعرف ذلك ، كأن يقال له بأنهم في صدد اجراء جلسة استرخاء له . وليس التحديق في عيني المنوم ضرورياً ، والدليل أن تنويم العميان ممكن . ويمكن أيضاً التنويم الجماعي بواسطة التلفزيون ! فقد قامت إحدى محطات البث في أميركا بذلك ، ونومت المتفرجين جماعياً ، وكانت النتيجة صدور مرسوم عام ١٩٢٠ في أميركا يحرم التنويم المغناطيسي بالتلفزيون والاذاعة ، ويسمح بهما فقط ضمن اطار مسرحيات شرط أن يكون التنويم جزءاً من المسرحية .

ومن الممكن أن ينام شخص يرقب عملية تنويم من دون أن يقصد المنوم ذلك ، أو أن ينام المنوِّم أثناء تنويمه لشخص آخر وتحديقهما مثلاً بمصباح مضيء ، أو أن ينوِّم الانسان نفسه تنويماً ذاتياً : فقد يصدر اليه الأمر في احدى جلسات التنويم بأن ينام فيما بعد من

تلقاء نفسه اذا سمع لحناً معيناً مثلاً . وتستعمل هذه الطريقة في معالجة آلام السرطان حيث ينوم المريض نفسه كلما فاجأته نوبة الألم . وكل إنسان منا في حياته العادية يمارس نوعاً من أنواع التنويم الذاتي ، كما يحدث لنا مثلا حين نجلس إلى جانب نهر رتيب الخرير ، ونفكر من دون أن ندري في ما نفكر ، أو حين نقرأ مرات عدداً من الصفحات في كتاب ما من دون أن نعيها ونكتشف أننا قد نسيناها تماماً . وبعض فقراء الهنود ينومون أنفسهم بالتحديق في سرتهم أو في أي نقطة أخرى ثابتة كمصباح أو أصبع أو صرصور ميت على الارض . المهم في العملية هو رحيل العقل الواعي ، وتخلية الساحة لمجهولات النفس البشرية ، ومن هنا خطر التنويم لأنه يمكن لأي هاو أن ينوم شخصاً آخر ، فتصبح القضية في غاية الخطورة .

حذار من العبث بالتنويم

حاولت إحدى النساء الانتحار عدة مرات دونما سبب واضح ، فقد كانت أماً سعيدة في حياتها الزوجية . وحين خضعت للعلاج النفسي ، تبين للأطباء أنه سبق لأحد الهواة أن قال لها خلال احدى جلسات التنويم للتسلية : « أنت حزينة لموت طفلتك » .

فصارت تبكي وتنشج وضحك الساهرون وتسلوا . ثم أيقظها لكنه نسي قبل ذلك سحب نبأ موت طفلتها ، وهكذا بقي الأمر في عقلها الباطن وصارت فريسة لأحزان غامضة كادت تقضي عليها . . .

وهنالك رجل ذهب الى عيادة طبيب نفساني شاكياً من احساسه الدائم بأن هنالك من يلاحقه ويود ايذاءه . وبعد جلسات متعددة تبين للطبيب أن الرجل سبق له أن سهر في أحد المسارح ، وأن منوماً مغناطيسياً نومه على المسرح على سبيل التسلية ، وقال له أن كلباً شرساً يلاحقه ، وصار الرجل يركض مذعوراً هارباً من الكلب الموهوم ، وتسلى المتفرجون كثيراً وضحكوا ، لكن المنوِّم نسي سحب الأمر ، وكانت النتيجة إصابة هذا الرجل بمرض عصابي كاد يقضي عليه !

وهكذا فالتنويم أمر خطر لأن العبث بالذات الانسانية لعبة غير مأمونة ، خصوصاً إذا تم في رقعة من النفس غامضة ومجهولة المخاطر . وقد صدر عام ١٩٥٢ مرسوم في بريطانيا يحرم التنويم على المسارح والملاهي بقصد التسلية ، وذلك أثر فضيحة كادت فتاتان تذهبان ضحيتها . فالعبث بالتنويم المغناطيسي أكثر خطورة من لعب كرة السلة بقنبلة يدوية ! ولكن التنويم ليس شراً كله ، وإذا مارسه أطباء مختصون فله منافع جمة .

ضرورة الألم

استعملوا التنويم في القرن التاسع عشر قبل اختراع البنج لاجراء العمليات من دون ألم . وما زال الى اليوم يستعمل في بعض حالات العمليات والتوليد وخلع الاسنان بديلا عن البنج للذين لا تسمح حالتهم الصحية بتخديرهم بالعقاقير . ويستعمل أحياناً مقروناً بكميات قليلة جداً من البنج أو حتى من دونها . وفي الحرب العالمية الثانية استعملوا التنويم المغناطيسي في المستشفيات ومعسكرات الاعتقال ، التي كانت تفتقر الى البنج لاجراء العمليات وتخفيف الآلام ، وكانت التجربة ناجحة الى حد مذهل ! فالتنويم هو أسلم طريقة لتخفيف الآلام اذا تم بطريقة صحيحة ، لأنه يوفر على الجسد سموم العقاقير .

لكن علاج الآلام بالتنويم لا يخلو من مخاطر ، اذ يبدو أن للطبيعة حكمة في قضية الألم ما زال الانسان يجهلها ، وأن الالم ضرورة أحياناً لحماية الانسان من مخاطر أكبر .

وعلى سبيل المثال ، هنالك استاذ كان يشكو من آلام مبرحة في ظهره . وحين عولج تبين للاطباء أنه لا يشكو من أي خلل عضوي وأن أسباب آلامه نفسية . وذهب الرجل الى منوم هاو نومه ثم أعطاه الأمر بألا يحس بأي ألم في ظهره . وبالفعل لم يعد الرجل يشعر بأي ألم في ظهره ، لكن انتابته نوبة آلام نفسية مبرحة جعلته يرمي بنفسه من نافذة الطابق السابع منتحراً . في حالة هذا الرجل كان الألم في الظهر مصرفاً لآلام نفسية أشد ايذاء وخطراً . وهكذا فالعلاج بالتنويم مؤذ اذا تم بصورة ارتجالية وعلى أيدي الهواة .

كيف تنام

كيف يتم رحيل العقل الواعي ؟ كيف ينتقل الانسان من حالة اليقظة الى حالة النوم المغناطيسي ؟ الأمر في غاية البساطة ، أرويه لكم على سبيل الشرح لا على سبيل اعطاء دروس تنويم بالمراسلة !

لنفترض أن الدكتور ناجي يريد ان ينوم شابا يدعى مصطفى .

يجلس مصطفى إلى كرسي مريح ، أو يتمدد على أريكة اذا لم تكن لديه عقدة احساس النقص من وضعية التمدد المستسلمة ؛ بينما الطبيب ناجي واقف كما لو كان متسلطاً عليه . يعد جو الغرفة ، ويفضل أن يكون خافت الانوار وبعيداً عن الضجيج كي لا تقع أي مؤثرات خارجية تمنع تنويم العقل الواعي ، لأن غرض التنويم المغناطيسي - كما يقول الدكتور عبد الرحمن اللبان - « ايحاء بالنعاس بحيث ينام العقل الواعي ويظل

العقل الباطن متيقظاً ، فيصير الانسان في حالة غيبوبة من نوع حالات المشي أثناء النوم » .

وقبل أن ينوم ناجي مصطفى ، يسأله عما إذا كان يحب الاستفسار عن شيء ، ويطمئنه الى أن الأمر غير مؤذ ، ثم يبدأ عملية التنويم الفعلية . يقف أمامه ، وقد يطلب منه أن يحدق في عينيه ، بالضبط في عين واحدة من عينيه ، أو يستعين بيديه في شبه هدهدة للنائم ليساعده على الاسترخاء ، أو يطلب منه التحديق في قطعة نقدية أو نقطة مضيئة ، ويقول له بصوت هادىء آمر رتيب : « أريد منك يا مصطفى أن تستمع جيداً الى ما سأقوله . عيناك ناعستان . أنك تشعر بالراحة . تشعر بالاسترخاء . انك تفكر في اللاشيء . . . لا تفكر في أي شيء . . . لا شيء سوى ما أقوله لك . عيناك مغمضتان . انك تفكر في اللاشيء . . . لا شيء الا ما سأقوله لك . ذراعاك ثقيلتان . ساقاك ثقيلتان . كل جسدك ثقيل ومسترخ . . . ثقيل ومسترخ . كل عضلاتك مسترخية . انك تشعر كما لو أنك ترجع الى الوراء . . . الى أحشاء الظلام . . . ترجع الى قلب الظلام . . . وبينما أنت تنسل الى الظلام تزداد استرخاء . . . تزداد استرخاء . انك يا مصطفى لا تسمع غير صوتي . . . لا تفكر إلا في ما أقوله ، تركز على ما أقوله أنا وحدي . (من المهم تكرار كل جملة أكثر من مرة بلهجة حازمة ومؤكدة) انك تشعر بالخدر ، بالنعاس . . . نعاس وخدر . انك تتنفس بعمق وانتظام . . . بعمق وانتظام ، وها أنت تنام . . . تنام نوماً عميقاً مريحاً هادئاً ، تنام . . . تنام . . . نومك يصير أعمق . . . أعمق . . . أعمق . وكلما رحلت مع الظلام كلما صار نومك أعمق . . . أعمق . . . أعمق . نوم عميق . . . عميق . نوم . . . نم . . نم . . نم . . نم . . وبينما أعد أنا من الواحد الى العشرة يزداد نومك عمقاً . . . واحد . . . اثنان . . . عشرة » .

يصمت ناجي بعدها حوالي ٥ دقائق من المفروض أنها تساعد مصطفى على أن ينام نوماً أكثر عمقاً .

المنوم وأنا

حين نومني الطبيب النفساني الدكتور غسان يعقوب (خريج « السوربون » في باريس) « استعمل » معي أسلوب نصف الأمر والتحديق في العينين . (هنالك طريقة فورية للتنويم وخطرة نسيت أن أذكرها لكم ، وهي بالضغط على شريان معين في الرقبة ـ وهو الشريان الذي يغذي الدماغ ـ فتنقص كمية الدم التي تصل الى المراكز الدماغية ، وبالتالي يخف الوعي وينام الشخص نوماً شبه فوري . . . وقد ينام نوماً نهائياً !)

اقترب الدكتور غسان يعقوب بوجهه ، بعد أن تمددت على الاريكة ، وأصدر اليَّ الأمر تدريجياً بأن أنام وأن أحدق في عينيه فقط لا غير . واعترف بأنني قررت ألا أنام ، وبدأت أشغل ذهني بعمليات حسابية معقدة مثل (٥٩٨١ × ٥٢٠) وغيرها ، وشيئاً فشيئاً تحول صوته الى نهر من الظلمات الدافئة وكادت موجاته تجرفني . ودمعت عيناي وبدأ تنميل غامض ينتشر من صدغي الى بقية رأسي الذي أخذ يزداد ثقلاً . ونهضت مصرة على أن لا أتابع النوم ، لكن هذه التجربة جعلتني أعي وعياً غامضاً إمكانية رحيل جزء من ذاتي الى حيث لا أدري وامكانية مغادرة حراسي الذهنيين لمراكزهم ، مخلفين عقلي الباطن عارياً في صحراء المجهول . واعترف بأنني خفت ولم ترق لي متابعة التجربة . شعرت بأنني أرفض السماح لأي صوت بالدخول اليَّ إذا لم يمر أولاً على كل « فلتراتي » النفسية وعلى مصفاتي العقلية . والخطر في التنويم ، أن النفس تخلع قوقعتها مثل سلحفاة تخرج من صدفتها ، معرضة نفسها لعواصف المجهول ومطر النار في شطآن الغموض . والدكتور غسان يعقوب ، رغم مهارته في التنويم ، يقول : « أنا شخصياً أرفض التنويم كطريقة لمعالجة الاضطرابات النفسية أو الجسدية نظراً الى الانتكاسات غير المتوقعة التي يمكن حدوثها . فالتنويم لا يعطل أسباب المرض إنما هو تعطيل موقت لأعراضه . وقد استعملته في حالات فردية وقليلة وكجزء من تشخيص أسباب الاضطراب النفساني ، اذ عدت بفتاة بعد تنويمها الى طفولتها لاكتشاف جذور عقدتها النفسية » .

قوة غامضة

في مسابقة اذاعية عام ١٩٥٥ في احدى المحطات الاذاعية الاميركية ، خسرت متسابقة مبلغ مئة ألف دولار لأنها عجزت عن القيام من كرسيها بعد أن أمرها بذلك منومها المغناطيسي !

أحدهم نوموه ، وأعطوه ليمونة حامضة ، طالبين منه التهامها على أنها حلوة ، فاستمتع بحلاوتها !

وآخر أطلقوا عليه غازاً كريه الرائحة بعد أن أخبره المنوم أنه سيشم رائحة عطرة ، وشم الرائحة فبدا عليه الانتعاش لـ « عبيرها » !

وآخر ، كانوا يجرون له جراحة في الدماغ بعد تنويمه مغناطيسياً ، وأمْرِهِ بعدم الاحساس بالوجع ، وحين سألوه هل تشعر بألم قال مبتسماً ودماغه نصف مفتوح : « أشعر بألم قليل لكنه لا يضايقني » !

وأغرب ما في التنويم هو أن الشخص يظل ينفذ أوامر منومه ، حتى بعد أن يوقظه

(في حال أمره بذلك) ، كأن يقول له : « حين تستيقظ ستحس بالعطش . وحين أخرج منديلاً من جيبي ستغادر الغرفة . وحين أقول لك مرحباً تقول : ياسمين » ! والغريب أن هذه الامور تحدث دونما خلل إلا فيما ندر ، بل ويظل الشخص خاضعاً لها حتى إلى ما بعد ربع قرن من الزمن ! وهذا يفسر إمكانية ارتكاب البعض للجرائم وهم تحت سطوة التنويم المغناطيسي ، من دون أن يكونوا مسؤولين إطلاقاً عما اقترفته أيديهم بالنيابة عن منومهم . وهذا أيضا يفسر مداواة مدمني الكحول والتدخين بالتنويم المغناطيسي ونجاح ذلك العلاج .

واذا أمروا النائم بأن ينسى كل ما دار خلال جلسة التنويم فانه سينسى !

واذا كان التنويم قوة غامضة نستطيع التحكم بها بسهولة ، فان الايقاظ من التنويم أصعب بكثير من التنويم نفسه . والبعض لا يستيقظ بسهولة . ويفسر العلم ذلك بأنهم يفضلون النوم هرباً من متاعب الواقع ، أو هرباً من مسؤولية ما يمكن أن يكونوا قد اعترفوا به أثناء نومهم .

وعلى أي حال ، فالمحاكم والقوانين ترفض الأخذ بأي اعترافات يدلي بها نائم . فقد أُثبت أن البعض يعترف بارتكاب جرائم لم يقترفها فعلاً (ولكن ربما كانوا يتمنون ذلك !) .

هل يمكن تنويم شخص بالرغم من إرادته ؟ نعم ممكن : فاحذروا التحديق في العيون الغامضة ، والانصات الى الاصوات نصف الآمرة : أي احذروا الحب !

(واذا كان التنويم سيطرة ارادة شخص على جسد آخر ، أليس الحب نموذجاً للتنويم الذي يتم برضى الطرف الآخر واستسلامه الكلي ؟ أليس الحب أخطر أنواع التنويم لأن بطله يظن نفسه صاحياً !)

الدكتور لبان : لست مسيحاً

الدكتور عبد الرحمن اللبان يتحدث عن التنويم الذي « كان معالجة وصار مسرحاً . انتقل من العيادة الى المسرح » ! ولكنه على أي حال لا يميل الى استعمال التنويم في العلاج . « هذا عصر العقاقير . أستطيع بعقار بسيط أن أجعل المريض يتحدث عن ماضيه كما لو كان منوماً . تكفي إبرة واحدة في العضل . طبعاً سيذكر ما قاله ، ولو نومته لاستطعت إصدار الأمر اليه بالنسيان ، ولكنني لا أريد أن يهرب المريض من مواجهة مسؤولياته . مهمة الطبيب هي أن يجعل المريض يواجه نفسه لا أن يصلح متاعبه ، ولا أن يحملها عنه . لست مسيحاً ! انني أعتمد على إيقاظ ارادة المريض لا على تخديرها .

فالإرادة تولد في الجسم كل العقاقير ، والفرق بين الذي يشفى بارادته والـذي يشفى بالتنويم كالفرق بين الـذي يتغـذى بثمار الطبيعـة والـذي يعيش على مصـــل الفيتامـين الكيميائي » .

الانسان ، ذلك الكنـز

وهكذا ، وبينما التنويم المغنـاطيسي يشهـد انتكاسته كعلـم ، وازدهـاره كشعـوذة واستعراض مسرحي (ككل الاشياء الإنسانية في عصرنا) ، تظل هنالك حقيقة لا مفـر منها وهي أن التنويم حقيقة غامضة ، وسر من أسرار الانسان ، ذلك الكنز اللامتناهي .

وصحيح أن القوانين تتولى حالياً مكافحة الدجالين الصغار ، الذين يستخدمون هذه القوة لايذاء الآخرين أو ابتزاز نقودهم ، فالانسانية لم تبلغ بعد مرحلة مكافحة المشعوذين الكبار من المنومين المغناطيسيين ، وأقصد بذلك بعض الحكام الذي لا ينومون مجموعة صغيرة فحسب أو متفرجي تلفزيون أو قناة إذاعية ما ، بل ينومون شعوباً بأكملها ! . . أولئك « الكبار » متى تستيقظ شعوبهم من ليلها الطويل ؟ . .

الشيطان والرّاقي

لا أعرف وصفاً للشيطان في الأدب غير متعاطف معه . شيطان « ميلتون » يثير فينا الاعجاب . شيطان « دانتي » يثير فيّنا الشفقة . شيطان جوته يثير فينا الأسف ، لأن طاقة هائلة كهذه قد كرست نفسها للشر .

يبدو أن الطبيعة البشرية عاجزة عن تصور فكرة « الشر المطلق » ، ربما لأنها غير موجودة !

ـ ألبن جوديه ـ

« كلما دققت على الخشب خوفاً من الإصابة بالعين الشريرة ، وكلما عقدت أصابعك لتتمنى ، وكلما تلوت صلاة ، وكلما قرأت برجك في جريدة ما ، فإنك تعبر عن خلود الايمان بالغيبيات » .

ـ جون أورف ـ

١٨/ ٥/ ٧٣

فلتدخل صرختي إليك . . .

« قبل أن تقرأ هذا الكتاب ،أضيء كل الانوار في بيتك ، وفي دماغك . كتاب مذهل يقف له شعر الرأس رعباً . مزيج مروع من الحقيقة والخيال ، لا يقدر على ابداعه الا مؤلف من وزن « جراهام جرين » وقلائل غيره من الخالدين المعاصرين . كتاب يعيد خلق أجواء كاتب الرعب « ادغار آلن بو » في اطار معاصر . . . رواية (طفل روزماري) تبدو مثل حكاية أطفال بالنسبة لما فيه من عمق واثارة » . بمثل هذه العبارات ، وغيرها استقبل نقاد اميركا (النيويورك تايمز ـ لايف ـ لوس انجلوس ماغازين وغيرها . .) كتاب (طارد الشياطين)* تأليف « وليم بيتر بلاتي »، وخلال عام واحد أعيد طبعه عشر مرات وبيعت منه ملايين النسخ ، وجاء ترتيبه الاول في مبيعات الكتب باميركا واوروبا ، وبوشرت ترجمته الى اللغات الاخرى . . . واذا كان الفيلم الذي تحول اليه هذا الكتاب رديئاً ـ كما يعتقد كثيرون من الذين قرأوا الكتاب وأنا منهم ـ فإن الكتاب جيد حقاً ويستحق الاطلاع حتى من قبل أشخاص مثلي لا يؤمنون بقضايا كهذه . . فهو كتاب محرض للخيال وللتفكير .

وفي الكتاب تجسيد حي لما يدور في اميركا اليوم ـ واوروبا الاستهلاكية ـ من طقوس عبادة الشيطان ، بالإضافة الى حكاية الصراع الأزلي بين الخير والشر ، وحكاية تقمص الشيطان في جسد إنسان ما ، وكيف تصيب الامراض العقلية الاشخاص المسكونين بالعفاريت والابالسة . . . والطقوس الدينية لطرد الروح الشريرة بعد فشل الطب الحديث وأشعة « اكس » أمام بعض الظواهر الخارقة .

يمارسون في الغرب هذه الأيام ـ فيما يأتون به من تقاليع ـ شيئاً اسمه عبادة الشيطان .

انشئت « كنيسة ابليس الاولى » في سان فرنسيسكو ويحميها قانون ولاية كاليفورنيا ، وينتمي اليها عشرة آلاف عابد للشيطان كثيرون منهم من خريجي الجامعات يمارسون طقوساً جنسية (دينية) كلها فسق وانحلال . وفي شيكاغو يوجد « معبد الطريق

* كتاب « طارد الشياطين » أو « الرّاقي » THE EXORCIST تاليف : وليم بيتير بلاتي WILLIAM PETER BLATTY

الوثنية » ، وفي انكلترا ، تنظم شركة « بان اميركان » للطيران دورة سياحية خاصة (كلفتها ٦٢٩ دولار) تسمى « الدورة الروحانية » وجلسة تحضير أرواح . ويقال ان « القداس الاسود » ـ وفي الرواية وصف مفصل للطقوس ـ يعقد بكثرة في باريس وليون .

وفي المانيا يقدر عدد المنتمين للكنائس والعقائد الشيطانية بثلاثة ملايين ، وعدد المتعاطفين معهم بسبعة ملايين (من دراسة للاستاذ محمد الحديدي ـ مجلة « الآداب » العدد ٢ ـ ٢١) . . .

وفي لندن انتشرت موضة تحضير الارواح ، والاهتمام بقوى ما وراء الطبيعة وعبادة القوى الشريرة منها ، الى حد أن عمل « طارد الشياطين » في الكنيسة عاد الى سابق اهميته في العصور الوسطى . وسط هذا المناخ ، مناخ الردة الى عوالم السحر والإيمان بالغيبيات بالاضافة الى جو القرن العشرين ورواد الفضاء في ضاحية « جورج تاون » بواشنطن تدور أحداث رواية « طارد الشياطين » .

بطلة القصة « ريجان » فتاة عمرها ١٢ سنة ، تعيش مع أمها الممثلة الشهيرة « كريستين » المطلقة من زوجها . تقيمان موقتاً في منزل بضاحية واشنطن قرب جامعة « جورجتاون » لان الأم تمثل فيلماً تدور أحداثه هناك .

ومنذ الصفحات الأولى يشدنا المؤلف الى الرواية ، بأحداث صغيرة تخلق جواً غامضاً يهيمن فجأة على الدار . . .

ففي الليل ، تسمع الأم اصواتاً في « العلية » ، ويخيل اليها أنها أصوات فئران ، وتدخل الى غرفة « ريجان » لتطمئن الى ان حركات الفئران لم توقظها ، فتفاجأ بأن جواً من البرد المقيت يغمرها رغم أن « الشوفاج » فيها حار شأنه شأن بقية غرف البيت .

صباح اليوم التالي تطلب كريستين من الخادم « كارل » شراء أفخاخ للفئران ونصبها في البيت .

لكن (الشيء) الذي كان يسبب هذه الأصوات في الليل ، والصقيع ، وأشياء أخرى كثيرة تأتي فيما بعد ، هو فيما يبدو من النوع الذي لا تؤثر فيه «فخاخ» الفئران ، ولا تصطاده وتقبض عليه أية فخاخ أخرى . . . الفأر الوحيد الذي وجدوه في المصيدة كان لعبة للطفلة « ريجان » ! . . . واعتبرت الام الحادثة (مزحة) سمجة ، وكذلك اختفاء احد ثياب « ريجان » ، وبعض قطع الاثاث في غرفتها التي كانت تغير مكانها من تلقاء نفسها ، ورائحة شيء كريه « رائحة شيء يحترق » تشمها ريجان في غرفتها . . . تعلق الأم على ذلك كله بقولها « شخص ما في البيت يتصرف بطريقة غريبة » ، ولكن من ؟ هل هي السكرتيرة

الشابة « شارون » ؟ ام الخادم الغامض « كارل » ؟ ام زوجته الخادمة « ويللي » ؟ ام تراها « ريجان » تمشي في نومها ؟ ولكن سلوك « ريجان » عادي ، إنها تنحت لامها طائراً من الخشب كهدية ، وما تزال تتذكر أن تضع لها مع كل صباح وردة في طبقها . وتقضي أكثر اوقاتها تلعب في قبو الدار ، وتروي لأمها أنها تلعب مع صديق اسمه كابتن « هـودي » (وقد تصورت امها أن ابنتها اخترعت اسم كابتن « هودي » تعبيراً عن فراغ عاطفي تحسه لفراق والدها المطلّق ، فوالدها يدعى « هاوارد » و « هودي » اسم الدلع له) . . .

وليلة عيد ميلاد « ريجان » تبدو الطفلة حزينة لأن والدها لم يتلفن لها مهنئاً ، ثم تهرب من فراشها لتحتمي بأمها وتنام قربها قائلة ان سريرها يهتز وأن هنالك من يهزه بهـا !

ويتغير سلوك « ريجان » . تسوء دراستها . تصير كثيرة الحركة والجلبة وعصبية ، وتطلب كريستين من السكرتيرة « شارون » ان تنقل آلتها الكاتبة الى غرفة لعب « ريجان » كي تلازمها أطول وقت ممكن . وتنصرف ريجان تماماً عن دروسها لتلعب مع الشخص الوهمي (كابتن هودي) بخشبة اليوغا .

وتدعو كريستين عميد الجامعة وبعض القساوسة المدّرسين فيهـا الى العشـاء ، كما تدعو الى العشاء نفسه صديقها مخرج الفيلم (بيرك ديننغز) ، ويكون بين الحضور شاب من رواد الفضاء وصديقة هي « مـاري جو بـيرت » ، وفي السهـرة يدور الحـوار حول الظواهر الغريبة التي تَـحدث في كنيسة الجامعة والتي تدل على وجود « عباد الشيطان » . فمن قاذورات على المذبح ، الى رسائل بذيئة طبعت على الالـة الكاتبـة ، الى (أشياء) قبيحة رمزية ربطت الى جسد تمثال العذراء ، وغير ذلك من التدنيس ، كما يتحدثون عن الطقوس السوداء التي يمارسها عبدة الشيطان . .

وفجأة تقطع الحديث « ريجان » بدخولها الى الغرفة في قميص النوم ، ومـن عينيهـا أطلت نظرة غامضة ، وتقف في منتصف الغرفة وتشير الى رائد الفضاء وتقول : ستموت هناك في الاعلى .

(والغريب أن رائد الفضاء يموت في رحلته بعد ليلة السهرة !) . .

وتذهب كريستين بابنتها الى طبيب يفحصها ثم يسأل امها : منذ متى وابنتك تتفوه بكلمات بذيئة ؟ وتفاجأ كريستين بأن ابنتها الناعمـة بدأت تصـير مخلوقـاً آخـر ، تتفـوه بعبارات سوقية ، وتطل من عينيها نظرة مرعبة ، وتخرج أحياناً لسانها كالأفعى لتخيف السكرتيرة شارون . ترفض الاكل وتفقد كثيراً من وزنها وجمالها البريء . تتركها أمها ذات يوم وحيدة في البيت مع السكرتيرة (يوم اجازة الخادم وزوجتـه) وتمضي لتجلـب نتائـج

الفحوص الطبية التي أجريت عليها ، وكلها يؤكد أن لا خلل جسدياً فيها على الاطلاق ، وانها سالمة تماماً من أي مرض يمكن للتحاليل أو الصور الشعاعية كشفه . وحين تعود الام الى البيت ، تجد الطفلة نائمة في غرفتها ، ونافذتها التي تطل على سلالم شاهقة لشارع خلفي مفتوحة . تسارع الى إغلاق النافذة ، وتبحث عن السكرتيرة في البيت فلا تجد أحداً . تعود السكرتيرة بعد قليل . تؤنبها « كريستين » لانها تركت « ريجان » وحدها فترد « شارون » : ولكني لم اتركها وحدها . لقد مر بيرك (المخرج) ورجوته أن يبقى معها قليلاً ريثما أحضر لها الدواء من الصيدلية .

وبعد عودة الخادم وزوجته من السينما ، يصل نبأ مروع : نبأ مقتل المخرج الذي وجدت جثته فوق السلالم الشاهقة للشارع الخلفي ، الذي تطل عليه نافذة « ريجان » . لقد مات بطريقة وحشية . قتله شخص هائل القوة ، اذ وجد ورأسه ملتوية الى الوراء ، تماماً (مثلما يحدث لضحايا الشياطين في الأساطير القديمة) . ويتوهم الجميع أن سكّيراً ما ضربه ، وأنه سقط على الدرج الشاهق فتمزق هكذا ، ولكن « كريستين » تتذكر بهلع النافذة المفتوحة في غرفة ابنتها ولا تقول شيئاً . تبحث عن كتاب يتحدث عن تلبس الشيطان في بعض البشر وأعراض ذلك ، فتجد أنه اختفى (كانت صديقتها ماري جو قد بعثت اليها بكتاب وطلبت اليها أن تقرأه بعد ليلة السهرة وسلوك ريجان الغريب فيها) .

وتسوء حالة « ريجان » . تأتي أمها بالاطباء الى البيت . تصاب بنوبة عجيبة من الصرع والعواء والأنين . يحاول الطبيب حقنها بمسكن ويفاجأ الجميع بأن ٤٠٠ ميليغرام « ليبريوم » هو الحد الادنى الذي يهدئها كأن وحشاً يقطنها . ينومونها مغناطيسياً ويستجوبونها . تقول لهم إن « وجوداً » يحتلها ، يؤذيها ، يوجعها ، تتوسل إليهم انقاذها منه ومن سطوته . تقول إنه الكابتن هودي (رفيقها الخيالي في اللعب) . ويتحدث الاطباء الى شخصيتها الثانية (الكابتن هودي) واذا بصوتها يتغير ، وملامح وجهها تتبدل فتصير مخيفة ، ويغرق سواد عينيها في حفرتها فلا يبدو منهما إلا البياض ملتمعاً ببريق شيطاني ، وتنبعث من فمها رائحة كريهة ، وتخُرج لسانها من فمها الذي يصير له شكل فم ذئب ، وتسارع حركات لسان أفعى . وتصرخ الأم ، ويذهل الاطباء ويدور بينهم وبين الشخصية التي سكنتها الحوار التالي :

ـ هل انت شخص كانت تعرفه « ريجان » ؟

ـ لا .

ـ هل انت شخص اخترعته ؟

ـ لا .
ـ انـــت حقيقـــي ؟
ـ اجل .
ـ جزء من « ريجان » ؟ شخصية ثانية لها ؟
ـ لا .
ـ تكرهها ؟ تريد قتلها ؟
ـ أجل .
ـ هل هنالك وسيلة لتخليص ريجان منك ؟
ـ اجل .
ـ وكيف ؟

وفجأة قطع الحوار صراخ الطبيب . لقد اطبقت عليه « ريجان » بقبضـة حديدية ، وبأصابعها ها هي تكاد تفتت جمجمته ، ويدور بينها وبين الاطباء صراع دموي ، فقد اكتشف الجميع أن ابنة الـ ١٢ سنة تملك قوة جبارة حين يسكنها (الشيء) .

تنقل ريجان الى المستشفى لإجراء مزيد من الفحوصات الطبية . يشك الاطباء أنها مصابة بالشيزوفرانيا أو الهستيريا . يصورون الموجـات الكهـرطيسية في دماغهـا . جميع نتائج الفحوصات سلبية ، والفتاة « سليمة » جسدياً بالمعنى الطبي للكلمة ! . . وأكثر ما يدهش الاطباء له ، هو أن الشخصية الثانية التي تسكنها تتحدث بلغة مختلفة تماماً عن لغة « ريجان » كما لو كانت شخصاً ثانياً حقاً . .

وينفض الطب يديه منها . ويفشل العلم أمام حالتها :

ماذا تبقى لكريستين ؟ الدين . السحر ، علوم ما وراء الطبيعة .

وتذهب « كريستين » الى الأب « داميان كراس » وترجوه المساعدة (وهو كاهن وأحد اساتذة الجامعة المجاورة) .

الأب داميان طبيب نفسي . (إذن هو يمثل العلم والدين مجتمعـين) . لديه دراية بعلم النفس ، ولديه دراية بحكايا تقمص الشيطان للإنسان منذ قديم الزمان ، وأعراض هذا التقمص . ففي الكتب السماوية ما يشير الى هذا التلبس وفي الانجيل ما يلي :

« ولما خرج الى الأرض استقبله رجل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمان طويل ، وكان لا يلبس ثوباً ولا يقيم في بيت بل في القبور . فلما رأى يسوع ، صرخ وخر له وقال بصوت عظيم : مالي ولك يا يســوع . . . . . . ؟؟ أطلـب منـك ألا تعذبنـي . لأنـه أَمَرَ

الروح النجس أن يخرج من الانسان ، لأنه منذ زمان كثير كان يخطفه . وقد ربط بسلاسل وقيود محروساً ، وكان يقطع الربط ويساق من الشيطان الى البراري . فسأله يسوع قائلاً : ما اسمك ؟ فقال : لجئون ، لان شياطين كثيرة دخلت فيه . وطلب اليه أن لا يأمرهم بالذهاب الى الهاوية . وكان هناك قطيع خنازير كثيرة ترعى في الجبل ، فطلبوا اليه أن يأذن لهم بالدخول فيها فأذن لهم ، فخرجت الشياطين من الانسان ودخلت في الخنازير فاندفع القطيع من على الجرف الى البحيرة واختنق » .

لوقا ٨ : (٢٧ - ٣٤)

والاب « داميان كراس » يعرف ذلك كله ، ويعرف مخاطر الدخول في صراع مباشر مع الشيطان (بالمعنى الرمزي للكلمة لا الحرفي ، أيضاً . وذكاء الرواية يتركز في أن الذين لا يؤمنون بهذه الحكايا مثلي، يستطيعون الاستمتاع بأحداثها، على أنها (صراع بين الخير والشر في ذات الانسان) ، ويعرف الاب داميان مخاطر محاولة لعب دور « الراقي » - (أي طارد الشيطان) ، لطرد الشيطان من ضحيته ، إذ كثيراً ما يخرج الشيطان من الضحية ليتقمص ضحية جديدة هي غالباً (الراقي) ، حيث يدفع به الى الانتحار ، كما اندفع (قطيع الخنازير) في الإنجيل الى البحيرة ليغرق . . .

وهو أيضاً يعرف أن الانسان طالما خلط بين الامراض التي تسببها الجراثيم (أو اضطرابات عصبية). وبين الأعراض التي يسببها تلبس الشيطان في شخص ما . . . فالجماعات البدائية تعزو الامراض والاضطرابات كلها الى أرواح شريرة تحل في الجسد المعافى . وهو أيضاً يعرف (الكتاب الروماني) الذي يتحدث عن طقوس طرد الروح الشريرة . . . ولكن اقامة تلك الطقوس أمر غير مسموح به إلا بإذن من المطران . . . والمطران لا يسمح باقامة تلك الطقوس ، إلا إذا ثبت الدليل القاطع أن الشيطان يحتل الطفلة (أو الشخص) وأنه ليس مجرد مريض عادي بالهستيريا أو ازدواج الشخصية . وتتوسل كريستين الى الاب « كراس » أن يعالج ابنتها ، وتعترف له (ككاهن) بأن ابنتها هي التي قتلت صديقها المخرج في إحدى نوبات تلبس الشيطان لها ، وبأن المحقق يحوم حول بيتها وشكوكه تحوم حول الجميع ما عدا الطفلة المريضة ، ثم يحدث ما يزيد شكوك المحقق ، اذ يتصادف أن يكون في زيارة كريستين حين تصاب « ريجان » باحدى نوباتها ، ويذهل حين يراها مقيدة الى الفراش بأحزمة جلدية وسلاسل خاصة، تشد يديها ورجليها وتمنعها من الحركة ، كما يلاحظ جيداً نافذة غرفتها المطلة على سلم الموت .

يرافق الأب الجزويتي « كراس » الأم الى بيتها . ما يكاد يطأ عتبة الدار حتى يثور

الشيطان ، كأنه حدس اقترابه وحضوره(الخير) المنافي لبقائه (الشر) ، وتنطلق شتائمه من فم « ريجان » . ما يكاد يدخل كراس الى الغرفة حتى تفوح منها رائحة نتنة ويغمرها برد هائل وتقول له ريجان : كنت انتظرك يا كراس ! (يفسر كراس ذلك علمياً بأن المصابين بامراض هستيرية تصير لديهم قوى خارقة اثناء نوباتهم منها القدرة على قراءة الافكار . و « ريجان » عرفت اسمه من قراءتها لافكاره) . ولكن كراس يميل الى الاعتقاد بأن الشيطان يتقمصها حقاً ، إذ ها هي قادرة على رؤية الغيب أيضاً ، إنها تحدثه عن موت أمه ـ وأمه ماتت فعلاً منذ اسابيع ـ بل إن (الشيطان) يستحضر له روح امه ، انه يحس بلمساتها على رقبته ويسمع صوتها الذي يعرف جيداً ولهجتها وعباراتها تخرج من حنجرة ريجان . . .

ويتردد « كراس » على ريجان . الشيطان (شخصيتها الثانية) يعبث به ويعذبه . يحدثه باللاتينية والالمانية والروسية . يستحضر له تارة روح أمه التي تؤنبه لأنه أسلمها للفقر حين اختار الرهبنة بدلاً من أن يصير طبيباً ثرياً ينفق عليها . وتارة تتلبس « ريجان » روح المخرج الذي قتلته ، فيروي المخرج بلهجته وألفاظه كيفية مصرعه على يدي « ريجان » ، وكيف خنقته ولوت برقبته ورمت به من النافذة بينما هي تتهمه بالتفريق بين ابويها والتسبب بطلاق امها . وتارة تعذب الخادم الالماني كارل (الذي مهمته تقييدها الى فراشها) فتقول له انها تعرف سره وأنه ليلة الجريمة لم يكن حقاً في السينما وانما كان يحمل المخدرات الى ابنته .

ويكشف التحقيق أن ابنة كارل (إلفيرا) ليست ميتة كما كانت تظن امها (ويللي) ، وانما هي مدمنة مخدرات ، وانه يوم الجريمة لم يكن في السينما كما ادعى ، وانما كان يحمل لها المخدرات وأنه من اصحاب السوابق .

وفي اللحظات القليلة التي كان الشيطان يترك ريجان فيها ، كانوا يغذونها بالمصل وكانت تذبل وتموت ببطء . . .

ريجان توقظ في الاب كراس احساسه بالذنب نحو أمه . تعذبه . الشيطان فيها يعذب كل واحد بنقطة ضعفه . ريجان تعذب امها مثلاً اذ تسخر منها بصوت (المخرج) وتؤنبها لانها تفضل مجدها وشهرتها على واجبها كأم . . . وتلومها على الطلاق . . وهي في نوباتها تشتم بلغة بذيئة ، وتعبث بصليب لا احد يدري من أين حصلت عليه وهي السجينة (ربما وضعه احد في سريرها بحسن نية ، لكن احداً لا يعترف) . والكتاب باستمرار وبذكاء يترك للقارىء غير المؤمن بحكايا كهذه ، ان يجد تبريرات علمية ومنطقية لكل ما يحدث !

وهنا روعة الكتاب كعمل فني .

وذات ليلة تبدأ ظواهر أخرى عجيبة بالتجلي . فإلى جانب البرد الخرافي في غرفتها ، والاشياء التي تتحرك وحدها وقطع الاثاث ، والرائحة النتنة التي تفوح كلما تقمصها الشيطان ، يبدأ سريرها بالارتجاج وحده كأن يداً غامضة ترفع الطفلة وسريرها وتهوي بها الى الارض . . . ثم تظهر على جسدها كتابة بالدم (بخطها) ويقرأها الأب كراس ! ساعدني . . ساعدني . . كان الجلد وحده يتورم ، والدم وحده يتدفق والكتابة بالدم وحدها تتشكل على مرأى من الجميع دون أن يمسها أحد . (لدى الطب تفسير لحالات كهذه) .

ثم انه سجل حواراً بينه وبينها (بينما تتلبسها روح ما) وكانت الروح تنطق بلغة غير مفهومة ، وقد حمل هذه اللغة الى المختبر ، واذا باخصائي اللغات يقول له ان هذه اللغة هي ببساطة الانكليزية ، كل ما في الأمر أنها مقلوبة أي لو انه ادار الشريط بصورة معاكسة لاتضح الكلام . . ولكن كيف يستطيع أي انسان أن ينطق بحوار كامل بصورة عكسية ؟ . . . ويتقدم كراس بطلب رسمي لممارسة طقوس طرد الارواح منها ، ويقدم الأدلة التي توفرت له الى المطران . وبعد أن يطلع المطران على الحكاية ، يسمح بذلك ، على أن يجريه الأب « ميرين » .

فالاب « ميرين » قس سبق له أن قام بهذا الدور من قبل ، ولديه خبرة بذلك . . . ثم إنه نذر حياته لمكافحة الشيطان أينما كان . ويستدعيه المطران من بلد بعيد حيث كان مشغولاً بالحفريات هناك ودراسة طقوس طرد الشيطان لدى أقوام قديمة عريقة . إذ إن تلبس الشيطان للانسان وطرده ليس فكرة مسيحية فقط ، بل فكرة قديمة يرجع الإيمان بها الى أيام حضارة الآشوريين والآرام والكلدان ، كما أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون بأن احتلال الروح الشريرة للانسان يسبب المرض والاضطرابات . وكان قدماء المصريين يطردون الشيطان من جسد الطفل بهذه التعزيمة : « اخرج من هنا ، أنت القادم في الظلام ، يا من أنفه مثني للاسفل ووجهه معكوس للخلف ، هل جئت لتقبل طفلي ! لن اسمح لك . . . » . .

ويأتي ميرين القسيس الخبير ، وما يكاد يصل الى البيت حتى يدوي صراخ ريجان بصوت الشيطان الذي يحتلها : ميرين . . كنت اعرف اننا سنلتقي ثانية ! . . .

ويقرر ميرين البدء فوراً بطقوس طرد الشيطان . ويسأله كراس : ألا تريد أن أروي لك تفاصيل حالتها والشخصيات التي تتلبسها ؟ يرد ميرين : لا داعي لذلك . إن كياناً

واحداً يسيطر عليها هو الشيطان ، وكل الشخصيات الاخرى ليست إلا ظواهر مختلفة وصوراً ينتحلها . . إنه خبيث ، محنك وقوي . . .

ويسأله كراس : ولكن ما الغاية من تقمصه لجسد الطفلة ؟

يقول ميرين : هدف الشيطان ليس الشخص الذي يتقمصه ، وانما هدفه المحيطين بالشخص . نحن . الهدف أن يجعل اليأس يدب الى نفوسنا ، والشك بانسانيتنا يتسرب الينا . . فنفقد القدرة على الحب والايمان بالقيم . .

ويذهب كراس لجلب العدة . . . الماء المقدس . . . وثياب الكهنوت . . وثياباً تحتها تصلح(للقطب) ، لأن حضور الشيطان يرافقه دوماً برد قارس ونتانة شديدة . وأهم شرط في طقوس طرد الشيطان هو الا يتورط القس في حوار معه ، لأن الشيطان خبيث وذكي وهدفه زعزعة ايمان (طارد الشياطين) وتشكيكه ودفعه الى الجنون أو الانتحار .

وتبدأ الطقوس ، وهي أجمل ما في الكتاب . ويبدأ الشيطان في استعراض قوته ، يطير الفراش بالفتاة في فضاء الغرفة كما لو كان عائماً على ماء ، وينبض هواء الغرفة بكثافة دامية ، ويسمع صوت نبضه يكاد يخترق الآذان حتى يطغى على صوت الأب وهو يرتل (فلتخترقك صرختي) . . فليدخل صراخي اليك . . . وتكاد الطفلة تموت . . . ويخرج الكل للراحة ، ويموت ميرين بالسكتة القلبية ! . . . ويجن الأب كراس غضباً ، وينسى تعاليم الكهنوتية بعدم الدخول في حوار مع الشيطان ، فيهرع الى ريجان ويشتم الشيطان بكلام بذيء ويتحداه . . . ثم لا نعرف ما يدور بينهما . كل ما نعرفه هو أن الأب كراس يسقط من النافذة نفسها التي قتل منها المخرج ، ويموت بالطريقة نفسها ، وتشفى « ريجان » ! . . .

يترك المؤلف للقارىء فهم الرواية وفقاً لمعتقداته . فاذا كان يؤمن بما وراء الطبيعة والشيطان والارواح والتلبس ، فتفسير موت الكاهن هو مثل تفسير موت الخنازير في الإنجيل . لقد خرج الشيطان من الفتاة ، ودخل في الكاهن ، ومات الكاهن وقد افتداها وها هو على الارض محطماً مصلوباً على سلم الموت .

اما اذا كان القارىء مثلي ، فان تفسير كل ظواهر الرواية ممكن علمياً ، فتصرف الفتاة الهستيري هو من اعراض مرض نفساني أصابها ، وتعرفت على أعراضه من الكتاب الذي احضرته ماري جو لامها وهو امر معروف في علم النفس ، وها هي (تمثل) الاعراض كلها دون أن تعي ما تفعل . وكل قواها الخارقة يمكن أن تفسر ، حتى طيران السرير بها هو نوع من التنويم المغناطيسي الذي مارسته هي على اطبائها ، (فلاولئك المرضى قوى خارقة

هي من بعض أعراض المرض) اما حديثها بالالمانية فقد تكون التقطت بعضه من الخادم الالماني وزوجته (فقد كانا يتحاوران احياناً بالالمانية كما اعترفا) ، والروسية التقطتها من السكرتيرة شارون (التي اعترفت أنها كانت تدرس الروسية) واللاتينية من قراءتها لأفكار الاب كراس . . . أما سبب المرض فهو طلاق ابويها واهمال امها لها وانشغالها عنها ، وحتى الكتابة على جلدها يمكن تفسيرها علمياً ولها سوابق يعرفها الاطباء جيداً . . .

ويكتشف المحقق ايضا أن الرسائل البذيئة مطبوعة على آلة كاتبة شبيهة بآلة السكرتيرة (وكان بوسع « ريجان » استعمالها حين نقلتها السكرتيرة الى غرفة لعبها لمراقبتها) . وأن المنحوتات البذيئة المربوطة الى جسد العذراء هي من نفس خشب الطائر الذي كانت قد صنعته لامها والدهانات التي تلطخ المعبد من دهان « ريجان » ! . .

أياً كانت معتقدات القارىء لا بد لهذا الكتاب من أن يصعقه . . . فهو في أسوأ حالاته ـ بالنسبة للقارىء غير المؤمن ـ كتاب بوليسي مشوق مثير الاحداث مستمر التوتر ، مليء بالمعلومات عن اميركا عبادة الشيطان وطقوس القداس الاسود ، والعلاقة الوثيقة بين المجتمعات الاستهلاكية المعاصرة والشر (الشيطان) .

ولكن هل يوجد حقاً انسان لا تهزه اسرار ما وراء الطبيعة ؟ . . في احدى مجلات السحر التي تصدر في لندن وما اكثرها ، قرأت هذه العبارة لجون اورف : كلما دققت على الخشب خوفاً من إصابة العين الشريرة ، وكلما عقدت اصابعك لتتمنى ، وكلما تلوت صلاة ، وكلما قرأت برجك في جريدة ما ، فانك تعبر عن خلود الايمان بالغيبيات .

جيراننا في الكواكب والمجرات الأخرى

لقد هبطنا منذ أعوام على سطح كوكب القمر، فهل هنالك ما ينفي إمكانية هبوط سكان كوكب آخر على سطح كوكبنا ؟ أم ان ذلك قد تم بالفعل منذ عشرات آلاف السنين ؟ ألا يزخر كوكبنا بآلاف من الأدلة المادية على ذلك ؟ مثلاً ، هل كانت بعلبك مطاراً فضائياً شيد خصيصاً لاستقبال رواد فضاء من كوكب آخر، ثم تحول الى معبد بعد رحيلهم ؟ وهل شيدت الاهرام تحت اشراف الرواد لحفظ رموز الفلك والمعارف العلمية ؟ وهل المومياءات في حالة نوم لا موت ، ورواد الفضاء القادمين من كوكب آخر، وحدهم يعرفون كيفية ايقاظهم لينقلوا الينا اسرار عصرهم الفرعوني الغابر ؟ وهل دمر سدوم وعمورية انفجار ذري احدثه رواد الفضاء ؟ . . وهل كانت حضارة سومر في العراق حصيلة زواج موفق بين رواد الفضاء واهلها ؟ . . وهل ؟ وهل ؟ . . اسئلة كثيرة عجيبة تطرحها مجموعة من الكتب مقدّمة أجوبة أكثر غرابة . . .

* * *

كثيرون ما زالوا نائمين وبحاجة الى من يوقظهم » . .

ـ انطوان دي سانت اكزوبري ـ

« كيف هويت من السماء ، أيها اللامع ابن الفجر »

ـ كتاب أشعيا ـ

« قال القادم من كوكب آخر : أفضل التخاطر على الحوار الصوتي . فالحوار الصوتي يفسح المجال الأكاذيب والتوريات اللغوية . التخاطر لا يترك مجالاً للزيف والمخادعة . تعلموا يا أهل الارض » ! .

ـ دين كونت ـ

١٩٧٥/٣/٢٤

غزوا كوكبنا كما غزونا نحن القمر

اقتربت عربة الفضاء القادمة من كوكب بعيد مجهول . إنها تستعد للهبوط على كوكب الارض واكتشافه ـ كما فعلنا نحن حين هبطنا على كوكب القمر منذ أعوام ، مع فارق ان كوكبنا لم يكن مقفراً كالقمر .

تراكض الناس يتأملون بذهول تلك المركبة التي لم يروا لها مثيلاً ، وهي تلتمع في أشعة الشمس . . . وتنفث نارا كالبرق . . وتزعق كالرعد . . . وركعوا خاشعين للمعجزة القادمة من السماء . فقد حدث ذلك منذ آلاف الاعوام ، وكان سكان الارض يومها بدائيين يعيشون عصرهم الحجري ، وحتى جهاز الراديو كان يمكن أن يعتبر في تلك الايام معجزة سماوية خارقة ، فكيف بعربة فضائية تطير قادمة من النجوم حيث يقطن أرباب ذلك العصر الوثني الغابر ؟ . .

وتهبط المركبة متأججة بالنار ، وتعلو حولها سحب الغبار . يا للمفاجأة ! المركبة ليست فارغة ، بل إن الأرباب قد جاؤوا بأنفسهم . . . يهبط رواد الفضاء القادمون من الكوكب المجهول البعيد وعلى رؤوسهم خوذاتهم . . يزداد البدائيون خشوعاً ، فالارباب يخفون وجوههم .

---

(١) كتاب «ذهبُ الأرباب» THE GOLD OF THE GODS
تأليف إريك فون دانيكين ERICH VON DÄNIKEN

(٢) كتاب « الأرباب ورجال الفضاء في الغرب القديم» GODS AND SPACEMEN IN THE ANCIENT WEST
تأليف ريموند دريك W. RAYMOND DRAKE

(٣) كتاب « عربات الأرباب» CHARIOTS OF THE GODS
تأليف إريك فون دانيكين ERICH VON DÄNIKEN

(٤) كتاب « معجزات الارباب» «MIRACLES OF THE GODS»

(٥) كتاب « العودة الى النجوم » RETURN TO STARS
تأليف إريك فون دانيكين

(٦) كتاب « عوالم مخبأة» HIDDEN WORLDS
تأليف« فان درفير »و«مويرمان» VAN DER VEER AND MOERMAN

ويبدأ رواد الفضاء عملهم . . وقد يُحدثون انفجاراً صغيراً لجمع قطع من أحجار كوكبنا ، تمهيداً لنقلها الى كوكبهم ودراستها في المختبر ، كما فعل روادنا في القمر . ويُعتبر ذلك الانفجار بمثابة فاتحة للمعجزات في عصر ما زال يرى في اكتشاف النارمكسباً مذهلاً يستحق ان « يعبد » . . . ويخرج زوار كوكبنا من رواد الفضاء متجولين في عرباتهم الصغيرة ـ أيضا كما فعل روادنا على سطح القمر ـ ويزداد خشوع الناس . . . وتأتي بقية معداتهم الحديثة كاللاسلكي والتلفزيون وأدوات التصوير والاسلحة الفتاكة والمتفجرات دليلاً لا يناقش على أنهم من الأرباب !

وترحل المركبة مخلفة للبدائيين ذكرى زيارة الأرباب للارض . . . وتشاد المعابد والاهرامات في موضع هبوطهم ، وتروى حكاياهم للاجيال المقبلة ، وتخلد هيئاتهم في منحوتات الكهوف ، وتلملم بقاياهم من بطاريات فارغة وأحزمة فضائية من الألمنيوم وخرائط ومعارف لتصير بعضاً من طقوس القبيلة . . .

ولكن المركبة ترحل لتعود . . . فقد نقل روادها نبأ اكتشافاتهم المذهلة الى كوكبهم ، وقرر علماء ذلك الكوكب دراسة الحياة البدائية في الارض ، بل وجعلها مختبراً مذهلاً لكشف أسرار الحياة والكون . وتتكرر زيارة (الأرباب) ، لكنهم هذه المرة لا يقفون على الحياد ، بل يقيمون زمناً ما على كوكبنا ، ناقلين اليه بعضاً من معارفهم المتطورة في الفلك والعلم والتشريع ، مخلفين في تاريخ تطوره آثاراً لا تمحى . . . وهم ينقلونها عبر زعيم القبيلة ذي « الحق الالهي » في مخاطبة الأرباب (ربما بجهاز راديو سري يتلقى منه أوامرهم) ، وربما بإخصابهم لبعض بنات آدم في طقوس سرية .

هؤلاء الرواد لا تزال الشواهد عليهم تملأ الكرة الارضية وتثبت أن ذلك حدث حقا في الماضي ، منذ ٤٠ ألف سنة ! . .

ولكن ، هل حدث ذلك حقا ؟ ! .

اسطورة جذابة ام نظرية علمية ؟؟

موجة من الكتب غزت قراء العالم الغربي واميركا تؤكد ان ذلك حدث حقاً . . .

وهي لا تكتفي بعرض جذاب للنظرية الخيالية ، بل تقدم الأدلة المادية ، والجدل المنطقي على ذلك حتى تكاد ترقى الى مستوى الكتب العلمية .

للوهلة الاولى تبدو النظرية غريبة ، أقرب الى الأسطورة الساحرة التي تمتع رجل العصر ، وتطري حياته الجافة . . . ولكن قراءة الأدلة التي تأتي بها هذه الكتب تدفع بالانسان الى التفكير مطولاً . . . سواء أقنعته الأدلة أو لا ، فإن قراءة هذه الكتب تظل

مثيرة ومحرضة للخيال ، وهي إن لم تمنحه يقيناً فانها على الاقل ستخلخل يقينه القديم المتوارث ، وتضطره الى اعادة النظر في أمور كثيرة ، واضرام النار في محركات تفكيره الصدئة المتكلة على الآراء السائدة الكثيرة الثغرات في ـ أمور أخرى وحقول أخرى . .

من هذه السلسلة اخترت لكم الكتب التالية : « الأرباب ورجال الفضاء في الغرب القديم » تأليف ريموند دريك الذي قد يكون الأب الاول لهذه النظريات ، « عربات الأرباب » تأليف اريك فون دانيكان ، و « ذهب الأرباب » للمؤلف نفسه .

ويذكر ان جميع هذه الكتب تعتبر الأكثر رواجاً ، وبيع منها ملايين النسخ كما تم تحويلها الى مسلسلات تلفزيونية أثارت اهتماماً فائقاً لدى بعض الناس .

مخاطر التفكير السكوني

قبل حوالي ٤ قرون ، كاد غاليليو غاليلي يواجه عقوبة الموت حرقاً ، لمجرد انه تجرأ وقال ان الارض كروية وتدور حول الشمس وليست محور الكون ، وكان في كلامه هذا ما يناقض وجهة نظر الكنيسة والآراء السائدة . . . ولو أن العلماء استسلموا للمعرفة المتوارثة ، دون أن يأتوا بجديد ، لما تطورت الانسانية ، ولما وصل الانسان الى سطح القمر . . . فقد كانت هنالك نظريات سائدة تقول مثلا : « كل ما هو أثقل من الهواء لا يستطيع الطيران » أو « يموت الانسان اذا سافر بأسرع من ٢١ ميلا في الساعة » أو « الانسان لا يستطيع مغادرة كوكبه » أو « لا يمكن ان تكون الارض كروية والا لسقط الناس الذين يعيشون في نصفها الاسفل » ! وغيرها من النظريات والمسلمات في بعض العصور التي أثبت العلم بطلانها ! . .

وهكذا فالمؤلف يحاول أن يذكرنا بأن منجزات الحضارة اليوم كانت تبدو مستحيلة بالامس . . . مستحيلة بقدر ما قد تبدو نظريته الآن ، تلك النظرية التي قد يتأكد العلم يوماً من صحتها بالدليل القاطع . إن سماعنا بنظرية ما للمرة الاولى ليس مبرراً كافياً لنفيها ، ومن واجبنا الانصات اليها ، قبل اتخاذ موقف سلبي أو إيجابي . . . فلنستمع إلى إريك فون دانيكان يحدثنا عن نظريته ، ولنتذكر أن الكاتب « جول فرن » كتب في إحدى قصصه العلمية الخرافية عن رحلة حول الارض ، يقوم بها رجلان في ثمانين يوماً ، واعتبر كلامه يومئذ نوعاً من القصص الخرافية ، أما اليوم فان رواد الفضاء يدورون حول الارض في ٨٦ دقيقة لا ٨٦ يوما !!

جيراننا في كواكب المجرة

في ليلة صفت سماؤها تستطيع العين المجردة ان تحصي حوالي ٤٥٠٠ جرم سماوي ،

ويستطيع التلسكوب الصغير أن يميز مليوني نجمة . أما التلسكوب الحديث فيستطيع أن يلتقط اشعاع آلاف ملايين النجوم والكواكب في مجرتنا . لكن مجرتنا ليست سوى واحدة من ملايين المجرات الأخرى المنتشرة في الكون الشاسع على بعد ملايين من السنين الضوئية (السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء خلال عام ـ مع العلم أن سرعة الضوء هي ١٨٦ ألف ميل في الثانية !) . واذا طبقنا حساب الاحتمالات على بلايين (ملايين ملايين) الأجرام هذه ، وافترضنا أن واحداً من مليون منها يحيطه جو مناسب لتكوين صورة من الحياة مشابه لصورتها في أرضنا ، فهذا معناه احتمال وجود الحياة في ١٠٠ مليون كوكب منها ! وبعد سلسلة من حسابات الاحتمال نستطيع أن نقول من دون مبالغة أن في مجرتنا وحدها (درب التبانة) حوالي ١٨ ألف كوكب مسكون بالحياة . ويستشهد المؤلف هنا بقول للبروفسور ويللي (زميل فون بروان عالم الصواريخ المشهور) ،وبآخر للعالم الدكتور ستانلي ، وكلاهما يرى أن الحياة المتحضرة العاقلة ، وربما الأكثر رقياً من حضاراتنا ، يمكن أن تكون موجودة في ١٠٠ ألف كوكب من مجرتنا على الاقل . وفي كتاب « لوالتر سليفان » اسمه « لسنا وحدنا » ـ يقصد في الكون ـ نجد شرحاً علمياً وافياً لهذه النظريات والآراء ، مع الادلة . . .

وهكذا فالحياة في نظره موجودة في آلاف الكواكب ، وكما نجحنا نحن في الوصول إلى القمر ، فقد يكون (بعضهم) نجح في الوصول الى كوكبنا ذات يوم . . . ولكن ما الدليل على أن هذه الفرضية الممكنة الوقوع قد وقعت حقاً ؟ آلاف الادلة من مختلف أنحاء الارض تأتي بها هذه النظرية ، وبينها الاهرامات والمومياءات وبعلبك وسدوم وعمورية التي دمرها (انفجار ذري) وغيرها من الأدلة في شرقنا الاوسط .

خرائط الريس

في متحف قصر « توبكابي » في اسطمبول ، وجدت خرائط أثرية تخص قائد البحرية « بيري ريس » وتعود بتاريخها الى آلاف السنين . ودرست هذه الخرائط سنة ١٩٥٧ ـ سنة الجغرافيا العالمية ـ وذهل العلماء لأنهم وجدوا أنفسهم أمام خريطة للكرة الارضية بالغة الدقة ومرسومة من الفضاء . أي أن راسمها لا بد أنه كان في مركبة فضائية يرقب الأرض فوق نقطة عند الاسكندرية حيث افريقيا واضحة وأميركا متطاولة . . ولدى مقارنة هذه الصورة ، بتلك التي التقطتها عربات الفضاء الحديثة تبين أنها متطابقة تماما . إذاً هذه الخرائط الأثرية هي صورة للأرض ، التقطت من ارتفاع شاهق منذ آلاف السنين . . . . كيف وما تفسير حدوث ذلك قبل اختراع حتى الدولاب ؟ ! .

مطار فضائي حجري !

في جبال الآندس تقع مدينة ناثكا ، وفي مدينة ناثكا يقع سر غامض ! هنالك أرض شاسعة معبدة كما لو كانت مطاراً . ويزيد في توكيد ذلك تلك الطرق الهائلة المعبدة أيضاً ، والتي لا تقود الى أي مكان ، ولا يمكن أن تكون غير مدارج لهبوط مركبات الفضاء والصواريخ الطائرة ، كأنما تقول : « اهبطوا هنا . . كل شيء قد أعد وفقاً لأوامركم » !

لماذا بنوها ؟ ولمن ؟ ووفقا لإرشادات من ؟ ولماذا يبني سكان مدينة عشرات الطرق ويكابدون عناء رصفها إذا كانت لا تؤدي الى مكان ، وتنقطع هكذا فجأة في وسط الفراغ الشاسع حولها ؟ .

لمن علامات الجبل

في انحاء كثيرة من البيرو منحوتات هائلة في الجبال ، لا معنى لها إلا أن تكون علامات لإرشاد المركبات القادمة من الفضاء ، وبعضها يعادل طوله ٨٢٠ قدماً ، ويُرى عن بعد ١٢ ميلاً ! إلامَ ترشدُ هذه الإشارات ؟ ولمن ؟

الروزنامة الفضائية

في أوحال « تياهواناكو » المتحجرة ، وجدت روزنامة فضائية ترصد بدقة حركات القمر وتأخذ بعين الاعتبار أدق هزاته ودوراته . . . كيف حدث ذلك في العصور الغابرة إذا لم تكن هذه المعارف قد انتقلت عن طريق كائنات أخرى اكثر رقياً !؟ . ثم ان المدينة بأكملها تبدو مثل مطار فضائي شيد خصيصا لذلك منذ أقدم العصور . . .

تمثال المعبد القديم

في المنطقة نفسها ، تم اكتشاف معبد قديم ، يحوي تمثالاً منحوتاً في حجر رملي واحد ، وزنه حوالي ٢٠ طناً ، وعليه رموز ترصد بدقة أحوال الفضاء وخريطة السماء منذ ٢٧ ألف سنة ! وقد أثبت العلم ذلك ، حين اكتشف العلماء ، أن مدار الارض كان قد جذب اليه قمراً ، مما جعل حركات الارض تتباطأ . . . وفي النهاية اضمحل ذلك القمر الدخيل وتلاشى ، وحل القمر المعروف مكانه . النظرية التي اطلقها البروفسور « هوربيجر » في كتابه « نظرية عن قمر » (١٩٢٧) وحاول إقامة الدليل العلمي عليها تتطابق حرفياً مع ما هو مسجل على التمثال إياه منذ ٢٧ الف سنة . كيف ؟ وما التفسير سوى أن الحضارة الالكترونية لرواد الفضاء القادمين من كوكب آخر ، قد رصدت تحركات ذلك النجم بأدوات علمية متقدمة ، بل وربما سجلت التصورات المستقبلية لمصيره ؟

حقائـق أم أساطيـر ؟

في جنوبي أميركا مدينة غامضة (تياهواناكو) ، فيها دلالات كثيرة على هبوط رواد الفضاء وإقامتهم فيها . والى جانب هذه الادلة المادية ، (تمـاثيل تشبـه أشـكال رجـال الفضاء ، بخوذاتهم وأزيائهـم المعدنية ، وأحزمتهم البلاتينية ، وعلى قاعدة التمثال رموز فلكية متقدمة جداً) وهنالك قرائن أخرى على صعيد الاساطير الشعبية ، التي تروي ان المدينة نشأت حين هبطت فيها مركبة الأرباب النارية ، حاملة الربة ـ الأم ذات الاصابع الاربع في كل يد ، والتي انجبت عشرات الاولاد بزواجها من أجمل وأفتى رجال القبيلة ، ثم عادت الى السماء ، الى مقرها بين النجوم ، طائرة في مركبتها النارية العظيمـة ذات الضجيج الهائل !

المؤلف يرى في هذه الاسطورة ، وفي عشرات غيرها تتحدث عن زيجات طالما تمت بين هؤلاء الرواد وأجمل فتيات الارض ، محاولة من قبل علماء الكوكب الزائـر ورواده لتحسين نسل كوكبنا وتطعيمه . وقـد يكون الجنس البشري الـذكي « هومـو سابيانـز » HOMO SAPIENS هو حصيلـة هذا التـطعيم ، وبـداية نشـوء حضـارة راقية على ارضنا . . ونحن أحفاد سكان الـكواكب الأخـرى التـي نراهـا تضيء في الليل (أو لا نراها !) .

السومريون حضارة فضائية

يرى المؤلف ، ان مكتسبات الحضارة السومرية أمر لا يمكن تفسيره إلا اذا قلنا انها حصيلة زواج موفق بين رواد الفضاء وأهل سومر ! (واخالفه الرأي ولا افهم لماذا يكون ضروريا أن نفسر الرقي المذهل لابناء هذه المنطقة على انه نتيجة « لمساعدات خارجية » قادمة من قمر ما خارجي !) .

والمؤلف إريك فون دانيكان تدهشه معرفة السومريين المذهلة بالفلك ، الى حد قياس دوران القمر بدقة ، لا تختلف عن أحدث القياسات المعاصرة إلا بخطأ ربع الثـانية في العام ! وفي نينوى وجدت حسابات سومرية تتألف من ١٥ رقماً ، في حين ان الاغريق في أعظم عصورهم اعتبروا العدد المكون من ستة أرقام (مئات الالوف) هو اللانهاية ! وفي الأساطير السومرية يجد المؤلف أدلة إضافية ، منها أن عشرة ملوك من الارباب حكمـوا سومر لمدة ٢٤ الف و ٥٠٠ عام . وهو يجد لهذه الاسطورة تفسيراً علمياً ، فيفترض أن ملوكهم كانوا من رواد الفضاء وانهـم كانـوا يعـودون لزيارة كوكبهـم الأصلي في رحلـة

تستغرق ٥٠٠ سنة من زمننا الأرضي ، لكنهم لا يهرمون خلالها أكثر من ٤٠ عاما بسبب رحيلهم بسرعة تكاد تعادل سرعة الضوء ! . . وهكذا كان الرائد الملك يعود بعد ٥٠٠ سنة من زمننا الأرضي ولا يهرم خلالها أكثر من ٤٠ سنة ! ويسوق المؤلف مزيداً من الأدلة : رموز « آلهة » السومريين لها علاقة وثيقة بالنجوم : لكل « إلّه » نجم . ثم انهم كانوا يعرفون ان لكل شمس كواكب تدور حولها ، وذلك موجود في ألواحهم المخصصة لصور « آلهتهم » . كيف عرفوا أسرار النظام الشمسي منذ ذلك العصر الذي لم يكن فيه حتى تلسكوب بدائي إن لم تكن فرضيته هذه صحيحة ؟ هكذا يناقش ويطلق افكارنا الحائرة .

معدات العصر الحجري

وجدت بقايا بطاريات وأدوات كهربائية في بلاد ما بين النهرين تعود بتاريخها الى أقدم العصور . كيف ؟

وفي لبنان وجدت ذرات صخرية يدخل في تكوينها الالمنيوم المشع ، الذي يتطلب تكوينه أفراناً خاصة شديدة التعقيد . كيف استطاع الفينيقيون ذلك ؟

وفي حلوان بمصر وجدت بقايا نسيج شبه معدني للثياب الخاصة برحلات الفضاء ، ويتطلب صنعها تفاعلات خاصة . كيف ولمن ؟

وفي جبال قوهستان، وجد في كهف حجري صورة فلكية لنجوم مجرتنا في غاية الدقة وتمثلهافي مواضعها قبل ١٠ آلاف سنة . من رسمها ؟

أكثر رسوم العصر الحجري ، في مختلف مناطق الارض - التي تمثل الارباب - تصورهم في أزياء شبيهة بأزياء رواد الفضاء ، فلماذا ؟ لدى الهنود الحمر عيد خاص بذكرى هبوط الأرباب على الارض ، يرتدون خلاله أزياء تشبه تماماً أزياء رواد الفضاء لماذا ؟ . .

في دلهي يوجد عمود أثري مصنوع من حديد خاص ، لا يمكن تدميره لا بالكبريت ولا بالفسفور ولا بعوامل الطقس . فكيف توصلوا الى صنعه دون وجود الافران ذات الضغط العالي ؟

وكيف صنع الصينيون الألمنيوم في غابر العصور ، ولماذا صبوه في أحزمة كأحزمة رواد الفضاء ؟

ويورد المؤلف - وغيره في كتبهم - آلاف الاسئلة من أنحاء الارض كلها ، والتي لم توجد حتى اليوم إجابة شافية عليها ، ويرون في نظرية قدوم رواد فضاء من كواكب اخرى الجواب الوحيد البسيط والشافي . . .

الاهـرامـات

يرى المؤلف انها من أهم الأدلة على زيارة رواد الفضاء للارض . فحتى اليوم ، نحن لا نعرف الاسرار الحقيقية لكيفية بنائها . والمؤلف يستبعد ان تكون مجرد قبور لحاكم فرعوني صاحب نزوات كبيرة (نزوة كبيرة اسمها هرم خوفو مثلا وتتألف من مليونين و ٦٠٠ الف حجر ، ووزنها ٦ ملايين و ٥٠٠ الف طن)!ويعتقد أن الاهرامات قد شيدت تحت إشراف رواد الفضاء القادمين من كوكب آخر ، وحساباتهم ، وانها تتضمن كل معارفهم العلمية والفلكية التي يرغبون في نقلها الى أهل الارض .

لو تنطق المومياءات

أما المومياءات ، فإن لها نظيرها في عالمنا المعاصر . فكما يحاول علماؤنا اليوم في عصرنا الفضائي « تجليد » البشر بالبرودة ، وحفظهم لأجيال في حالة من « الحياة ـ الموت » ، فان المومياءات هي حصيلة التجارب الناجحة لرواد الفضاء الزوار في هذا المجال . . . ويعتقد المؤلف أن المحنطين داخل الاهرامات يحملون معارف مذهلة ويحفظونها ، في انتظار ايقاظهم بصيغة كميائية نجهلها !!!

لو نطقت المومياءات ترى ماذا كانت تقول ؟ وهل أول ما تقوله هو المسارعة الى نفي هذه النظرية أم تأكيدها ؟ . .

المومياء هي أبرز شاهد لهذه النظرية ، ولكنها للاسف شاهد أخرس ! هكذا شهود الحقيقة دوماً !

بعلبك : مطار فضائي

وبعلبك ليست مركزاً أثرياً وتاريخياً مهماً ، كما يتوهم اللبنانيون المعاصرون ، بل هي مطار فضائي . وهي ليست مجرد مركز سياحي جذاب معاصر لاستقبال السياح من كافة اقطار الارض ، بل هي مركز سياحي لاستقبال السياح القادمين من الكواكب الاخرى في الماضي السحيق ! هذه النظريات ترى في بعلبك مطاراً فضائياً من الدرجة الاولى ، وقد بني فيه المعبد المعروف بعد رحيل « الرواد ـ الأرباب » عن أرضنا . فهل ؟ . .

انفجار ذري في الاردن

يطالب المؤلف بدراسة البحر الميت دراسة جيولوجية للتأكد من أن انفجاراً ذرياً لم يقع في المنطقة إياها منذ أقدم العصور . . . وهو يفسر حكاية تدمير مدينتي سدوم وعمورية بأن رواد الفضاء رموا فيها قنبلة ذرية لأسباب مجهولة ، ربما على سبيل « الحرب الوقائية » أو لاستعراض جبروتهم وتخويف بقية أهل الارض المشاكسين والكسالى ! . .

الاساطير والكتب القديمة

الأدلة التي تسوقها هذه الكتب لا تقتصر على الشواهد المادية وآثار العالم القديم ، بل ان جزءاً هاماً وخطيراً من منطقها مبني على الاساطير العتيقة ، والكتب الادبية والنصوص الدينية القديمة جداً . . .

وفي اختصار سجل هذه الكتب قاسماً مشتركاً بين اكثر ديانات العالم القديم : « الآلهة » تأتي في مركبات من السماء . « الآلهة » تعود في العربة نفسها الى السماء . غضب « الآلهة » انفجار ذري . من يرَ وجهها يحكم على نفسه بالموت .

وحتى نموذج « آلهة » الاسكيمو ليس رجلاً شاهقاً من الثلج مثلاً . وإنما هو كائن ذو أجنحة نارية قادم من السماء . وهم في ذلك يشتركون مع الهنود الحمر القدماء العابدين « لطيور الرعد » القادمة من السماء . . .

اول رحلة فضاء في التاريخ

أما ملحمة جلقامش ، فتفرد لها هذه الكتب فصولاً مطولة . وتفسرها على ضوء رؤيا علمية فضائية . ولا بد من الاعتراف بأن النتيجة مثيرة للفضول . إن لم أقل مذهلة ! . . وفي ملحمة جلقامش ، نجد وصفاً مدهشاً لأول رحلة فضاء في تاريخ البشرية ، يقوم بها عراقي لا اميركي ، ونقرأ كيف تبدو الكرة الارضية كلما أمعن الرائد تحليقاً وابتعاداً عنها . وفي اللوح السابع من ملحمة جلقامش ، نقرأ على لسان « أنكودي » ذلك الوصف خلال رحلة قام بها بين فكي نسر ملتهب . ويسأله النسر بين حين وآخر : « أنظر الى الاسفل ، كيف ترى الأرض ؟ » وبدت الأرض كجبل كبير والبحر كبحيرة . ثم طار به حوالي اربع ساعات أخرى وكرر سؤاله : انظر الى الارض كيف تبدو لك والى البحر كيف تراه ؟ » ويجيب « أنكودي » باستمرار في عبارات لا يمكن أن تصدر إلا عمن يعيش بالفعل رحلة فضائية ، ويرى الأرض من بعيد بعيد . . .

وفي ملحمة جلقامش أيضاً ، يخرج جلقامش وأنكودي لزيارة الارباب ، وكانت ابراجها (المعدنية) تلتمع تحت اشعة الشمس من بعيد ، لكن صوتا كالرعد خرق آذانهم وهم في الدرب (مكبر ، وشريط تسجيل ؟) وقال لهم : « عودوا . . . لا أحد من البشر مسموح له بأن يطأ الجبل المقدس حيث يعيش الارباب . . . من يحدق في وجه الأرباب محكوم عليه بالموت » !

وفي اللوح الثامن من جلقامش ، يموت « انكودي » (رائد الفضاء البشري الأسطوري الاول) ميتة غامضة ، ويتساءل جلقامش : ترى هل سبب موته انه استنشق

« الانفاس السامة لطائر سماوي » أي بعبارات علمية : مات خنقاً بالغازات السامة التي تنتج عن احتراق وقود الصواريخ ؟ ! كيف خطرت هذه الفكرة لجلقامش حول « التلوث » ؟ !

حجر في مستنقع الخيال

سواء كنا حقاً من نسل أقوام ذكية تقطن كوكباً آخر أو لا ، وسواء كانت مشاعر الغربة في قلوبنا حنيناً غامضاً للعودة الى آبائنا الاصليين أو لا ، وسواء كانت هذه النظرية حقيقة علمية أو لا ، فانها تظل حجراً ذهبياً يرمي به اصحابها في مستنقعات الخيال الراكدة في قلوبنا ، والتي تزيدها متطلبات الحياة اليومية وروتينها ركوداً ، وتظل قراءتها متعة . . .

فاذا ما ضاقت بك الحياة ذات يوم ، وحلمت بالهجرة الى وطن آخر ، فإنك تستطيع اليوم أن تحلم بهجرة الى كوكب آخر تماماً . ولكن ، هل كل ما يبقى من هذه النظرية هو الحلم ؟ !

اعتــــــراف

نشرت محتويات هذا الكتاب بأكملها في المجلتـين التاليتـين (وفقـاً للتـرتيب الابجدي) :

مجلة الأسبوع العربي (اللبنانية)

مجلة الحوادث(اللبنانية)

أســــــف

هذه الكتابات ، نشرت يومئذ متكاملـة مع صور تعذّر الآن نشرها ، بعـد أن أتـت عليهـا نار الحـرب اللبنـانية ، بعضهـا فوتوغرافي والبعض الآخر وثائقي فني .

انـوه بوجـه خاص ، بالصـور الفوتوغـرافية التـي رافقـت موضوعـات التقمص ، وكانـت تمثـل جميع شخـوص الحالات اللبنـانية التـي أشرت إليهـا ، مع أسرهم . وكانـت بمثابـة دليل مادي حي ، وشاهد لا يعوض للصحافي والباحث .

الفهرس

مؤلفات غادة السمان

عيناك قدري	(الطبعة التاسعة)	(قصص)
لا بحر في بيروت	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
ليل الغرباء	(الطبعة الثامنة)	(قصص)
رحيل المرافئ القديمة	(الطبعة السادسة)	(قصص)
بيروت ٧٥	(الطبعة الخامسة)	(رواية)
كوابيس بيروت	(الطبعة السادسة)	(رواية)
ليلة المليار	(الطبعة الثانية)	(رواية)
حب	(الطبعة التاسعة)	
أعلنت عليك الحب	(الطبعة التاسعة)	
غربة تحت الصفر		
الأعماق المحتلة		
أشهد عكس الريح		

منشورات غادة السمان

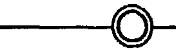
بيروت ـ لبنان ص.ب: ١١١٨١٣

تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان
الأعمال غير الكاملة

صـــدر منهـــا:

١ ـ زمن الحب الآخر	(الطبعة الخامسة)
٢ ـ الجسد حقيبة سفر	(الطبعة الثالثة)
٣ ـ السباحة في بحيرة الشيطان	(الطبعة الخامسة)
٤ ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	(الطبعة الرابعة)
٥ ـ اعتقال لحظة هاربة	(الطبعة الخامسة)
٦ ـ مواطنة متلبسة بالقراءة	(الطبعة الثالثة)
٧ ـ الرغيف ينبض كالقلب	(الطبعة الثالثة)
٨ ـ ع غ تتفرس	(الطبعة الرابعة)
٩ ـ صفارة انذار داخل رأسي	(الطبعة الثانية)
١٠ ـ كتابات غير ملتزمة	(الطبعة الثانية)
١١ ـ الحب من الوريد إلى الوريد	(الطبعة الرابعة)
١٢ ـ القبيلة تستجوب القتيلة	(الطبعة الثانية)
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة	
١٤ ـ تسكع داخل جرح	



منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص.ب: ١١١٨١٣

تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠



بحيرة عجيبة تلك التي اختارت غادة السمّان أن تسبح فيها في المجلد الثالث من «أعمالها غير الكاملة». إنها تسميها بحيرة الشيطان، وهي في الحقيقة بحيرة كل ما يتجاوز الحدود الظاهرة والضيّقة للعقل البشري المتوارث.

«السباحة في بحيرة الشيطان» لن يكون مجرد عنوان لكتاب جديد تضيفه منشورات غادة السمّان إلى لائحتها، بل سيكون في المقام الأول مدخلاً إلى نوع جديد وغير مألوف في الأدب العربي المعاصر، وإن يكن قد أصاب في الآداب العالمية المحدثة شهرة ولقي إقبالاً: إنه أدب «الباراسيكولوجيا»، أي علم الظاهرات النفسية الخارقة للمألوف والتي لم يتمكن العلم الوضعي بعد من قول الكلمة الفصل فيها.

لقد جمعت غادة السمان في «السباحة في بحيرة الشيطان» بضعة نصوص أساسية وموضوعاتها كلها تدور حول طاقات وقدرات الإنسان ما فوق العقلية وحول ظاهرات الطبيعة اللاطبيعية.

المحاور التي تتحرك ضمنها مقالات «بحيرة الشيطان» هي الجنون والمخدر والسحر والتقمص والتنويم المغناطيسي ورقي الشياطين وحضارات الكواكب الاخرى. وميزة هذه المقالات جميعاً انها تجمع بين الفتوحات الموضوعية لعلم الباراسيكولوجيا المحدث وبين التجربة الشخصية للكاتبة وهذا ما يعطينا نكهة خاصة تميزها عن الأدب المعهود في هذا المجال. فغادة السمّان لا تكتفي بأن تلبس دور العالمة النفسية لتحدثنا عن عالم المجنون والمجانين من وراء قضبان العلم، بل تقتحم أسوار «مستشفى العقلاء» لتحاول أن تأخذ الحكمة والشعر والحقيقة من أفواه المجانين بالذات. كما انها لا تحدثنا عن عالم مدمني المخدرات من خارجه، بل تُقْدِم طائعة مختارة على تعاطي أقراص من مخدر «ل.س.د» لتصف لنا، من الداخل، الأحاسيس والمشاعر والخيالات التي تعمر عالم المدمنين.

ومع ان «السباحة في بحيرة الشيطان» هي، كما ذكرنا، أول محاولة باراسيكولوجية من نوعها في أدبنا الحديث، لكن غادة السمّان هيأت لها بذخيرة ومؤونة وافرة من خزانة الأدب العالمي.

جورج طرابيشي

منشورات غادة السمان